عودة الحشــاشين

دماء على أسوار قلعة آلمُــــوت

عبد الحميد السنبسي

عودة الحشـاشين

دماء على أسوار قلعة آلمُـــــوت

عبد الحميد السنبسي

مراجعة لغوية: خالد ربيعي

تصميم الغلاف: محمد مجدي

رقم الايداع ٢٠١٦/٢٦٥٦٣

سار الفتى النحيل ذو القوام المُنحني من سوء التغذية مُتَلَفِعا بأسْماله البالية، ومُنْقَبِضا على نفسه من قسوة الشتاء، يجرّ ساقيه بخطوات لاهثة، خارجا من الميدان الفسيح المتلألئ الأضواء إلى الزقاق الضَّيق المظلم، وما إن دَلَفَ إلى ذلك الزقاق ومرّ تحت بقعة الضوء الخافتة الصادرة عن عمود الإنارة القديم، حتى انتفض فجأة واعتراه خوفٌ شديد على إثر قبضة باردة وعنيفة على عنقه من يد قوية خشنة الملمس ذات أصابع طويلة مُسْتَدَقَّة التفَّت حول عنقه حتى كادت تتلامس من جانبي رقبته النحيلة.

توقف الفتى فجأة ليجد نفسه وجها لوجه أمام بسيوني، ذاك الرجل الغامض الذي يظهر فجأة ويختفي فجأة.

همس في أذنه بسيوني بلهجةٍ لطيفة وابتسامة فاترة مع ضغطةٍ آمرة على كفِّ يده قائلا: اتبعني.

تبعه الفتى في صمت كأنه مسحور وكأن بسيوني يربطه إليه بخيط غير مرئي، متسللين عبر الأزقة الضيقة المظلمة إلا من بصيص ضئيل من الضوء الذي تلقيه أعمدة النور الصَّدِئة على مسافات متباعدة، كانا يمران حينها خلال الظلام الدامس فكأنها تتصدق على الزقاق ببعض نورها وتَضِنُ أن تَمْنَحَه ضياءها الكامل مثلما تتصدق الأحياء الراقية على الفقيرة ببعض ما زاد عن حاجتها، لتظل تلك الأحياء على حالها لا تنهض لتعتمد على نفسها ولا تقتلها الفَاقَة فتتعرض للانهيار، ومن ثَمَّ تصبح مشكلة للأرِسْتقراط.

كان ضياء الفجر المُتَرَبِّص على وشك أن يشقَّ عباءة الظلام الثقيلة بسكينه الحاد عندما انحرف بسيوني بغتةً إلى أحد أبواب المباني العتيقة، وقفز بخفة فوق بقعة الماء المتجمعة أمام الباب.

كان المكان كله يَعْبَق برائحة يعرفها الفتى جيدا، لكنَّ ضِيْق ذات اليد يمنعه من نَيْلِها، واستيقظ الفتى من تأملاته على صوت بسيوني يأمره بالصعود.

عند الطابق الثالث طرق بسيوني على باب المسكن المواجه للدرج طرقات معدودة، فانفتحت كُوّة صغيرة في الباب أطل منها وجه ذو سِحْنَة تشبه الجرذ له

شارب خفيف وشعرات من لحية خفيفة وطويلة صهباء اللون تصل إلى أسفل تِرْقُوَته، ولما وقع بصره على بسيوني أسرع بفتح الباب دون أن يَنْبِسَ ببنت شفة.
دخل بسيوني وتَبِعَه الفتى إلى البَهْوِ الداخلي، كان بسيوني طويل القامة بشكل لافت، نحيف القدِّ، جسمه يكاد يأخذ شكل القوس وهو يسير بخطوات رَتِيْبَة مادّا جِذعه إلى الأمام، وتتحرك رأسه صعودا وهبوطا مع حركات قدميه كأنه بَعْير أعجف يسير على رمال الصحراء الغزيرة.
كان مَرْأى البهو من الداخل على عكس منظر المنزل والشقة المُزرِيَيْنِ من الخارج، إذ دَلَّت في داخلها على الذوق الرفيع، تزينها صور طبق الأصل للوحات رسامين عالميين، واكْتَسَت جدرانها بلون أخضر لؤلؤي مريح للعين من تلك الدرجة من اللّون التي يستخدمها الأطباء النفسيون في عياداتهم، ليشعر المريض بالراحة ويسهل عليه الإفْضَاءَ بما يجول في نفسه. كانت الأرضيات مغطاة ببساط ناعم طويل الوَبَرة حتى تكادُ الأقدامَ أن تغوص فيه.
أمره بسيوني بصوت خفيض، ولكنه حازم النبرات، أن ينتظر قليلا على الأريكة الوحيدة في ذلك البهو الواسع ريثما يعود إليه.
جلس الفتى على جانب الأريكة بحذر، ضامّا ساقيه وعاقدًا ذراعيه عليهما في تَوَجّسٍ كأنما يتأهب للفرار عند أول صيحة.
ازدحمت الأفكار والهلاوس في رأس الفتى، وتناهت إلى سمعه أصوات خافتة غير مفهومة تأتيه من خلال الباب الزجاجي المعتم في منتصف البهو الذي تبدو من خلفه أشكال وهمية لأناس يمارسون شيئا لا يدري كُنهه، واعتراه خوف شديد لهذا الغموض الذي يلُف المكان، وجالت عيناه في أنحاء المكان يستطلع ماهيته، وانبهر بحسن تنسيقه وتنظيمه، ذلك لأنه لأول مرة تطأ قدماه مثل هذه الأماكن الفخمة، وأقصى ما كان يصل إليه عندما كان يعمل في توصيل الطلبات هو بسطة السلم أمام شقق طالبي الحاجات من محلات البقالة في الحي، ولم يسمحوا له حتى بمجرد النظر من خصاص الأبواب عند تسليم الطلبات.
أيقظه من سهومه وخيالاته صوت بسيوني يطلبه للدخول.

فتح بسيوني الباب ذا المصراعين بكلتا يديه وهو يتقدم عبودا، فانفرج الباب عن قاعة كبيرة وقد اصْطَفَّت على جوانبها قطع من مجلس عربي أنيق يتصدره مقعد وثير يرتفع قليلا عن المجلس.

تربّع على المقعد شيخ أشيب ذي لحية اختلط سوادها ببياضها مُشَذَّبَة بعناية، يعلوه الوقار والهَيْبة وقد تحلَّقَ حوله شباب يشبهون الفتى النحيل، تبدو جَلِيَّة عليهم سَيْمَاء العَوز والفاقة التي لا تخفيها ملابسهم الجديدة، وبين أيديهم أقداح فيها مشروب ذو رائحة عطرة انسابت في خياشيم الفتى، فأشعرته بالارتياح وأزالت بعضا من الرهبة لديه حتى من قبل أن يتذوقها، وسرى الدفء في أنحاء جسده المقْرور، وانبسطت تلافيف جلده التي جَمّشها البرد.

كانت أمام الشيخ مجمرة كبيرة تنفث دخانا أخضر مشوبا بزرقة خفيفة، له تلك الرائحة التي استنشقها الفتى من مدخل المنزل، شعر الفتى بأحاسيس مختلطة وغريبة، لكنها كانت أحاسيس مريحة مبهجة، مدَّ الشيخ مسعود إليه يده مرحبا:

ـ أهلا يا "عبّود"!

فوجئ الفتى بأن الرجل يعرف اسمه، فتساءل:

ـ أوَ تعرفني؟

رد الشيخ :

ـ ألَسْتَ عبّود بن محمود السمّاك الذي كان يبيع السمك في أول زقاق الشيخ هاشم في البيت ذي الغرفة الواحدة، والذي باعه أخوك وألقى بكم في عرض الشارع منذ سنتين، وأنت الآن بلا مأوى؟

أصابت الدهشة قلب الفتي من غزارة المعلومات التي يعرفها الشيخ عنه، فارْتجَفَ واعْتَراه خوفٌ شديد، وأوشك أن يُطلقَ ساقَيْه للريح هربا من هذا الموقف الغامض، غير أن اليد الناعمة الدافئة للشيخ استبقت راحته فيها، وأخذ يضغط عليها بحنوٍ بالغ قائلا:

ـ اطمئن يا بني، ليس عندنا إلا ما يرضيك وقد فتحت لك الجنة أبوابها.

انْتَحَى بسيوني بالفتى جانبا وهمس في أذُنه:

ـ أطِعِ الشيخ يا عبّود تُفتح لك أبواب الجنة، كما قال لك، ولا تخْشَ شيئا، فالشيخ (إيده طايلة) ولا تقف كراماته عند حدّ.

لم يفهم الفتى ما يدور أمامه ولا ماهيّة هؤلاء الفتية الصامتين الذين كلما ذكر الشيخ شيئا أوْمَأوا بالموافقة على كلامه كأنه وحيَ منزّل.

كانتا عينا الشيخ النافذتان تُشعرانِه بالرهبة وتَكادان تُقيدانِه بخيوطِ غير مرئية كلما هَمَّ بالاعتراض أو الاستفهام أو حتى الاستفسار عن سبب استدعائه، وأوحت إليه نظرات بسيوني أن مجرد الاعتراض على كلام الشيخ قد يُعتبر إهانة له، صمت الفتى مُنقادا على غيرِ رغبةٍ منه، لكنَّه كان لا يزال قَلِقَ النفس مُزَعْزَعَ الوجدان.

أعطاه الشيخ بيده كأسا مُتْرَعَة من ذلك العصير الذي يشربون، وما إن أدناها الفتى من شفتيه حتى شعر بطعم غريب لكنه رائع، ولأول مرة يتذوق طعما مثله، وصعدت الرائحة الزكية إلى خياشيمه فزادته متعة، وبدأ رَوْعَهُ يَفْرُخ دون أن يعرف سببا للقلق أولاً ولا للراحة بعده.

استمرّ بسيوني يهمس في أذن الفتى ويَسْرِدُ عليه من كرامات الشيخ والأيادي التي قدَّمها لأهل الحي وشبابه، وأنه سوف يناله من كرامات الشيخ الكثير، شرط أن يطيعه في كل ما يأمر به. ثم رانَ على البهو صمتٌ عميق لم يقطعه إلا أذان الفجر من المسجد القريب.

قام الشيخ يتوضأ وقام الفتية مثله يتوضأون، ووجد الفتى نفسه وحيدا، ثم أتى الشيخ يقطر الماء من لحيته وأشار للفتى بلطف قائلا: توضأ وصلِّ معنا الفجر.

دخل الفتى إلى الحمّام الْمُزَخْرَفِ من الداخل، وبلغت حَيْرته مُنتهاها عندما لم يَدْرِ كيف يفتح صنبور المياه، وباءت محاولاته بالفشل، ولما فقد الأمل في كيفية فتح الصنبور، حانَت منه حركة عفْوية اصطدمت بِمِقْبض الصنبور المزخرف فتدفق الماء منه، ساعتها عرف كيف يفتحه، ثم وقف جامدا، فلم تنته بعدُ حَيرته، لأنه لم يتوضأ من قبل ولا يعرف كيفية الوضوء.

بلَّل الفتى وجهه ويديه وقدميه بالماء، ولما خرج وطِئَ البساط النفيس بقدميه المتشققتين، اللتين لم يغمرهما الماء جيدا، فَنَبّهَهُ الشيخ إلى أن يعيد الوضوء ويُسْبِغَه على أعضائه، وتقدم الشيخ ليصلي بهم.
لم يكن عبود يَدْرِي ما يقول في صلاته ولا ما يفعل، غير أنه حَاكَى حركات الصلاة كما يفعل الفتيان، وفعل مثلما فعلوا، وقضى وقته في الصلاة يفكر فيما وضع نفسه فيه وهو مأخوذ، وكان يُتَمْتِمُ بكل ما يعرف من أدعية وآيات أو ما ظنَّ أنها آيات، سمعها عَرَضًا من تلفاز المقهى أو من أفواه الناس، فقد كانت هذه أول مرة يصلي فيها، ومع ذلك شعر براحة عجيبة تتمشى في أنحاء جسده ومفاصله لم يألفها من قبل، ولا يعلم لها سببا، ثم جلس الشيخ يحدثهم في أمور الدنيا والدين.
كان مما قاله الشيخ إن هذه الدنيا ممر وليست بمستقر، وقد أفلَحَ من نجا منها وعبر جسورها سالما غانما، ثم صمت وزاد بعدها: وفي طاعتنا الخير والسلامة.
كان الفتى يسمع هذا الكلام لأول مرة، وما معنى مَمَر؟!، أهناك حياة أخرى غير التي نحياها؟ وما شكلها؟ وما قوامها؟
ثم ما الداعي إلى حياة أخرى نعاني فيها شَظَفِ العيش مثلما نعاني الآن؟
لم يكن الفتي يدري شيئا عن ذلك، فهو لم يُعطِ الدين جانبا من حياته قط، وإنما يسير مع الناس فيما هم سائرون، ينام ويصحو ويمارس حياته بنفس النمط يوما بعد يوم، ولم تك تحمل له كلمة حرام إلا أن هذا الشيء ممنوع، ولا يدري من الذي حرَّمه ولمَ.
كان أحد شباب الزقاق يقوم على تحفيظ القرآن لأولاد الحي، وكلما حادَثَ عبودا في ذلك اعتذر له بضيق الوقت، لكنَّ ما قاله الشيخ جعله يفكر مرة أخرى في معنى الحياة الأخرى.
انقطع وارد الفكر لدى عبّود عندما هبّ الشيخ واقفا، وكانت هذه إشارة إلى انصراف الفتية.

بدا الشيخ ذا قامة رياضية وطولٍ فارع، كما أن عضلاته المجدولة كانت بادية من خلال الثوب الحريري الفاخر الرقيق الذي يرتديه.

كان كلام الشيخ ينزل على قلب الفتى عبود بردًا وسلامًا، إلا من غُصَّةٍ تلوحُ دائما في ثنايا كلامه تجعله يشعر بعدم الارتياح قليلا مثل المرارة الخفيفة في سُؤَرِ الشاي الثقيل الذي كان يشربه في قهوة اللَّبَّان عندما يكون موسِرًا.

كان عبّود لا يرتاح لمرأى بسيوني بطبعه، كما لم يكن الفتي الذي يقع عليه اختيار بسيوني يظهر في الحي مرة أخرى، ولم يكن أحد يدْري إلى أين ذهب.

******

النشأة الأولى

نشأ عبّود - لكنه لم يترَعْرَع - في أحد الأحياء الهامشية، وكانت حياته أشْبَهَ بالْمَوَات منها بالحياة.

كان ذو وجه صَبُوحٍ يكادُ وَبيص ما بين عينيه يُشِعَ نورا وألقًا، رقيقَ الحاشية، تملأ بسمته وجهه، ويشعر مُحدِّثَه أن جسده كله يبتسم، خصوصا عينيه العسليتين اللتين تتمتعان بجاذبية آسرة، لكن سحابة من حزن دفين كانت تغشى مُحياه بين الحين والآخر، وقد خطَّت في جبهته العريضة سطورا من التجاعيد وهو لم يزل بعد في صباه.

لم يكُ عبود ينطق بفاحش القول حتى عند الغضب، وكان يجتنب الألفاظَ الساقطة التي يَلوكُها الفتية في مثل سنه من الطبقات الهامشية، وظهرت بوادرَ قوة شخصيته مبكرا بين أقرانه، إذ يقودهم للعب الكرة، ويتولى توزيع المواقع عليهم، بالرغم من أنه لم يكن صاحب الكرة كما جرت العادة، لكنهم كانوا يطيعونه ويمتثلون لأمره.

كان نحيل القدِّ غائرَ العينين لسوءِ التغذية، عانى مَشَقَّاتِ الحياة منذ أن رأى النور، كان ذكيا جريئا واسعَ الحيلةَ، بالرغم من أنه لم يَرْتَدِ المدرسة لضيق الحال، وبدلا من ذلك كان يعمل في توصيل الطلبات لأهل الحي من الحوانيت المختلفة على أول الزقاق، والجميع يعرفونه، العم سعيد الكهربائي وعبده البقال، وغيرهما، مُذْ كان في السابعة من عُمُره وهو يقوم بتوصيل الطلبات لزبائنهم، واشتهر بخفة ظله وأمانته.

ذات يوم تَلَقَّاهُ أحد زبائنه غاضبا ونهره قائلا:

ـ "اللمبة" الموفرة للطاقة التي أحضرتها لي لا تعمل!

فردَّ عليه عبود بابتسامة واسعة:

ـ لهذا تسمى موفرة للطاقة؟

ضحك الرجل ونَقَدَه جنيها إعجابا بسرعة بديهته وطرافة رده، بعدما وعده باستبدالها.

كانت قدماه قد تَشَقَّقَتا بفعل البرد القارس، وبرزت أصابع قدميه من الْخُفِّ الْمُرَقَّعِ الذي حالَ لونه إلى لون الرُّقَعِ، واختفى لونه الأصلي تماما.

كان يضع ذلك الخف في قدميه صيفا وشتاءً، وكلما نَمَت أصابع قدميه كانت تجد لها مُتَّسَعًا في فتحات الخف المهترئ، فلم يكن يضيق عليه مع تقدمه في العمر واسْتِطالة أصابعه.

وفي نهاية يوم عمل مُضْنٍ كَلَّت فيه يداه وكتفاه من حَمْل الطلبات إلى أهل الحي، تَبَقَّى قليل من الطاقة في ساقيه، فأخذ يلهو بِعُلْبِة مياه غازية فارغة يلاعبها بقدميه، حتى إذا وصل إلى أول الزقاق سمع صراخا مُلْتَاعا، وأنفاسًا مُتلاحقة حَرَّى، وتأوُّهاتٍ عميقة، ولم يَدْرِ من أي البيوت يصْدُر ذاك الصراخ، إلى أن استرق السمع جيدا، فتناهى إلى سمعِه صوت أحد إخوته يبكي من خلف الباب.

لما وَلَجَ إلى المدخل الضيق لبيته وجد أباه الْمُسِنَّ واقفا متجهما يكتمُ مشاعره في أسىً واضحٍ، وكانت لِحْيَتَه المهمَلة الشعثاء التي خالطها الشَّيْب مُبَلَّلَة بالدموع، كان يَنْتَحِبُ دون صوت، وعندما وقعت عيناه على عبود تناوله بين ذراعيه وضمّه بِحُنُوٍّ بَالَغٍ، وأجلسه إلى جواره، كان عبّود لا يَدْرِي ما الذي يحدث، لكن حزنا مُمِضًّا اخترقَ شِغَافَ قلبه كالنَّصلِ الحادِّ، دون أن يدري له سببا، وبَدَتْ في نظرات عينيه الشاردة آياتُ الأسى واللَّوعةِ، ثم أمسك بيد أبيه يسأله بلهفة تتقطع لها نياط القلب:

ـ ماذا حدث؟

انحنى أبوه وضَمّهُ إلى صدره يحتويه بكلتا يديه قائلا:

ـ لقد رحلت أمّك.

لم تعانِ أمّهُ من الأمراض سوى السّارية منها فقط، لكن سوء التغذية أضْعَفَ مقاومتها لأي وعكة، وعجَّل برحيلها، فقد كانت تُؤْثِرُ أولادها وزوجها على نفسها بما يستطيع أن يوفره زوجها من ضرورات الحياة لهم، ولم يكن يوفر إلا القليل، وقد كانت عزيزة النفس تأنف أن تمد يدها إلى الموسرين وذوي النعمة.

صُعِقَ عبُّود لِهَوْلِ الصَّدمة، وألقى وجهه بين كفيه يَتَهَيَّأُ للبكاء، فَبَادَرَهُ أبوه قائلا:
ـ لا تبك يا ولدي، لم يُخلقِ الرجالُ للبكاء، وأنت رجل.
كَظَمَ عبّود حزنه وألمه في نفسه استجابة لأبيه، وأمسكت عيناه عن إرسال الدموع، لأنه رجلٌ كما قال أبوه، ومنعه ألَمُ اللحظة أن يسأل أباه عن بكائه هو.
انتحى عبود جانبا صامتا لا يدري ماذا يفعل، ثم انفتح الباب وخرج الرجال يحملون النعش إلى مثواه، فسقطت دمعة حارَّة على وجْنَتِه رغما عنه، إذ لم يستطع لها دفعا ولا إلى ردها سبيلا، غير أنه لم يُصدر صوتا، وبات يومه طاويا دون طعام تخنقه العَبرة كلما فكَّر في أمه وخلوّ البيت منها ومن صياحها المستمر على أولادها، وامتلأ قلبه الصغير حزنا وغما، وتمنى لو أنها عادت ونفذت تهديدها بضربه "علقة موت"، كما كانت تدَّعي في كل مرة يرتكب فيها خطأً، ولم تنفذ وعيدها أبدا.
فَقَدَ عبّود القدرةَ على البكاء منذئذٍ وكأنَّه فَقَدَ القُدرة على النطق، وكأن غُصَّةً كبيرة في حلقه تَوَدُّ أن تخرج، لكنه لا يستطيع إخراجها، وهو يعتقد أنها لن تُبارِحَ جسده إلا ومعها الرّوْح.
كثيرةٌ هيَ المواقفِ التي مرَّ بها الفتى بعد ذلك تَسْتَدْعى البكاء وتَسْتَدِرُّ الدموع من أقسى القلوب، لكنَّه لم يستطع حتى إن أراد، فَلَمَّا لم يَبْكِ على رحيل أمه، لم تذرف عيناه دمعة واحدة على رحيل أبيه بعدها بسنة، وما نزل به من نوازل بعدها رآها هَيِّنةً مهما بلغت قَسوتها ولا تُقاسُ برحيلها، فأصبحت عزاءه كلما نزلت به مصيبة، لكن هذه الغُصَّة لازَمَتْه طوال حياته، وحَفَرَت أخاديد عميقة في قلبه ووجْدانه لم تبرأ مع مر السنين وكرِّ الأيام، بل زادتها المصاعب عُمقا وألَمًا، لأنه لم يستطع أبدا أن يمارسَ رفاهية البكاء ولا تَرَفَ الإفضاء.
استمرت حياة عبّود قَلِقة وغير مستقرة مُتَقَلِّبا في كل الأعمال التي لا تحتاج إلى مهارة ولا إلى علم، وكان يقضي سحابة نهاره في تلك الأعمال التي بالكاد تسُدُّ رَمَقَه وتُوفر له حاجاته الأساسية ويقضي مساءه على المقاهي الشعبية، إلى أن التقطه بسيوني بعد أن ناهَزَ العشرين من سنوات عمره المفعمة بالمعاناة والآلام.

النادي

نمت عضلات الفتى عبّود نموا سريعًا، واختفت عظام وجناته النافرة تحت بشرته البَضَّة التي نمت تحتها طبقة من الدهون الرقيقة غلفت وجهه وزادت من وسامته وجاذبية عينيه.

وقد اعتدل قوامه فأصبح ممشوقا، واختفت الحراشف والأخاديد التي كانت تحفرها مياه الشتاء الباردة على بشرته، فأشرقت وزَهَت، وزادته التمرينات الرياضية ثقة بنفسه وأصبحت تفوح من ملابسه تلك الرائحة الغامضة التي كان يطلق عليها الشيخ "بخور الصالحين" وقد أوشك أن يبرأ من الكسر الذي أصاب ذراعه، بعد أن قسا عليه المدرب في أحد النوادي الرياضية، الذي توسط له فيه الشيخ ليقبلونه عضوا، ليمارسَ كمالَ الأجسام وبعضا من رياضات الدفاع عن النفس.

اهتم بسيوني بتغذيته ووضعه تحت رعايته المباشرة، وكلما سأل الفتى عن سر الاهتمام البالغ للشيخ به، أجابه بسيوني أن الشيخ يحبّ أن يصنع المعروف ويداوم عليه، وأنه يراك أهلا لهذا الخير لِما وجد فيك من أصالة وشهامة، وهذا من ضمن الأنشطة الخيرية التي يقوم بها الشيخ لأهل الحي، كان الفتى غير مقتنع بهذا الكلام، لكن إغداقَ الشيخ عليه كان يُلْزِمه الصمت.

كان يواصل تدريباته بكل شغف ويقسو على نفسه إرضاءَ للشيخ الذي شجعه على إتقان فنون القتال وبناء الجسم، قائلا له وهو يشد على يديه:

ـ يا (عبود)... "المؤمن القويّ خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف".

لم يكن الفتى بارعا في التعامل مع تلك الطبقة من رُوّاد النادي والجديدة عليه كليا، ولم يستطع التكيف مع سلوكياتهم ولا تلميحاتهم التي غالبا ما تكون جارحة له، يدرك مغزاها حدْسا وتخمينا، لكنه لا يفهم مفرداتها، غير أن أحد الفتيان من هذه الطبقة الْمُتْرَفة كان يتقرب إليه ويحاول إنشاء صداقة بينهما.

في أوقات الراحة كان الفتى ثامر يحكي لعبّود كثيرا من المآزق التي يتعرض لها مع والده من تلك التي تشغل بال الشباب في الطبقة الأرستقراطية، وكان يدرك

أن عبّود لا يفهم كثيرا مما يقول، لكن استعلاء الآخرين على عبّود دفعه إلى أن يتعاطف معه ويحنو عليه، ويحاول تطبيق النظريات التي تعلمها وأعجب بها عليه ومناقشته في أفكارها.

كان ثامر قد تقلب بين الأفكار المختلفة، لكنه كان متأثرا بشكل خاص بكتاب رأس المال لكارل ماركس.

لكن ثامرا كلما فتح هذا الموضوع مع عبّود، كان عبّود يظنه يتكلم بالهندية، غيرَ أن ثامر كان يقتسم مع عبّود الشطائر والعصائر التي كانت تُعِدّها مربيته، وكانت تلك اللغة الوحيدة التي يفهمها عبّود من ثامر، وهذا أيضا ما حبّبه إليه.

كان ثامر يحاول أن يجعل من عبّود شابا آخر، ويطمحُ أن يبني بينهما جسرا للتفاهم، إذْ كان ثامر الولد الأخير بين ثلاث شقيقات وثلاثة صبية، وكثيرا ما كان يملُّ من الحماية والرعاية التي يفرضها عليه والده، بعد رحيل والدته بعد ولادته بشهر.

لذلك نشأ ثامرا مدللا، ولما تفتحت آفاقه واطّلع على الأفكار والمعتقدات بحكم الدراسة وغرامه بالقراءة، أعجبته الأفكار الشيوعية، ولعب الترف والفراغ اللذين ترعرع فيهما دورا كبيرا في تَقَلُّبَهُ بين الأفكار المختلفة والمتناقضة أحيانا، لأنه إذا كانت الفاقة أحيانا تدفع إلى التطرف، فإن التَّرَفَ قد يفعل ذلك أيضا.

كان يشعر في قرارة نفسه أن والده وأمثاله من الرأسماليين هم السبب في تفشي البطالة والفقر بين الطبقات الدنيا، وأنهم هم الذين يساعدون على تفشي الفساد والظلم الاجتماعي.

كان يشعر بتعاطف كبير مع تلك الطبقات، ولَمّا لم يجد آذانا صاغية من والده وإخوته، ورفضا صارما لأفكاره، بدأ ينشرها في أوساط زملاء الدراسة، ولم يكن أكثرهم متحمسين له، فأراد أن يجرب حظه مع أحد المنتمين إلى الطبقات الدنيا، علّه يجد من يستمع إليه.

كان عبّود محل اهتمام وعطف ثامر، إذ وجد فيه مثالا حيّا لتَوَحّشِ الرأسمالية وسحقها للفئات الدنيا من المجتمع الذين هم دون طبقة "البروليتاريا" معيشةً، ولما سمع عبّود هذه الكلمة لأول مرة ظنَّ أنَّ ثامر يسُبّه.
ظل عبود يومين مُمْتَعضا من ثامر، ولا يردُّ على محاولات المصالحة، إلى أنْ شرحها له ثامر بكل صبر، وأعْلَمَهُ أن معناها طبقة العمال الكادحين، حينها انفرجت أساريره قائلا:
ـ "يعني أنا دلوقتي بلوليتاري؟"
واستفاض ثامر في شرح معناها، وإن ظلَّ مستمتعا بطريقة النطق الخاطئة التي يلفظها بها عبّود، كما أن عبّود استوقف ثامر، مستفسرا عن اسمه وإصراره على أن يُخرج طرف لسانه عندما يَنطق حرف الثاء، فسَرَدَ عليه ثامر أنه وُلِدَ في إحدى دول الخليج، وقد أسماه أباه ثامرا على اسم أحد أصدقائه العرب.
أخذ ثامر على عاتقه مسألة تعليم عبّود القراءة والكتابة، وخصص له جزءًا من وقته في النادي، وجلب له الأوراق والأقلام.
أبدى عبّود حماسا كبيرا لذلك، والتقط كثيرا من المفردات والتراكيب اللغوية بسرعة عجيبة، وزوده ثامر بعدد من الكتب والقصص المصورة كان يحتفظ بها بعيدا عن عيني بسيوني الذي كان يحرِّم دخول الكتب أو أي مواد للقراءة في أي مقر من مقرات الشيخ تحريمَ الخمر.
لكن عبود كان يخفيها بين طَيّات ملابسه وتحت الوسائد.
أدى ذلك إلى اتساع آفاق عبّود واكتشافه أشياءً جديدة، وفَهِمَ بعض الأمور التي كانت مُسْتَغْلَقَةً عليه، وأَمَدَّه ثامر بعديد من المجلات المصورة والصحف.
كان عبّود لا ينفك يُطالع كل مكتوب من لافتات الإعلانات في الشوارع، ويقرأ كل حرف يقع تحت عينيه، حتى لفائف الفلافل من بقايا الكتب المدرسية الملوثة بزيت القلي كان يقرأ ما فيها بنهم شديد، واكتشف في نفسه غراما شديدا بالقراءة وولعا بالمطالعة.
كثرت أسئلة عبود لثامر الذي كان صبورا معه ومشفقا عليه.

كان عبّود في لحظات الراحة يحكي قصصا مؤلمة لثامر تجاوزت حد الغرابة عن أيام العَوز والإملاق التي كان يحياها قبل أن يلتقطه بسيوني ويلقي به في جنة الشيخ مسعود، وهذا ما جعل ثامر يحنو عليه، وقد كان بطبعه ميالا لمساعدة ذوي الحاجة والرفق بهم.

ذات مرة كان عبود يستمع إلى نقاش حاد بين ثامر وصديقه فريد في النادي، غير أن عبود لم يفهم كثيرا مما قيل، بالرغم من أنه كان منتبها تماما للحوار، لكنه لم يستطع فهم أسباب النقاش، كما لم يستوعب كثيرا من الكلمات التي يتبادلانها، لكنه أنصت بكل جوارحه، وعلم أن هناك أمورا أخرى في الحياة تستحق أن تُفهم.

قال فريد:

ـ كيف يكون الإنسان مُخَيّرا أو مُسَيّرا؟

ـ يا سيدي هذه مسألة كَثُرَ فيها الكلام، وقُتِلَتْ بحثا حتى أصبحت مُبْتَذَلةً، وعندما سُئِلَ الشيخ الغزالي عنها قال ساخرا: "الإنسان مُخيرٌ في الغرب، ومسيرٌ في الشرق"، وقديما قال الغزالي الأول الإنسان مخيرٌ فيما يعلم ومسيرٌ فيما لا يعلم، يعني كلما ازداد علمه زادت آفاق الاختيار وزادت مساحة الحرية، لذلك يدعو الله دائما إلى العلم، وهو لا يحاسب الناس إلا بالعلم، إذ يقول "وما كنا مُعَذِّبينَ حتى نَبعثَ رسولا"، يعني يُعَلِّمَ الناس ثم يحاسبهم.

ـ ماذا عن حتمية الصراع الطبقي التي ينادي بها أستاذك كارل ماركس؟

رد ثامر بحدة وغضب:

ـ أولا، هو ليس أستاذي، ثانيا، أنا أخالفه في ذلك وأعتقد بحتمية التعايش الطبقي وليس بحتمية الصراع الطبقي كما يقول هو.

ـ أنت تقول هذا بعد انهيار الشيوعية، ألا يعتبر هذا ادعاء للحكمة بأثر رجعي؟ ولا أدري كيف تجمع بين كارل ماركس وتفكيره الماديّ البحت وبين قولك: "الإسلام دين حياة"، وأنا أرى أن ما تقوله هذا جنون مطبق، إذ كيف لك أن تجمع بين النقيضين؟

ـ أنا أعتبر أفكار كارل ماركس تراثا بشريا قابلا للخطأ والصواب، وفيه عناصر كثيرة صالحة للتطبيق، وإذا كانت في فترة ما قد طُبِّقَت خطأً، فالعيب على من طبقها. أما قولي الإسلام دين حياة، ففي أمور الدنيا يقول الإسلام "أنتم أعلم بشؤون دنياكم"، ويعني هذا أن القبول بالمذاهب البشرية مباح طالما لا تخترق دائرة الممنوع في الدين.

ـ قال فريد وقد علا صوته:

ـ هو لا يخترق الممنوع، بل يمزق الدين كاملا.

ـ ألم أقل لك إن المشكلة في التطبيق من أحد الأسباب.

ابتسم فريد ابتسامة واسعة ساخرة قائلا:

ـ أتدرِي ما سبب انقراض الديناصور؟

بادله ثامر الابتسامة قائلا:

ـ أسعدنا بفتاواك.

ابتسم فريد وأتم حديثه قائلا:

ـ لقد كان جهازه العصبي غير متوافق مع جهازه العضلي، وبالتالي فهو لا يشعر بالضربة على ذيله إلا بعد انقضاء خمس دقائق يكون قد وقع فيها فريسة لغيره، والماركسيون كذلك.

ـ المشردون في عالمك الرأسمالي يأكلون من القمامة، وأول ما يفعله الرأسمالي إذا قلَّت أرباحه أن يُسَرِّحَ الموظفين.

ـ العمل عمل، وعليهم أن يعملوا ليأكلوا.

ـ يجب على المجتمع أن يعول من لا يستطيع، وإلا فأين التّوادّ والرحمة اللذين يجب أن يسودا؟

ـ رحمة ستالين "صاحبك" مثلا الذي ساق المشردين والمعارضين إلى أن يعملوا في المناجم والمصانع كالعبيد أو يقضوا جوعا وبردا بالملايين في مجاهل سيبيريا مثلا!

ـ المسألة ليست في إثبات من منهم أشد قسوة من الآخر، لكن في الاستفادة من عثراتهم.

عند هذا الحد لم يستطع عبود متابعتهما، فانصرف إلى تمريناته الرياضية، لكن هذا الحوار فتح في نفسه نوافذ أخرى للتفكير في ماهية الأشياء، وأن هناك عوالم أخرى رحبة ومتسعة غير قهوة اللَّبّان وحواري الحي الذي نشأ فيه.

****

السنوسي بك

في المكتب الأنيق الرحب الذي يعِجٌّ بالموظفين الذين يعملون بلا كَلَلٍ أو مَلل، وفي قاعة الاجتماعات الملحقة به، انتهى الاجتماع الذي أداره رجل الأعمال السنوسي مع شركائه، وكان السنوسي يكره الشهرة ولا يحب أن يعرفه الناس في المنتديات، ويمْقُت أن يكون مُضْغَةً في أفواههم، غير أن شهرته في الأوساط المالية والرياضية تسبقه أينما حَلَّ أو ارْتَحَلَ.

كان رجل الأعمال هذا يملك مصانع عدة، كما يملك أسهما في شركات كبيرة، وكان عضوا في معظم مجالس إداراتها، كما كان عضوا في مجلس إدارة أحد النوادي الرياضية الشهيرة، لكنه كان يفضل الجلوس في مصنع البلاستيك الصغير الذي يعتبره فَأْلَ خير عليه، لأنه عَرَّفَه طريق المال والأعمال في صِباه الباكر، وكان يتلاعب بالملايين وقت أن كان أقْرَانه يتعاملون بالآلاف وفِئَاتِها، وكان ينفق جُلَّ وقته فيه.

انفضَّ الاجتماع حَسْبَما كان يأمَل، وتم الاتفاق على أنه سيتولى التنسيق مع الجهات التي ستُرسي عليهم مشروع المدينة الجديدة التي سوف تنشأ في الصحراء لتكون نموذجا يُحْتَذى في تلك البقعة الجرداء.

تَرك الرجل غرفة الاجتماع إلى مكتبه وتبعه سكرتيره الذي وضع بين يديه ملخص ما دار في الاجتماع، غير أن صاحبنا أزاح الملف جانبا بِتَأَفُّفٍ، وأشار إليه أن أعطني فقط قيمة المبالغ التي تم اعتمادها لتسيير الأمور وأسماء المنتفعين منها وتحضير الشيكات لتوقيعها.

غادر السكرتير على عَجَلٍ، فوضع السنوسي السيجار الكوبي الفاخر بين مَرَشفيه الغليظين اللذين يحاكيان مَشَافِر الإبل، وأشعله وأخذ يرقب حلقات الدُّخان المتصاعدة في سقف الغرفة وغاص في مقعده الوثِيْر، ثم غَرِقَ الرجل في أحلام اليقظة.

تخيّلَ السنوسي نفسه وقد رَسَا عليه تنفيذ مشروع تلك المدينة التي ستنقله من عالم الملايين إلى عالم المليارات، وسوف يدخل الترتيب الذي تعده مجلة "فُوْربْس"

لأغنياء العالم، وكان يَوَدًّ أن يرى اسمه باللغة الإنجليزية في قائمة المجلة المشهورة، حتى لو كان في ذَيْل القائمة، وتخيل كَمّ العداوات التي سوف تنشأ من جَرّاء هذه العملية التي يُعد لها منذ ستة أشهر، ويتحَسّبُ لكل صغيرة وكبيرة فيها.

لكن السنوسي بك لم يخطر بباله قط أن أيادي أخرى ترى غير ما يرى، وأن يكون رئيس مجلس الإدارة قد رأى أمرا آخر وهو قد يُحيل تنفيذ المشروع إلى شخص آخر كان يَمْقُته السنوسي مَقْتا شديدا، حيث إن منافسه المُتَحَذْلِق المتعلم في الخارج، والذي يجيد لغات عدة ويرطُن بها في حضوره، كأنما يتعمد أن يظهر له مدى ثقافته وعلمه.

كان هذا المنافس قد دخل إلى السوق بتوصيات عدة من جهات مالية وسياسية نافذة ومرموقة، وخلال هذه الفترة القصيرة استطاع بدهائه وشبكة علاقاته الدولية التي تيسر له الصعب أن يجد لنفسه مَوْطِئ قدم في البداية، ثم توسّع هذا الموطئ إلى أن أصبح لا يُرى له أول من آخر، ولا تحدث صفقة في أي مكان إلا وله علمٌ بها، بل وصل الأمر إلى إحداث تغييرات اجتماعية تؤدي إلى تسويق منتجاته بشكل متعمد، وخلق حاجات لدى المواطنين لم تكن من أولوياتهم، لتؤدي في النهاية إلى أن تمتلئ جيوبه بالأصفر الرنَّان، أما السنوسي بك فلم يتقن غير لغة العمل والمال، وكيفية التأثير بهما في تسوية أموره وتسليكها، حسب وصفه.

أيقظه من أحلام اليقظة هذه صوتَ حَفِيف الأوراق على مكتبه، بعد أن وضعها السكرتير أمامه، فانتبه إليه ووقع الشيكات ليتم إيداعها في حسابات المنتفعين.

****

المعسكر

بدأ (عبود) مع الفتية مرحلة جديدة من التدريب القاسي على فنون القتال والرياضات التي تُكسِبُ أجسامهم مرونة ورشاقة في الحركة وثقة بالنفس، وقد انتصبت قاماتهم الفارعة كالحسام الممشوق، وبرزت عضلاتهم كالأبنوس اللّامع، وغَدَت وجوههم تبرق في الضِّياء كالنَّحاس المطروق، واختفت التَّقُّوسات في ظهورهم كما اختفت عظام أضلاعهم تحت العضلات المشدودة، كأنها قُدَّت من الحجر الصَّلد.

كان التركيز شديدا على ألعاب الدفاع عن النفس والتَّخَفِّي والتسلق والرماية تحت إشراف مدربين محترفين.

كان التدريب يجري في مقر آخر غير النادي الذي كان مجرد مرحلة أولية في تدريبهم، وكان هذا المقر يقع في إحدى الضواحي الهادئة محاطا بسياج عال من أشجار الْسَرْسُوع المُتَقَاربة الوارِفة والمقلَّمة بعناية لِتُواري ما خلفها.

كان الفتية يُسَاقون إليه في سيارات مُظَلَّلةً ورؤوسهم مُغَطَّاةً بالقماش الأسود، فلا يعرفون إلى أين يذهبون، ومن ثَمَّ يخرجون من المقر بالطريقة نفسها.

كان الشيخ يعتمد هذا الأسلوب مع كل من يدخل أيّا من مقراته السرَية، ولا يأمَن أحدا على مواقعها سوى بضع أفراد قلائل يُعَدُّون على أصابع اليد، وقد اتخذ معهم جميع الاحتياطات التي تمنعهم من إفشاء الأسرار.

كان الفتية يقيمون في عنابر أشبه بعنابر التدريب العسكرية، وكانوا يتناولون طعامهم في غرفة طعام واسعة، كما كانوا يقومون بكل أعمال الخدمة من تنظيف الملابس إلى تنظيف الأرضيات وأغطية الأسرة، وفق نظام صارم يشبه إلى حد كبير الأنظمة العسكرية، ومن كانت نفسه تحدثه بالتكاسل أو التمرد كان يُعاقب بحلق رأسه، والحرمان من وسائل الترفيه، لكن الأمر لم يكن يخلو من بعض المفارقات والمقالب بين الفتيان.

أما بسيوني فكان هو الضحية المفضلة لهم وهو محور هذه المقالب.

كان الفتيان يحرصون على كتمان أسرار المقالب وفاعليها عن بسيوني، بالرغم من تهديده المتكرر وعقابه لهم.

ذات يوم وضع أحد الفتيان محتويات عُلبة من زبدة الفول السوداني في حذاء بسيوني الذي ارتداه سريعا، تلبية لطلب عاجل من الشيخ، ولما وجد داخله لزجا، ظن أن أحدهم قد قضى حاجته فيه، فجمع الفتيان كلهم خارجا في فناء المعسكر، وكانت السماء تهطل بغزارة، وأمرهم بخلع ملابسهم إلا الداخلية تحت المطر وفي البرد القارس، وبدأ يستجوبهم بقسوة ولم يُفْشِ أحدا سر سعيد الأشهل الذي رتَّب المقلب.

كان بسيوني يتلذذ بتعذيب الفتيان، ويجد متعة شديدة في إيذائهم، لذلك ما فتئ الفتيان يدبرون له المقالب القاسية إثر بعضها.

ولما لم يصل بسيوني الى صاحب المقلب، وقد كان الشَّكُّ يملؤه بقوة أن عبود هو من فعل ذلك، أمر الفتيان بالانصراف إلا عبودا الذي استبقاه في الوضع نفسه واقفا تحت المطر بملابسه الداخلية فوق قطعة حجر صغيرة ومرتفعة تسمح له بالكاد أن يضع قدميه عليها، وإما أن يقر بأنه فعلها أو يشي بمن فعلها.

تمسك عبود بعدم معرفته، حتى لاح عمود الفجر، فصرفه بسيوني وقد أصابه الزكام من جرّاء وقوفه في الجو الماطر، لكن سعيد الأشهل لم ينس هذا الموقف لعبود على الإطلاق، واعتبر هذا رجولة وشهامة منه، وأصبح أثيرا لديه من ساعتها.

******

الفِرْدَوْس

تقدم بسيوني بحذر وأدب مُصْطَنَع ومبالغ فيه من الشيخ الذي بادره سائلا:

ـ بسيوني، كم بلغ عدد الفتية الذين أتموا التدريب واجْتَازوا الاختبار الأخير؟

انحنى بسيوني في أدب جَمٍّ حتى أوشَكَ أن يُقْعي على يديه الطويلتين واكتسى وجهه المُتَغَضِّنُ بكل آيات الخضوع والتَّمَلُّق وأجاب:

ـ بلغوا تسعةً يا مولانا، وهم جاهزون وتحت أمركم.

ـ وكم عدد الفتية الذين استبعدوا؟

ـ ثلاثة فقط يا مولانا.

ـ أرسل المستبعدين إلى القلعة.

ـ تمام يا مولانا.

وانصرف من أمام الشيخ وهو يتمتم بكل ما يعرف من كلمات الطاعة والتملق.

كان الفتية الذين لا يجتازون الاختبارات الأخيرة يرسلون إلى مقار الشيخ الأخرى ليعملوا في الخدمة فقط، بعيدا تماما عن الآخرين الذين اجتازوا التمرينات بنجاح ولا يعودون إلى ماضيهم أبدا.

جلس الشيخ في مكانه المفضَّل وتَحَلَّق حوله التسعة الذين اجتازوا التمرينات في أدبٍ جَمٍ واحترام بالغ، مأخوذينَ بهيئة الشيخ وهيبته.

بدأ الشيخ يَسْرَدُ عليهم قصصا من الخرافات والأساطير والكرامات يُغَلِّفها بأحداث من عنده لتؤدي في نفوسهم التأثير الذي يبتغيه.

كان الشيخ بارعا في الإلقاء وحركات الجسد، ويمزِج قصصه وحكاياته ببعض المزاح الذي يجعلهم يرتاحون لحديثه أكثر فأكثر، وكان ينشرح صدره كلما صدرت عن أفواههم أصوات الاستحسان، أو بَدَت على وجوههم تعبيرات الانْبِهَار بما يقُصّ.

ثم توقف عن الحديث فجأة! وتناول قطعة كبيرة من "بخور الصالحين" فَتَّتَها بأصابعه وألقاها في المجمرة المشتعلة أمامه، فانطلقت سحابات كثيفة من الدخان الأخضر الْمَشُوب بالزُّرْقة، وغمرت المكان واستنشقها الفتيان بكل شَغَفٍ وتَلَذُّذٍ، ثم اتَّكَأ على مقعده ومَالَ إلى الخلف وقال بلهجةٍ مسرحيةٍ:

ـ إنه لمن الكرامات للعبد أن يرى ما لا يراه غيره، وقد كشف الله لي بعضا من الحُجُبِ.
ثم صمتَ يسْتَحِثُّ انتباههم وأكمل قائلا:
ـ اليوم سوف تدخلون عالما جديدا عليكم، واعلموا أنه قد تم اختياركم بدقة شديدة لتكون هذه الأعمال التي سوف تُوكَلُ إليكم هي سبيلكم إلى دخول الجنة والتمتع بنعيمها.
ثم توقف فجأة، وأشار إليهم بيده وتغيرت نبرة صوته، فأصبحت أكثر عمقا وكأنهم يسمعونه لأول مرة وقال:
ـ اسمعوا جيدا واذكروا ما سأقوله لكم، سوف أترككم الآن حتى تتناولوا عشاءكم، وسترون في نومكم الليلة أنكم قد دخلتم إلى الجنة، نعم: الجنة الحقيقية، وهذا من النعم الجزيلة التي يجب أن تحافظوا عليها.
أصَاخَ الفتية إلى هذا الكلام باهتمام واعْتَرَاهم خوفٌ شديد، وظنوا أن الشيخ يتلاعب بهم، فكيف يخبرهم بما سوف يَحْلُمون به، إلا إذا كان من أهل الحظوة والخطوة والكرامات؟
ثم أردف قائلا:
ـ فمن رأى منكم شيئا فلا يحدِّث به أحدًا قط، ولا حتى فيما بينكم، ولا بسيوني ولا غيره، لأن الكرامة إذا حَدّثتَ بها انقطعت، بل وسوف تُعاقَبُ على إفشائها.
ولما بَدا على الفتية الذهول وعدم التصديق قال لهم:
ـ اذكروا حديثي هذا بعد أن تروا الجنة.
زادهم هذا القول رهبةً وخَشيةً من الشيخ، فهم لم يجربوا عليه كَذِبا قَطُّ، وأقنعتهم نظراته النافذة بكلماته الجادة وأنه لا يهْزِل أبدا، كما أن أمثالهم يميلون بشكل فِطْري إلى تصديق الخرافات وحَكَايا الجن والكرامات التي تُنسب إلى الْمُشَعْوذِين وقارئِي الْمَنْدَل، وأضاف الجو الأسْطوري والدخان الكثيف المتصاعد من الْمَجْمَرة والرائحة التي تَغْشاهم وتجعلهم كأنما يسبحون في جو المكان، أضاف

ما يكفي من وسائل الإقناع للفتية الذين انتقلوا فجأة من حياة التشرد والْفاقة إلى حياة النعيم في أبهى صورِها.

ولا يبلغ أقصى خيال الفتية عُشْر ما وجدوا لدى الشيخ، فكانوا كأصابع البيانو بين يدي لاعبٍ ماهرٍ يحركها كيف شاء، ويعزف على أوتار قلوبهم الغَضَّة وعقولهم الجاهلة ما شاء من نغمات.

ثم تركهم الشيخ في ذُهولهم وأعطى أوامره إلى بسيوني بإعداد المكان حسبما يتم إعداده كل مرة.

وقام بسيوني بالأمر خير قيام من طلب للطعام الفاخر بكميات كبيرة من أحد المطاعم المشهورة وتجهيز المشروبات.

ثم طلب "الدكتور" ليقوم بمهمته.

تقدم الفتية إلى طاولة الطعام الْمُتْخَمَة بكل ما لذَّ وطاب من الأطعمة التي لا يعرفون منها إلا الخبز وبعض الفاكهة، وكان بسيوني يتولى الشرح ويقدم لهم أطَايب الطعام ويمازِحهم، ويقوم الخدم الذين انتشروا في القاعة بكل ما يطلبون.

قام الفتية بالتهام كل ما على المائدة بشهيةٍ مفتوحةٍ، وشربوا كثيرا من العصائر الطازجة.

ما إن فرغوا من الطعام حتى طلب أحدهم شايا ثقيلا، فرفض بسيوني قائلا:

ـ كل شيء متوافر إلا تلك المشروبات.

وأضاف بلهجة لطيفة ولكن حازمة:

ـ لا شاي ولا قهوة، اشرب من العصائر ما بدا لك.

سكت الفتى عبّود وازْدَرَدَ ما بقي في كأسه من عصير بصوت مسموع، تعبيرا عن الامتعاض.

ما هي إلا برهة حتى غطَّ الجميع في سُبَاتٍ عميق، فقد كانت جرعة المنوِّم التي دَسّها الدكتور في قوارير العصير كبيرة على غير المعتاد، لظنِّه أنَّ أحد الفتية كان مُعتادا على شرب المنبهات، فظن أن تأثير المنوم قد يكون ضعيفا، فزاد الجرعة

قليلا، بالإضافة إلى أن الوجبة الثقيلة الْمُتْخَمة باللحوم والدهون جعلتهم كمن يغوصون في بئر لا قرار لها من السّبات اللذيذ.

ما إن تأكد لهم أن الفتية قد غَطُّوا في النوم، حتى نَشِطَ الخدم في نقل الفتية وهم نائمون كالموتى على مَحَفَّات إلى البَهْوِ الفسيح المجاور، ثم نقلوهم إلى حافلات كبيرة كانت محركاتها تُزَمْجِر، وبدأت الرحلة تشق طريقها بركابها النائمين.

انطلقت الحافلات تخترقُ شوارع المدينة، حتى خرجت عن العمران ثم انحرفت عن جادّة الطريق إلى طريق جانبي ما لَبِثَ أن انقطع.

بدأت القافلة تتخذ طُرقا صحراوية غير مُمَهَّدة، والفتية يغُطُّون في النوم العميق بالرغم من الهزات العنيفة للنُّتُوْءَاتِ البارزة في الطريق، والتي تخدع أكثر السائقين احترافا.

استمرت الرحلة أكثر من أربع ساعات في أودية الصحراء الشاسعة وفي الطرق غير الممهدة التي يمتد النظر فيها حتى حافَّة الأفُق دون أن يُرى أي أثر للعمران أو الحياة سوى الشُّجَيْرات ذات الأوراق الْمُدَبَّبَة الْمُتَنَاثِرة، والتي تنمو ربَّانِيًّا على مياه الأمطار حتى وصلت القافلة أخيرا إلى مُبْتَغَاها.

توقفت الحافلات أمام بوابة كبيرة شاهقة الارتفاع طُلِيَت بألوان صخرية تَمَاهَت مع طبيعة المكان المجاور، ولا يُرى من خلفها شيء.

انْتَصَبَت هذه البوابة في وسط جدار حجري شاهق وعريض ومُمَوّه، لا يُرى إلا لمن يعرفه.

بعد بُرهة انفتحت البوابة وأصدرت صَريرا عاليا، وخرج منها رجل أربعينيَ ذو لحية مدببة شُذِّبَت أطرافها بعناية، فأصبحت كالقَدَحِ الْمُكْفَأ، واضعا على رأسه قبعة كبيرة مصنوعة من القشّ كتلك التي يضعها المكسيكيون، والتي تسمى "السومبريرو"، ويتوَكأ على عصا أنيقةً من الأبنوس اللامع تُداري عَرَجَا خفيفا بساقه اليسرى.

تفحص الأعرجُ الحافلات وما حولها بعين خبيرة، ثم أذِنَ لهم بالدخول.

وَلَجَتِ الحافلات إلى ممر واسع مرصوف بعناية في نهايته بوابة أخرى مغلقة.

جاء الخدم مُهَرْوِلين وأنزلوا الفتيان على مَحفَّات وأدخلوهم قاعة فسيحة، وأحكموا رِتَاج الباب من خلفهم، قال بسيوني للأعرج:

ـ العدد تسعة، مضبوط؟

فأومأ الرجل بالموافقة، وقال لبسيوني:

ـ صحبتك السلامة.

كان بسيوني يَتَحَرّقُ شوقا لمعرفة ما يدور خلف هذه البوابات وما الذي يحدث للفتيان داخلها، حيث إنهم يتغيرون تماما بعد خروجهم من هذه القلعة، إذ يصبحون كالعجينة اللَّدنة في يد الشيخ يطيعون أوامره بالحرف دون تردد، حتى أنه أمر أحدهم ذات مرة بأن يلقي بنفسه من فوق إحدى البنايات الشاهقة إظهارا لسيطرته عليهم أمام أحد عملائه الكبار، ففعلها الفتى راضيا مُبْتَهِجا، وقفز من أعلى البناية فَدُقَّت عُنُقَه وقضى نَحْبَه.

لكنّ مهمة بسيوني كانت تنتهي عند إدخالهم القلعة وتسلمهم منها في اليوم التالي، دون أن يُشْفِي غُلَته أو يَنْقَعَ ظَمَأه بأي خبر أو معلوم.

باءت كل محاولات بسيوني الحذرة لاستكشاف المجهول بالفشل، وكان الشيخ لا يسمح لأحد بأن تتجاوز معرفته حدود مهمته، وكان كثيرا ما يقول "المعرفة على قدر المهمة".

***

تحت إشراف الأعرج أدْخَلَ الخدمُ الفتيانَ إلى القاعة الكبيرة وهم لا يزالون فاقدي الوعي، وبدأوا في خلع ملابسهم التي كانت عليهم ودهنوهم بأصناف من الزيوت العطرية، وألبسوهم ملابس أخرى زاهية مُبَهْرَجَة وعَبَاءات مُقَصَّبة فَضْفَاضْة وأساور صفراء تبدو ذهبية مُطَعَّمَة بالأحجار الملونة، وتم نقل الفتية التسعة إلى تلك البُقْعَة التي كانوا يسمونها الْفِرْدَوْس، حيث وضعت أسرّة وَثِيرة متقابلة ذات ألوان زاهية على أرضية من الزجاج الْمُمَرّد، تجري تحتها المياه من خلال أنابيب دقيقة شفافة لا ترى، وأمامها مَرْجٌ أفْيَح يشرف على رَبْوَة عالية يمتد

من سَفْحِها شاطئ رملي أبيض يكاد بريقه يغشي العيون، امتدت بعده صفحة البحر الزرقاء الصافية الرَقْرَاقَة على مَدِّ البصر.

زُيِّنَت أطراف الْمَرْج بحوائط قُرْمُزِيَة اللون، وَحُفَّت حَوَاشِيه بأنواع من الحصى الملون يبرق في ضوء الشمس، وصفّت مجموعة من الأرائك الوثيرة المخملية في ممرات مرصوفة بعناية حول العشب الزاهي، كما انتشر خلال المرج كثير من النباتات العطرية التي تَبُثُّ أرِيْجَها في جو المكان، فأضفت عليه جوا ساحرا مريحا للعين والقلب.

كانت جدران الشرفة الرَحْبَة التي وُضِعَ فيها الفتيان يَحُوطُها من أحد جانبيها سور من الطوب الزجاجي الذي لا يَشِفُّ ويكاد لا يحجب، بل تبدو الأجسام من خلفه ضبابية غير واضحة.

أفاق الفتية واحدا تِلْوَ الآخر يفركون عيونهم من أثر النُّعاس، وبدأت تعلو وجوههم الدهشة لما يرون ويُحَمْلِقُون برهبة أوشكت أن تُوْدي بعقولهم في ما يلبسون وما يرون حولهم.

الغريب أنهم كانوا يتحدثون معا في القصص نفسها التي كانوا يتهامسون بها قبل أن يبدأ المخدر فعله في رؤوسهم، كأن حديثهم لم ينقطع، وكأنهم بُعثوا على ما كانوا عليه.

كان ذلك بسبب نوعية المخدر العجيب الذي كان يستعمله الدكتور.

ما هي إلا دقائق حتى تقدم رَتْل من الصبية يرتدون ملابس أنيقة مُزَرْكَشَة، ويحملون أنواعا من الحلويات والمشروبات قُدِّمَت للفتية في صمت مع ابتسامة صافية لم يستطع الفتيان لها رفضا، فأخذ كل منهم ما أراد ثم نظر بعضهم إلى بعض يتجادلون:

ـ أهذا حُلم أم واقع؟

ويَرّبت بعضهم على بعض ليتأكدوا إن كان هذا يقظة أم مناما!

وساد جو من الهَرَج والمزاح وتمشى بعضهم على العشب الأخضر الطري كبساط نفيس يستنشق من ذلك الأرِيْج، وَيَتَلَذَّذُ بما يأكل من الطيبات التي يقدمها له خادمه من الصبية، ودار حديث قصير بين عبّود وتابعه الصبي قائلا:

ـ له أين نحن؟

فقال الصبي بابتسامة ساحرة ملأت وجهه الصبوح:

ـ في الجنة.

ـ ومن أنت؟

ـ أنا خادمك ورهن إشارتك.

صمت عبّود وعقدت الدهشة لسانه، فهذا ما حدثهم عنه الشيخ لابد أن هذا من كرامات الشيخ الذي لا يغيب عنه شيء، ثم سَاوَرَته الشكوك.

أليس من دخل الجنة لابد أن يموت ثم يُبعث؟ هذا ما كانت تلتقطه أذناه أحيانا من خطباء المساجد عندما كان يتسكع في الأزقة مارًّا بالمسجد العتيق أثناء خطبة الجمعة لدى ذهابه إلى مغسلة السيارات التي كان يعمل ويبيت بها من ضمن ما عمل من أعمال.

وهو لا يذكر أنه مات! لكن هل هذا هو البعث؟ فإن كان كذلك فأهلا وسهلا وطوبى للشيخ الذي بشّرهم بذلك، و"طوبة" لبسيوني الممِل صاحب الوجه الْقَميّء والأنفاس العَطِنَة، وامتلأت نفسه حبا لذلك الشيخ وطرد من ذهنه ما اعتقد أنها وساوس، وأقنع نفسه أنها الجنة فعلا، والنعمة تطرد الفكرة.

دارت أحاديث مشابهة لذلك بين بقية الفتيان والصبية.

بعد سُوَيْعَات قُدِّمَ لهم ما لَذَّ وطاب من المأكولات والعصائر، واستلقى الفتية على المرج الطري الناعم، وقد عقد النّعاس أطراف الجفون، فاستسلموا للنوم اللذيذ.

وفي البقعة المظلمة من الجدار الخلفي، بَرَقَت عينان نافذتان كانتا تنظران من فُرْجَةٍ مظلمة خلفَ الطوب الزجاجي تتابعان بشغفٍ تصرفات الفتيان.

وبمجرد أن غطَّ الفتية في النوم بدأ نشاط الخدم في تلك البقعة، فأعادوا الفتيان إلى ما كانوا عليه، وخلعوا عنهم ملابسهم الْمُزَرْكَشَة، وألبسوهم ثيابهم التي كانوا

يلبسون، وأعادوا كل الأمور إلى ما كانت عليه، حتى بقايا الطعام الأول التي لوَّثت أصابعهم وَوَجَنَاتِهم أُعِيدت إلى حالها الأولى وآثار الحَساء على ملابسهم. ونقلوهم على المحفَّات إلى البَهو، وكانت الحافلات في انتظارهم.

بدأت رحلة العودة إلى القاعة التي تناولوا فيها عشاءهم البارحة، وكأن شيئا لم يحدث.

****

الدكتور

كان الدكتور غَيث من أطباء التخدير المعروفين باحترافهم وفَهمِهم العميق لمهنتهم، كما كان معروفا أيضا بِنَزَقِه وطيشه، وهو لا يكف عن تعاطي الدُّخَان وما حوله وما تحته وما فوقه.

ذات عملية كان الْمُقرر أن يقوم فيها بإعداد المريض وتخديره والبقاء مع الأطباء في غرفة العمليات تَحَسّبا لأي طارئ.

كان الدكتور في الليلة السابقة قد أفْرَطَ في التعاطي وطالت به السهرة إلى أن استلقى على الفراش يغُطُّ في نومٍ عميق كأنه سقط في هُوَةِ بئرٍ لا قرار لها، حتى دقَّ جرس الهاتف على الطاولة التي بجوار الفراش، وكان المتحدث هو التومرجي الخاص به يستعجله للنزول، لأن موعد العملية قد أزَفَ وقد حضر جميع الأطباء إلا هو.

لم يجد وقتا ليستحم، فألقى على وجهه بعضا من الماء، ثم ارتدى ملابسه على عجل، تاركا نصف القميص خارج حزام البنطلون، ونسي أن يصففَ شعره فتركه مبْتَلا تتراقص بعض خصلاته على جبينه وأذنيه، ويقطر بعض الماء على جبهته وعينيه الحمراوين ونزل السلم مُهَرْوِلا.

دخل الدكتور غيث إلى غرفة العمليات ولمّا يُلَمْلِم شَتاتَ نفسه بعدُ، وبعد إجراءات التعقيم المعتادة، وبعد أن نَبّهَه الممرض بحذر ولباقة إلى إعادة بعض تلك الإجراءات أكثر من مرة.

تقدم الدكتور من طاولة العمليات ببطء، كان المريض مُسَجّى عليها بكامل وعيه يمازح الممرضين، فاقترب منه الدكتور غيث ومن ثم غرس إبرة التخدير في ظهره، عندها فقد التركيز لبرهة كانت كافية لأن تنحرف الإبرة وتخترق النخاع الشوكي للمريض بقسوة.

انتبه أحد الأطباء لما يحدث، وحاول إصلاح الأمور، لكن المقدّر كان قد نفذَ، وكان من جراء ذلك أن أصيب المريض بشلل نصفي.

في آخر رواق العمليات كانت اثنتان من الممرضات تتهامسان بما حدث، قالت إحداهما:

ـ أرأيت صاحب الدماغ المهزوز الدكتور غيث ماذا فعل؟

ـ ماذا فعل؟

ـ نزع حسين (الممرض) إبرة "السباينل" من يد الدكتور غيث الذي تناولها خطأً، ووضع في يده الإبرة الخاصة بـ"الإبيدورال" دون أن ينتبه لذلك، إلا بعد أن نبهه حسين مرات عدة، ومع ذلك "ضيّع الراجل" في ثانية، قالتها وهي تبدي بعضا من الامتعاض الممزوج بالتشفي مصحوبا بالمؤثرات السمعية والبصرية لأسباب خاصة بها.

ولما كان المريض من عليَة القوم وذو حيثية في المجتمع، فلم تُفلح المجاملة المهنية من زملاء الدكتور في التغطية على الموضوع أو التماس الأعذار له.

اتسع الخَرق على الراقِع، ودخل الدكتور غيث في تحقيق مطوَّل وثَبت تعاطيه للمخدر، وتم إيقافه عن العمل، وفُصِلَ من نقابة الأطباء، وغَدَت القضية الموضوع المفضل لإعلام الفضائح والصحف الصفراء والبرامج الحوارية الفارغة في الفضائيات، وأضافوا إليها من مُخَيَلتهم ما زادها تشويقا وإثارة، وفتحوا باب التعاطي على مِصراعَيْه، بادعاء أنهم يواجهون واقعًا لابد من كشفه.

تمت استضافة العديد من الشخصيات لتُدْلي بدلوها في موضوع الساعة، كما تمت استضافة بعض المدمنين ليشرحوا بالتفصيل المطوّل طرق الحصول على المخدرات وكيفية استعمالها حسب الأنواع المختلفة، وكيفية التعرف على الأصناف الجيدة والمغشوشة، كما لو كانت دورة تدريبية مفصلة للمشاهدين لاستعمال المخدر لمن لا يعرف، ودُمِّرت سمعة الدكتور تماما.

كان الشيخ يعلم تمام العلم كل تفاصيل الأزمة التي مرّ بها الدكتور غيث، ودبّر لقاءَ معه أشبه بالمصادفة، وعرض عليه التعاون معه مقابل تزويده بكل ما يحتاج، بل ووعده بالسعي لإعادته إلى عمله، وإعادة قيده في النقابة، لكن الحفرة التي حَفَرَها له الشيخ كانت بعيدة الغَوْرِ، حالِكة السواد.

كلما حاول الدكتور الخروج من هذه الحفرة كان يُهيلُ على نفسه من التراب أكثر مما يستطيع إزاحته، ولما أدرك أن محاولاته باتت دون جدوى، كفّ عنها، وأصبح ينفذ تعليمات الشيخ من دون اعتراض، طالما يُغْدِق عليه الشيخ من كرمه ويشمله بعطفه ويُخرجه من المآزق التي يضع نفسه فيها.
صحيح أن الشيخ لم يكن يُبادر بإخراجه من المآزق إلا بعد أن تضيق حلقاتها على الدكتور، ويظن أنه هالِكٌ لا محالة، ساعتها يقدم له الشيخ طوق النجاة، مستفيدا من علاقاته المتعددة بذوي النفوذ.
كان الدكتور ينفذ تعليمات الشيخ بكل دقة ومن دون خوف من العواقب، ويستمتع إلى أقصى مدى بكل ما يُغْدِقه عليه الشيخ من عَطَايا، وعاش حياته طولا وعرضا.
كان الدكتور يعيش وحيدا في شقة واسعة بقانون الإيجار القديم في أحد الأحياء الراقية، ورثها عن والده الذي كان طبيبا هو الآخر ضمن ما ورث من أراض وعقارات، لكن الإسراف جعله يفقد كل ما ورثه عن والده، ولم يتبق له إلا هذه الشقة المستأجرة.
وكان لوفاة والده المفاجئة قُبَيل ذلك أثر نفسي سيئ عليه، فقد كان ينقذه من معظم الهفوات التي يقع فيها، كما كان يوفر له جميع احتياجاته، فقد كان وحيده المدلل، وقد قضى أبوه في حادث سيارة كان يقودها وإلى جانبه صديق له، إذ دهمتهم من خلفهم شاحنة كبيرة.
ثبت فيما بعد أن سائق الشاحنة كان يتعاطى الحشيش في نرجيلة يستعملها أثناء القيادة.
استُدعي الدكتور غيث على عجل إلى طوارئ المستشفى العام في إحدى القرى التي تقع على الطريق الزراعي، ولما دخل إلى غرفة الطوارئ كانت بقايا الضمادات تلوث الأرضيات، وكانت الأسِرّة ملطخة ببقايا دماء المرضى ذات اللون البني من تقادم العهد دون تنظيف أو تغيير، حتى الجدران كانت تغطيها شباك العناكب

التي تتدلى من أركانها مثقلة بغنائمها من الحشرات من كل حجم ولون، مما يدل على أن الإدارة كانت لها اهتمامات أخرى غير النظافة.

كل ذلك لم يكن جديدا على الدكتور غيث، ولم يُفاجأ أيضا بأن المستشفى ليس فيه أقل القليل من التجهيزات التي يمكن أن تقدم، حتى تجهيزات الإسعافات الأولية كانت تعاني العجز.

تلفت الدكتور غيث باحثا عن أبيه فوجده مُمَدَّدًا على أحد الأسِرّة يَتَأَوَهُ وَيَئِنُّ من شدة الألم، وكلما تحرك أصدر السرير صريرا مزعجا، كأنما يشارك مريضه الأنين، والأطباء مُنشغلون عنه بفحص ساق مريض آخر، فاستشاط غضبا، حيث إن إصابة والده كانت في الرأس، ويجب إعطاؤها الأولوية على ما عداها، فانهال على الأطباء لوما وتقريعا.

كانت الكلمات تخرج من بين شدقيه مختلطة برذاذ لعابه من شدة الغضب.

حاول الأطباء احتواء غضبه وتفهم دواعيه، لكن لما وجدوا أنه قد تجاوز الحد أظهروا بعض التجاهل، ولم تشفع له زمالته لديهم بعد تطاوله عليهم، فانتحى به أحد موظفي الخدمات المساندة جانبا، بعد الإيعاز له من أحد الأطباء ليتخلصوا من مشكلته قائلا له:

ـ المستشفى هنا ليست به التجهيزات الكافية، ولا غرفة العمليات تسمح بإجراء جراحة دقيقة كهذه لوالدك، وأنا أقترح عليك أن تنقله فورا إلى أحد المستشفيات الكبرى أو الخاصة، ثم أضاف: "يا دكتور، قلة الإمكانات بتخلي زمايلك هنا يتعاملوا مع الحالة زي الجمرة اللي تيجي في إيده يرميها على حجر اللي جنبه، واللي جنبه يحوّلها على المستشفى العام ويخلص، والكلام ده موش جديد عليك، ما انت عارفه، الحق أبوك وخده على مستشفى خاص".

وقد كان، فقد تم نقله إلى إحدى سيارات الإسعاف، لكنه قضى في الطريق قبل دخوله المستشفى الخاص.

بعد انصرافه في أحد زوايا المستشفى، كان أحد الأطباء النوّاب يُسِرّ إلى أحد زملائه ما دار، وأتم حديثه قائلا:

ـ "الحمد لله ارتحنا من غلاسته، إحنا ناقصينه، موش كفاية اللي إحنا فيه"؟

ومن ثم جاءت معرفة الدكتور غيث بالشيخ في وقتها، فقد ضمنت له أن يحيا الحياة الباذخة التي تعودها، وحرص الشيخ على ألا يستطيع الدكتور ادِّخار ما يَقِيْهِ غَوَائِل الزمن، وكان هذا ما يطمح إليه الشيخ حتى يظل الدكتور تابعا له.

في مرحلة تالية أصبح الطرفان واعيين تماما لما يقومان به بخصوص طبيعة العلاقة بينهما، لذلك وصلا إلى مستوى جيد من التفاهم، على أن تدوم الحال على ما هي عليه، وكفَّ الدكتور عن محاولات الهرب، كما أبدى الشيخ اهتماما أكبر بتوفير حاجاته وزيادة مكافآته.

كان الدكتور يضع في أكواب العصير للفتيان كميات مُقَدَّرة من المخدر، حسب خبرته العميقة في المهنة، إذْ كان يستخدم أنواعا من المخدر مُنْعَدمة الرائحة والطعم، ولا تظهر أبدا في التحليلات إذا حدث ما ليس في الحسبان لأَحد الفتية، إضافة إلى حُسن تقديره للكميات حسب أوزان الفتية، وحسب ما قد يكون في أجسامهم من مواد مُنَبِهة تعطل عمل المخدر جزئيا.

بلغت دقة الدكتور حدا مثيرا للدهشة، إذ كان بإمكانه تحديد الفترة التي يُفِيق فيها الفتيان معاً بالدقيقة، كما نجح في تخليق أنواع جديدة من المخدر تجعل الفتيان يشعرون بالنشوة لدى إفاقتهم، وليس بالخمول والدوار الذي يصاحب عادة الخارجين من التخدير.

هذا الإبداع الشيطاني جعله محل تقدير الشيخ الذي لم يكن يبخل عليه بالمكافآت المجزية عقب كل عملية.

في العمليات الكبرى التي كان يُكَلَّف بها، كان الدكتور يستخدم مواد غير قابلة للظهور في التحليلات الشرعية في أجساد المستهدفين، ولا تبدو آثارها عليهم، ويتم تشخيص الموت على أنه هبوط حاد في الدورة الدموية، وهذا مما أتاحت له خبرته العملية وأفكاره الشيطانية في أنواع العقاقير والجواهر المخدرة.

****

بسيوني

كان الشيخ يضع مَهَام وصلاحيات الوظيفة بدقة عالية وبكل التفاصيل، ثم يضع الشخص المقصود بها تحت المراقبة الشديدة قبل الاختيار.

وكان الشيخ يؤمن بالتخصص الدقيق في كل عمل، وكان يُوْكِل الأعمال لمن يرى بفراسته أنهم أكْفَاء لهذا العمل، ولم يكن يكتفي بذلك، بل يضعهم تحت تدريب مكثف وقاس لتحقيق المهام الْمُوكَلة إليهم، حسب نظام صارم وضعه بنفسه ويراجعه بصفة دورية، لعلاج ما قد يحدث فيه من ثغرات.

كان بسيوني موظفا في أحد الأحياء، ولما كان رئيس الحي لا يتقاضى الرشاوى بشكل مباشر، كان بسيوني هو الوسيط غير النزيه يتولى ترتيب المخالفات وتهديد المخالفين وتَهْيِئَتِهم نفسيا للقبول بدفع مبالغ لرئيس الحي، لكي يتغاضى عن مخالفاتهم، خصوصا تَعْلِيَة الأدوار ومنحها صَكِ الموافقة من رئيس الحي، وكان يحصل من عمله هذا على الفتات، في حين يفوز رئيس الحي ومهندس التنظيم بنصيب الأسد.

كان بسيوني قد اكتسب خبرة كبيرة في كيفية إيقاع الفرائس وترتيب الأمور.

ذات رشوة، وقع صاحبنا في الفخ وضُبِطَ بالجرم المشهود.

تَكَيَّفَت القضية قانونا، بحيث لم تُتْرَك فيها ثغرة، لأن الضحية كانت رجلَ قانون مُخَضْرَم وله شبكة علاقات واسعة، وأنِفَ أن يقع فريسةً لمثل هؤلاء القوم.

تمت إدانة بسيوني، وأفْلت رئيس الحي ومهندس التنظيم منها، وسقط في بَراثِنِها بسيوني الذي حُكم عليه بغرامة، والرّفت من وظيفته، وأعفي من السجن بعد الوَساطات والاسترحامات، وإن ظل بعد تركه للوظيفة يمارس بعض الوساطات التي لا تخلو من الهدايا - كما كان يسميها - لمهندس الحي، لكنها لم تَك كافية لتقيم أوْدَهُ وتقضي حاجاته المتزايدة.

كانت هذه المواصفات هي التي يبحث عنها الشيخ، ليكون بسيوني مناطَ الوظيفة التي يقوم بها لمصلحته حسْبما اكتسب من خبرات في التعامل مع الناس، وأصبح

بسيوني يتولى البحث عن الفتية حسب المواصفات التي يحددها له الشيخ، ويقوم باستِقْطابهم وإعدادهم.

كان بسيوني يختار الفتية متوسطي الذكاء من أولاد الشوارع، وأبناء الريف النازحين إلى المدينة دون عمل من الأميين أو أشباه الأميين من الذين لم يدخلوا مدرسة قط، ويجيدون تنفيذ الأوامر دون نقاش، ويَسْهُلَ قِيَادَهم، وليس لديهم ما يخسرون، ويتميزون بِبِنْيَة رياضية جيدة حتى وإن أَصابهم الهُزال لسوء التغذية، فقد كان إخضاعهم لبرنامج تدريبي وغذائي معين وضعه الدكتور كفيلا بجعلهم أبطالا.

****

المنشاوي

وسيم الطلعة يأخذ العين والقلب بهاؤه وبساطته، لكن سحابة من حزن دفين تغشى سِحْنَته بين الحين والآخر، وعندما يكون جادًّا تكسوه هيبة طبيعية، وهو ذو شخصية قوية تَمَرّسَ إداريا لدى الشيخ.

كان المنشاوي قد عَمِلَ فيما سبق طاهيا في أحد فنادق المدن الساحلية، في نشأته الأولى وكان أبوه يقوم بثلاثة أعمال في اليوم الواحد ليَكْفُلَ له ولإخوته ما يقيم أوْدَهُم.

ففي باكورة الصباح سائق حافلة مدرسية، وبعدها يساعد صاحب مطعم الفول في أول حارتهم على توصيل قِدَر الفول إلى المستوقد العتيق، وليلا يقوم بتلوين اللوحات الفرعونية على ورق البردي، التي يكلفه بها صاحب المكتبة العتقى، والذي يبيعها بدوره للمحال السياحية.

كان المنشاوي لَبِقَ الحديث، وما فاته من حسن السلوك بالتربية حصَّلهُ بالعقل، فقد كان حاضر الذهن سريع البديهة.

في الثانوية حصل المنشاوي على مجموع يؤهله لدخول إحدى كليات القمة، لكن شغفه بالقانون والأدب أدخله كلية الحقوق التي يعشقها، وقد كانت تقديراته العالية محل حسد زملائه الذين دخلوا الكلية بدرجات أقل.

كانت علاقته أثناء الدراسة بهيئة التدريس ممتازة، فقد كان يقوم بكثير من الأعمال لهم دون مقابل، منها تلخيص المذكرات وإعداد "الكورسات"، وبالرغم من ذلك استبعد من كشف المعيدين، وَوِضِعَ من هم أقل منه علما وتقديرا في كشف المعيدين، خصوصا الفتى مندور الذي كان محل سخرية الجميع لِتَدَنِّي درجاته وعدم استيعابه للمقررات، كما كان محل تندر زملائه، لسطحيته وتدني مستواه الثقافي، وبالرغم من ذلك كان رقم ثلاثة في كشف الْمُعَيَنِين كمعيد، لأنه نجل أحد المستشارين الكبار في إحدى الهيئات القضائية المرموقة.

لم تك هذه الصدمة من أولى الصدمات التي تعرض لها المنشاوي في حياته، لكنها كانت الأقسى، حيث وطَّنَ نفسه من أول عام دراسي على أن يتقدم أكاديميا ويكون ضمن هيئة التدريس، ووجد أن أحلامه قد انهارت.

وجد المنشاوي بين جنبيه ألما حادًّا كأنها جمرة توشك أن تَنْبَثِق من صدره وملأت وجدانه حقدا على الناس والمجتمع كله، وودَّ لو أن بين يديه سلاحا ما يشفي غليله من المجتمع بكامله.

التقى المنشاوي صديق طفولته ممدوح على المقهى الوحيد في قريته، ورحب به ممدوح الذي كانوا يطلقون عليه لقب ممدوح المرح قائلا:

ـ أهلا بسعادة المستشار.

ـ أهلا بيك... بس بلاش سعادة المستشار دي

ـ يا سيدي بكره تفتح لك مكتب محاماة وتستفيد من بلاوي الناس وزي ما بيقول عمك المتنبي:

"بذا قضت الأيام ما بين أهلها *** مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ"،

وتبقى محامي قد الدنيا في بلدك.

ـ بلدي!؟ قالها بِتَأَفُّفٍ، وشعور شديد بالمرارة يجتاحه قد ظهر في أنفاسه وتعبيرات وجهه.

ـ تفاءل... الدنيا لسه بخير.

ـ إذا الأدْواء في الأرواح تسري *** فلا طبٌّ يفيد ولا دواء

ـ لمن هذا البيت؟ فلأول مرة أسمعه.

ـ لي.

ـ الأرواح لا تمرض يا صديقي، إنما الأنفس هي التي تمرض.

كان ممدوح يعلم مقدار الأسى والحزن اللذين يسيطران على قلب المنشاوي بقبضة من حديد، ويكاد يعتَصِرَهُ ويحاول أن يُلَطِّفَ قليلا مما به، لكن قدرة المنشاوي على احتمال الألم كانت قد بلغت ذروتها، ويوشك أن يجنَّ أو يصاب بمرض عضوي.

طلب ممدوح الشاي لكليهما.

أمسك ممدوح بكوب الشاي وأخذ يرتَشَفَ منه في تَلَذُّذٍ، وهو يحكي للمنشاوي المفارقات التي تحدث من السائحين في القرية السياحية التي يعمل بها قائلا:

ـ يا أخي السياح يتمتعون في بلادنا بما لا نستطيع حتى مجرد التفكير فيه.

ـ لا تقل بلادنا! أنا لا أشعر الآن مطلقا أنها بلادي، لقد تعرضت للنفي داخلها، وعلمت الآن مقدار الأكاذيب التي كانوا يحشون بها أدمغتنا طوال سنوات الدراسة عن الوطنية والفداء والأرض والتراب، وإن هي إلا خزعبلات وتُرّهات.

وتابع:

ـ هي بلاد السادة فقط، وهم يتحدثون في كتب الوطنية عن بلادهم هم لا عن بلادنا نحن، وإذا جدَّ الجد داسوا علينا بأقدامهم في سبيل الدفاع عنها وعن أمجادها التي يكتبونها بدمائنا، ويدفعوننا دفعا للتضحية في سبيلهم وليس في سبيل بلادنا.

ـ لا تدع ما حدث يغير من ثوابتك ويقينك تجاه بلادك، ووجود أحد الفاسدين في موقع لا يعني أن الفساد قد عمَ.

بدت على وجه المنشاوي نصف ابتسامة ساخرة وهو يقول:

ـ أبشرك... لقد تعَمَّمَ وتَطَربَش، وتَحَزّم ورَقص!

ـ أنت لن تستطيع تغيير الكون، فقط انتبه لنفسك، وَاسْعَ لأن تحصل لنفسك على وظيفة لتبدأ حياتك.

ـ أنت محق، أنا لن أستطيع تغيير الكون بمفردي، لكن لا تنس أن هناك آلافا بل قد يكونوا ملايين ممن يقتلهم الإحباط وانسدَّت أمامهم السّبل، ولابد لهم من أن ينفجروا ذات يوم.

ـ لابد أن المسؤولين يعلمون ذلك، وسوف يعملون على وضع الحلول.

ـ المسؤولون يكذبون، ونحن نعلم أنهم يكذبون، وهم يعلمون أننا نعلم أنهم يكذبون، ومع ذلك يستمرون في الكذب، أتدري لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأنهم أمنوا العقوبة، وظنوا أن البطش والقمع سوف يمنعانا من محاسبتهم، لكنهم لا يقرأون التاريخ ويعتبرونه قصصا أسطورية، وإذا قرأوه ظنوا أنهم قادرون على تجاوز أخطاء السابقين، ولا يعلمون أنهم يرتكبون أخطاءَ جديدة لا عهد للسابقين بها.
ـ يا منشاوي الفوضى وعدم الاستقرار لهما آثار مدمرة.
ـ لكن الحرية تعيد الإعمار على أساس من الحق والعدل والمساواة.
ـ هذه كلمات حق يراد بها باطل ممن يسعَوْنَ إلى السلطة.
ـ وهل الآخرون يسعَوْنَ إلى "الصفا والمروة" مثلا!؟
ـ حضارة الأمم تراكمية يا منشاوي وليس من الإنصاف هدم ما أنجزه السابقون بهذه الحجة المتهافتة.
وضع ممدوح كوب الشاي الفارغ على الطاولة، وعاد بمقعده إلى الخلف، مبديا عطفه وشفقته على المنشاوي، قائلا بصوت خفيض، حيث لمح أحد الغرباء يجلس على مقربة منهما:
ـ أنا أخشى عليك من أفكارك هذه.
ـ لابد من التضحية، وليس من اللازم أن أرى نتيجة تضحيتي، فقد تتمتع بها الأجيال القادمة.
ـ وقد تذهب تضحيتك هباء أنت وأمثالك، ولا يبقى إلا الراضون بأحوالهم أمثالي.
ـ تعلمت من التاريخ أن التضحيات لا تذهب هباء أبدا، وقد تؤتي ثمارها بعد جيل أو أكثر، لكنها حتما سوف تنشق تلك الأرض عمن يشعل الحماس ويوقد الشعلة مرة أخرى.
ـ من ناحيتي، أنا راض بما نحن فيه، وأعتقد أن الاستقرار أهم من تلك الحرية التي تجري وراءها كالسراب في الصحراء، وأظن أن الغالبية من الناس لهم الرأي نفسه.
ـ لا بأس، فإن القادرين على التغيير قلة في كل عصر.

بعد مُضِي مدة خَبَت فيها حِدَّةُ الأسَى وخَمَدَت جُزْئيا مَرَاجِلُ الغضب في نفس المنشاوي، وسيطرت حكمته على مشاعره السلبية، انفتحت أمامه فرصة أن يقدم أوراقه للتعيين في سلك القضاء، حيث إن تقديراته تَمِيْزُه على أقرانه، وأن فرصته في الفوز بهذه الوظيفة المرموقة كوكيل للنائب العام سوف تكون تعويضا مجزيا، بل وأفضل ماديا من قبوله في الجامعة كمعيد، كما كان يرغب.

فتح المنشاوي موقع الجريدة الرسمية ودقات قلبه تتسارع وكأنها تسابق بعضها، والتهمت عيناه جميع الأسماء المنشورة للذين قُبِلوا في النيابة العامة بنظرة عَجْلَى لم يعثر فيها على اسمه، فأعاد قراءتها بتَمَهُّلٍ شديد وهو ينظر بِحِدَّةٍ إلى ما بين السطور، لعل سطرا منها مفقود، ويقرأ الأرقام أمام كل اسم لعل رقما سقط سهوا.

أعاد المنشاوي قراءة الصفحات مرات عدة، وفي كل مرة يشعر بوَخْزةِ ألم في خاصِرته، كأنها سكين حادٌّ يجول في أحشائه، واستقر يقينه على ما بقي في نفسه من شعاع أمل أن يتوجه إلى دار الطباعة في إمبابة ليحصل على نسخة ورقية، لعله يجد اسمه فيها، خصوصا أن بعض العارفين ببواطن الأمور أكدوا له أنه لابد أن يكون من المقبولين.

صعد إلى الحافلة التي سوف تُقِلَّه إلى مقر المطابع الأميرية، وساقاه تكادان لا تقويان على حمله، سابحا في زورق من صنع خياله، ماذا لو وجد اسمه قد سقط سهوا، وأنه مقبول؟، ثم تبدأ الوساوس من جديد، كيف وقد تفحّص كل الصفحات على الشبكة، وأعاد النظر في الأرقام واحدا واحدا، ولم يكن اسمه من بينها؟

وصلت حافلته وقذفت ما فيها من ركاب على الطريق، فأوشك صاحبنا على السقوط، لأن أحدهم وطئ بقدمه على رباط حذائه قبل أن يهبط، فأوشك أن ينكفئ على وجهه فوق إفريز الطريق المهشم، واعتبرها المنشاوي نذير شؤم.

تدارَك الموقف ومسح غلالة العرق البارد التي تصببت على جبينه، ودَلَفَ إلى داخل المطابع.

وقف المنشاوي أمام باب المطابع وهو يتأبَّطُ النسخة الورقية الخالية من اسمه بحسرة شديدة وألم مُمِضٍ يسرح في أحشائه، فألقى بها في عرض الشارع وراح يرقب صفحاتها تتطاير بفعل الرياح كتطاير أحلامه.

عادت للمنشاوي المشاعر السلبية نفسها، ترى، هل يقذف بنفسه في صفحة النيل الرقراقة أمامه، لينهي هذه المهزلة التي يسمونها الأوضاع الاجتماعية التي تمنع ابن سائق الحافلة من الحصول على وظيفة مرموقة؟، ثم يؤوب إليه رشده ويستغفر ويُحَوْقِل، ويتلو ما يحفظ من آيات وأدعية، كان يجر قدميه على ضفة النيل جرّا، سائرا على غير هُدَىً تتلاعب برأسه الأفكار والوساوس.

دق جرس هاتفه المحمول، فأيقظه من حالة التردد بين الثبات والقفز، وجاءه الصوت من الطرف الآخر لزميل صباه ممدوح.

قال ممدوح، وهو يعلم بحالة المنشاوي النفسية:

ـ لدي فرصة عظيمة لك.

ـ ما هي؟ أنجز.

انطلق ممدوح كالمدفع سريع الطلقات يقول:

ـ فرصة عمل في فندق خمسة نجوم، والمرتب ألفا جنيه مع الإقامة والأكل والشرب، وإجازة يومين كل شهر.

ـ كيف؟ وأنا أعلم أن طريق العمل في فندقكم مفروش بالرشاوَى.

ـ لا تقلق أنا صديق شخصي لمدير الموارد البشرية في الشركة، وهو من أسَرّ إليّ بذلك.

ـ وما هي الوظيفة؟

ـ مساعد طاه.

ـ أفضل شيء لمن درس القانون هو إتقان الطهي وخلط التوابل، قالها بمرارة، بعد أن أبدى موافقته.

كان ملف كامل أمام الشيخ مسعود يتضمن كل تفاصيل حياة المنشاوي، بعد أن التقاه مصادفة في أحد مطاعم المنتجعات الساحلية التي يداوم الشيخ على ارتيادها للعمل أو للمتعة.

توسم فيه الشيخ عنصرا مفيدا بثاقب بصره وخبرته وعلم أن شعوره بالمرارة وفقدان الانتماء سيغلق براعم الإحساس في نفسه، وأنه سوف يرحِّب بالعمل معه، فأرسل إليه بسيوني يعرض عليه العمل لدى الشيخ.

قبل المنشاوي عن طيب خاطر العمل في أحد مقرات الشيخ، وأبدى مهارة كبيرة في تنفيذ ما يُوكَل إليه من أعمال. وأطلق لخياله العَنَان في ابتكار حلول شيطانية لما يُكَلف به من أعمال، مما جعل الشيخ يزيد من مكافآته وحوافزه ويفاجئه بين الحين والآخر بهدايا لم يكن يتوقعها.

كان الشيخ لا يخشى أن يحيط نفسه بالأذكياء، بل ويهتم لذلك سعيا وراء الاحتراف في عمله، لكنه كان يحصرهم بمهارة شديدة في مهام محددة لا يتجاوزونها، حتى لا يصبح ذكاؤهم ضررا عليه. وكان يقول: لا تخش من سرعة القطار مادام مساره محكما.

كان المنشاوي لفرط ذكائه يعلم كثيرا عن نشاط الشيخ رؤيةً واستنتاجا، لكنه لم يعانِ قط من تأنيب الضمير لعمله معه، ولا تأخذه شفقة ولا رحمة بمن يقع تحت طائلة الشيخ من ضحايا.

كان يشعر بنشوة غامرة في كل مرة يعلم فيها بتنفيذ إحدى العمليات، خصوصا فيمن كان يسميهم السمك الفاسد، وكان الشيخ يستفيد من سعة حيلة وذكاء المنشاوي في وضع آليات التنفيذ، وأفكاره الجهنمية في كيفية التحكم والسيطرة على الفتيان.

****

الوهم

عندما أفاق الفتيان في مخادعهم كانوا ما يزالون تحت تأثير الحُلم والفِردَوس، لكن لم يجرؤ أي منهم على الخوض في هذا الموضوع، ولا أن يحدِّث أحدا من زملائه بما رأى، خوفا من الشيخ وتحذيراته.

لكن الرؤيا ظلت مسيطرة على وجدانهم، وتمنعهم من التفكير فيما عداها.

اقترب عبود من أحد الفتية ونظر في وجهه مطولا تدفعه الرغبة العارمة في مصارحته وسؤاله عن الرؤيا، ويمنعه الخوف من تحذير الشيخ إياهم بعدم الحديث عنها.

وفي النهاية حسم عبود أمره على أن يتكلم، مبررا لنفسه بأن الشيخ خاطبهم جميعا بخصوص الرؤيا، ولم يخاطبه على حدة، لذلك تشجع عبود وسأل الفتى قائلا:

ـ فرج، هل رأيت شيئا في المنام بالأمس، كما نبأنا الشيخ؟

بدا الوجوم والتردد على وجه فرج، خشية أن يُفشي عبود سره ولم ينطق بكلمة، فسايَرَه عبود قائلا:

ـ أنا أيضا أخشى أن أفشي السر، حتى لا تنقطع الكرامة، لكن لا تنسَ أنَّ الشيخ أخبرنا جميعا بالرؤيا، ولو كانت سرا لذكرها لواحد فقط.

حينها قال فرج:

ـ مازال طعم الفاكهة اللذيذ في فمي!

ما إن نطق الفتى بهذه الكلمة حتى تنفس عبود الصعداء، وأخذا يسردان ما مرّا به بكل تفاصيله، وكانا يشعران بسعادة غامرة كلما أعادا سردَ التفاصيل مرارا وتكرارا، كما انتشر الخبر بين الفتيان جميعا، وإن كانوا قد اتفقوا معا على أن يكتموا هذا الأمر على كل موظفي المقر، وخصوصا بسيوني.

ودارت الأحاديث الجانبية بين الفتيان، وقام عبود يقلد حركات بسيوني بطريقة ساخرة، وخصوصا مشيته التي جعلت الفتيان يغرقون في نوبة ضحك طويلة وهو يصف شدة نحافة بسيوني، قال عبود:

ـ بسيوني "اللي زوره زي الشاليموه"، ومع ذلك يأكل أكل ثلاثة منّا، ولا يبدو عليه أثر الطعام.

ـ"اللي أكله على غيره ضروسه من حديد".

ـ "لا وأنت الصادق، ضروسه من جهنم"!

كان عبود يذكر لهم سخرية الدكتور من شدة نحافة بسيوني، عندما قال له ذات مرة: "يا بسيوني انت الدم بيطلع في نافوخك بالخاصيّة الشعرية".

كان عبود يسرد ما قاله الدكتور، مقلدا صوته وحركاته والفتيان يضحكون من طريقة سرده، دون أن يفهموا ما يقصد بالخاصيّة الشعرية.

كان بسيوني يخشى الدكتور ويعامله بمنتهى الاحترام الواجب، بعد أن حصلت مشادة بينهما، وأقسم الدكتور ليُخَدِّرَنَّ بسيوني تخديرا لا يُفيق منه إلا يوم القيامة.

تولى الشيخ إصلاح ذات البين، مع ذلك كان بسيوني يحسب لغضب الدكتور ألف حساب، ولم يكن يؤخر له طلبا أبدا، خصوصا حصته الشهرية من الأنواع الأصلية من الحشيش.

ذات يوم تأخر بسيوني في إرسال حصة الدكتور بأعذار واهية، فقط ليثبت للدكتور أهمية مكانته، فاحتدَّ عليه الدكتور قائلا: يا بسيوني أنت شخص مبالغ فيك.

لم يفهم بسيوني مقصد الدكتور، لكنه ابتلع ما ظنها إهانة، لعلمه أن الشيخ سيكون في صف الدكتور، كما هو على الدوام في كل نزاع بينهما، لكن بسيوني لم يكن يفتأ يدسُّ المعلومات إن صوابا أو خطأً عن الدكتور لدى الشيخ، كلما واتته الفرصة.

****

السنوسي بك

وصلت السنوسي رسالة على هاتفه المحمول نصّها "إن القدر الكبير من الطعام يصيبُ بالتُّخْمة" ومرسِلها مجهول من رقم خاص لا يظهر في المكالمات أو الرسائل.

كان وقع الرسالة على السنوسي بك عنيفا، أطرق ووضع رأسه بين كفيه، وقال لنفسه لربما أخطأ المرسل، ثم ليس لهذه الرسالة إلا معنىً واحدا، وهو عدم الدخول في المشروع الجديد، ومعناه تحطُّمَ أحلامه التي بناها، بالإضافة إلى انفضاض شركائه من حوله الذين أقنعهم بقدرته على نَيْلِ هذا المشروع.

أضحى تحرّقه الشديد لتنفيذ المشروع مسيطراً عليه تماما، لذلك تغاضَى عن الرسالة، واعتبرها أُرسلت إليه خطأ، واستمر في خطواته، غير أن هذه الرسالة كانت تُلحّ عليه أحيانا عندما يأوي إلى فراشه آخر الليل ويتحسس هاتفه المحمول، ويفحص صندوق الرسائل كل ليلة.

ذات مساء، وبعد أن ارتدى ملابس النوم واستلقى على فراشه الوثير أحس بشيء ما تحت الوسادة، وفي حذر شديد دسّ يده تحتها، وإذا به يجد مظروفا صغيرا أحمر اللون أثقل من أن يحوي ورقة فقط، فَفَضَّ المظروف على عجل، حينها سقط من المظروف شيء ما تدحرج إلى أن اختفى تحت السرير.

رفع السنوسي بك أطراف الفراش وهو يرتعد فَرَقًا، ففوجئ بأن الشيء المتدحرج عبارة عن رصاصة نحاسية لامعة وسليمة لم تنطلق، ووريقة صغيرة في المظروف فيها العبارة السابقة نفسها.

ارتجف السنوسي بك كورقة في مهب الريح، وجلس مكانه على أرضية الغرفة وأسند ظهره إلى الحائط كأنما يسأله الدعم، ولم يدر ماذا يفعل، واعْتَرَاه خوفٌ شديد، وانبثقت من ذهنه تساؤلات لا آخر لها.

تُرى من الذي أرسل هذه الرسالة المرعبة؟ وما الذي يقصده منها؟ وكيف وصلت إلى مَخْدَعه؟ وهداه تفكيره إلى أن مُرسل الرسالة لابد أن يكون الفتى الْمُتَحَذْلِق "فهيم" أَو أحد رجاله، ولابد أن غرضها هو إثْنَائه عن الدخول في المشروع الجديد.

لكن كيف وصلت إليه؟
لم يَطْرُق النوم أجفان السنوسي بك تلك الليلة، وظل ساهرا يحدِّق في نافذته الْمُطِلَّة على الحديقة، وينسج خياله أشكالا وهمية من الظلام الدامس كأنها شياطين الجن، إلى أن ترامى إلى سمعه صوت الأذان من المسجد القريب.
قام السنوسي من فوره ليتوضأ ويصلي الفجر، ثم عاد الى مكانه من الفراش قُبَالة النافذة، حتى لمح ضياء الفجر كأنه يسيل على أرضية الحديقة من خلال الأغصان المتشابكة، وبعد بُرهة استدعى أحد رجاله المعروف بتشعب علاقاته المجتمعية، وأسرّ إليه بما حدث.
زوى الرجل ما بين حاجبيه، وزمّ شفتيه، ثم قال بلهجة الخبير المحنّك: لا تشغل بالك، وسوف أرسل هذا المظروف إلى أحد أصدقائي في أجهزة الأمن، ليتفحص المظروف والرصاصة بطريقة ودِّية، لنعلم من المرسل وإذا كان هناك ثَمَّة بصماتِ عليها.
باءت كل محاولات اكتشاف الْمُرسل بالفشل، فليس ثمة بصمات عليها، ولم يكن لأحد من العاملين في فيلا السنوسي بك أي علاقة بالرسالة، بعد وضعهم تحت الرقابة الشديدة، وهذا ما زاد الموضوع غموضا وأَقَضَّ مَضْجِع السنوسي بك.
أخذ السنوسي بك يتحسّبُ لكل خطواته في سوق الأعمال، ولما كان رجلا عنيدا صعب الْمِرَاس، فإنه لم يتراجع عن مشروعه، وإنما أخذ جانب الحَيْطَة والحذر، حسب نصيحة صديقه الأمني.
كان السنوسي بك يتحرك بحرية ولا يتقيد بأي محاذير في تحركاته قبل حادثة المظروف، لكن صديقه الأمني فرض عليه استحداث قسم جديد، وعيّن فيه بعضا من معارفه من الضباط الخارجين مبكرا من الخدمة ويتمتعون بخبرات عميقة في الحراسة وتأمين الشخصيات، وأصبح لا يتحرك إلا بصحبتهم، بل وكذلك كل أفراد العائلة، بمن فيهم أحفاده الصغار في غُدُوِّهم وَرَواحهم إلى المدارس والزيارات الاجتماعية كافة.

كان هذا الموكب الصغير يصاحب السنوسي بك في كل مكان، مما حدّ من خصوصيته وأقلق راحته أكثر مما ضَمِنَ أمانه النفسي والبدني.
كان يقول لصديقه الأمني حانقا: أنا أدفع أموالا لأناس لكي يراقبونني ويُمْلُونَ عليّ تصرفاتي وحركاتي وسكناتي.
في اللحظة نفسها كان "فهيم" يصِلُ الليل بالنهار ويعمل بلا ملل في الإعداد لتنفيذ عقد المدينة الجديدة، كأنما قد أُرْسِيَ عليه التنفيذ فعلا.
******

الرسالة

بعد الزيارة الثانية للفردوس، أفاق الفتيان واحدا فواحدا يـتأملون ملابسهم والمكان الذي هم فيه والدهشة تَعْقِدُ ألسنتهم، ولم يُخَالِجَهم أدنى شك أنهم كانوا في الجنة فعلا، وزادهم هذا الشعور حبّا في الشيخ وخوفا منه وأصبحوا أطْوَع له من بنانه.

في البهو الواسع جمع المنشاوي الفتيان، وبدت على ملامحه الحادة أمارات الجد، وقال لهم:

ـ تعرفون أنَّ في طاعة الشيخ دخول الجنة ومن عصاه فالنار مثواه.

كان لهذه الكلمات وقع السحر على آذان الفتية، فأصاخوا السمع للمنشاوي في اهتمام بالغ.

وأتم المنشاوي كلامه قائلا:

ـ وقد أمرني الشيخ أن أختار من بينكم واحدا سوف يمنحه الشيخ شرف القيام بمهمة، ولما أردت أن أختار، وجدتكم جميعا أهلا لهذا الشرف، لذلك سوف أجري بينكم قُرعة على من ينال هذا الشرف العظيم.

فتبادر الفتيان إلى طلب هذا الشرف، وكلهم يودًّ أن يناله، غير أن المنشاوي أراد أن يشوِّقَهم أكثر فأكثر فقال:

ـ من ينال هذا الشرف ويقوم بالمهمة خير قيام، سوف تكون له مكافأة عظيمة من الشيخ.

بعد أن استوثق منهم المنشاوي، أجرى قرعة كان قد أَسَرّها في نفسه قبل أن يُجْرِيها عليهم.

وقعت القرعة على عبّود، بسبب الحيلة التي أجراها المنشاوي ولم يفطن لها الفتيان، خاطبهم بعدها بلهجة حماسية قائلا:

ـ إنَّ عبّود قد نال هذا الشرف دونكم لأمر في إرادة القدر وكرامة الشيخ الكبير.

مد يده إلى عبّود وصافحه بقوة، ثم اصطحبه داخلا إلى إحدى الغرف المنزوية وجلس قبالته على طاولة صغيرة يشرح له طبيعة المهمة، وهي أنه سوف يتسلل إلى فيلا أحدهم ويضع تحت وسادته مظروفا دون أن يراه أو يشعر به أحد.

أعطاه المنشاوي قارورة بها غاز مخدر يستعملها عند الضرورة، لتخدير من قد يعترض طريقه، وأوصاه بعدم إيذاء أحد أذى بدنيا بليغا، وأن يعود أدراجه بعد وضع الرسالة دون أن يمد يده إلى أي شيء آخر، وزاد أن ذكَّره بأن طاعة هذا الأمر كفيلة بإعادته إلى الجنة، ولو اعترضه أحد وقتله فسوف يبعث له الشيخ بالملائكة يأتون به ويُدخلونه الجنة.

كان تأثير الحُلم – الجنة - الأول على عبّود قويا، وكان مُوقنا أنه دخل الجنة فعلا، ومن ثم لم يجد الشَّكُّ إلى قلبه سبيلا، فغمره السرور لتكليفه بهذه المهمة.

أراد عبود معرفة تفاصيل أكثر، فقال له المنشاوي: سوف أعطيك كل ما تحتاج من تفاصيل ليلة العملية، على شرط ألا تخبر أحدا بما حدثتك، وأنت تعلم أن الشيخ سوف يعلم إذا حَدَّثْتَ أحدا بذلك.

كان الشيخ قد زرع ميكروفونات وكاميرات الْتَنَصُّتِ الخفية في مَخادع الفتيان.

كان السباعي مهندس الاتصالات البارع الذي نفذ هذه الشبكة بنفسه يقوم بفحص التسجيلات يوميا، ويحيط الشيخ علما بكل الأحاديث التي تجري بينهم، وكان الشيخ يستخدمها بطريقة مسرحية مع الفتيان ليُدخلَ في رَوْعِهم أنه يعلم كل شيء، وطبعا صدَّق الفتى أنه لو حدّث أحدا فإن الشيخ سوف يعلم، وبالتالي كتم في نفسه كل ما عَرَفَ من المنشاوي.

****

السباعي المشْلوح

السباعي، واسمه الأصلي وديع، وإنما التصق به اسم السباعي من زوج جارتهم السيدة التي أرضعته في إحدى قرى الصعيد، وهي زوجة السباعي الميكانيكي الكهل الذي لا تدور ماكينات الري العتقى إلا بلمسات أصابعه السحرية التي تحولت إلى اللون الأسود من كثرة انغماسها في زيوت التشحيم وطول معاشرتها للمسامير الصدئة والسيور المتهالكة.

وكان أتراب وديع يحسبونه ابن السباعي لطول إقامته بين ظَهْرانِيهم، وينادونه "وَدِّ السباعي"، بمعنى ابن، ثم أسقطت "وَدّ" وبقي السباعي وقد أرضعته زوجة السباعي وتولت رعايته لدى وفاة والدته بحمى النِّفاس.

لما كبر وترعرع احتفظ بوده القديم لأمه من الرضاعة، وقد تخصص في هندسة الاتصالات، ولكنه تركها وسلك درب الرهبنة، وأصبح راهبا.

كان لا يكف عن زيارة أمه من الرضاعة، محملا بما لَذَّ وطاب من الفاكهة الموسمية، وخصوصا البطيخ الذي كانت تحبه حبا جمّا.

كان وديع أو السباعي حادّ الذهن مُنفتح العقل لا يكف عن القراءة والاطلاع، وخصوصا فلسفات الإغريق والرومان، وكان يعجب بالغزالي وصوفيته، وأفلاطون وجمهوريته، ولم يكن يجد من يناقشه بموضوعية أبدا من أترابه أو زملاء الدراسة، وكان في أغلب الأحيان يحتفظ بآرائه لنفسه، وقد اختط لنفسه منهجا خاصا به في دراسة علوم الناسوت واللاهوت.

ذات صباح صدر قرار بشلحه وإخراجه من سلك الرهبنة. كانت التهمة هي التجديف والهَرْطَقَة، وأنه لا يمكن اعتبار العناصر الشاذَّة أمثاله صالحين لحمل رسالة الرهبنة، وكان هذا القرار كالحكم بالإعدام بالنسبة له، لذلك حمل من ضمن ما حمل من ألقاب، لقب "المشلوح"، وكان لا يستسيغ أن يناديه أحد بهذا اللقب، إلا أنه كان يلبي النداء، وفيما بعد تعود عليه، بل واستطابه.

أُلْقِيَ السباعي كمصادفة مقصودة في طريق الشيخ مسعود، وكانت بدايته في العمل مع الشيخ لتركيب شبكة التنصت وكاميرات المراقبة والأنظمة الصوتية في مقار الشيخ، من خلال شركته الخاصة التي أسّسَها بإمكانات متواضعة.
وضع السباعي حلولًا مبتكرة للشيخ الذي استبقاه عنده بشكل دائم، بعد أن توافقا بشكل غريب.
وكان الشيخ يجد متعة عقلية كبيرة في التحاور مع "المشلوح " الذي كان يُلقي على مسامع الشيخ من الآراء ما يودُّ سماعه منه.
أجزَلَ له الشيخ العطاء أضعاف ما كان يربح من شركته الخاصة التي توقف نشاطها فجأة، واستمر تعاونهما وثيقا دون أي شائبة.
كان السباعي يجيد تملُّق الشيخ ويمدحه باحتراف من دون أن يبدو عليه أنه مُتَزَلِّفٌ أو منافق، فقد كان بارعا في انتقاء الكلمات واختيار المواقف التي يمدحه فيها، لذلك كانت صُحبته تطيب للشيخ مسعود، وكان يستبقيه لأوقات متأخرة من الليل يتسامران.
كان الشيخ يستفيد من تمكُّن السباعي من لغات عدة كمترجم عند الحاجة، ويأمَنه كذلك عند إرساله خارج البلاد لاستيراد بعض الأجهزة الخاصة بعمله، والتي كان يطلبها السباعي بنفسه لحاجة العمل إليها، وكان السباعي يفرك كفيه جذلا عند تكليفه بالسفر للخارج، حيث يتنزه في أوروبا ويتسوق، ويقوم ببعض الزيارات الأخرى غير المُجَدْوَلَة.

****

فهيم

ظهر الفتى المتحذلق "فهيم" على مسرح الأحداث فجأة يقلِّبُ بين يديه بضع ملايين من الدولارات وبعض الخبرات الموروثة وضعها في بعض المشروعات الاستثمارية، ومن الغريب أن المناقصات التي كان يدخلها كانت تُرسى عليه بطريقة أو بأخرى، دون بقية الشركات العريقة في السوق، وبدأ اللغط حوله ينتشر.

وبعد أن تضخمت ثروته في فترة وجيزة، أسس مجموعة قنوات إعلامية لتكون منبرا له، واستقدم لها خبراء في الإعلام لكي يعملوا بشكل محترف نوعا ما، بعيدا عن سطحية الإعلام الحكومي وفجاجته.

لم يكتف "فهيم " بذلك لأنه عرف سر التأثير الإعلامي جيدا للمعارضين، فاشترى حفنة من الإعلاميين في قنوات أخرى، وأنشأ بعضا من الصحف بعضها بطريق غير مباشر يهاجمونه في ما يريد أن يعرفه الناس، ويسبِّحون بحمده في أحيان أخرى، حسب ما تُوَجِّهُهم عصا المايسترو القابع خلف الكواليس، وأغْدَقَ عليهم من الأموال والهدايا.

آتت كل هذه الأعمال أُكُلَها بزيادة كبيرة في ثرواته وتأثيره في المجتمع، وأصبح يشار إليه بالبَنان في كل محفل.

آفته الكبرى كانت في أنه لا يستطيع ضبط مشاعره عندما يتحدث شخصيا للإعلام، فتتناثر من فيهِ الكلمات دون حسيب أو رقيب، إما رعونةً وإما تفاخرا، وكانت تفضح كثيرا مما يجب أن يكون مكنونا في الصدور.

كان فهيم لا يستطيع ضبط لسانه مع موظفيه أو من يدينون له بالفضل، فتجد على لسانه من الألفاظ الساقطة والأساليب المتدنية ما يخجل منه الخليع ويتورع عنه الأشقياء.

كان بارعا في اقتناص الفرص، ويلمحها من بين الغيوم، ولا يكترث كثيرا بالمخاطر ولا يقيم لها وزنا، كل شيء عنده بحساب الربح والخسارة المادية فقط.

كان موهوبا في الإدارة بالسليقة، وزاده العلم مهارة واحترافا، وكان يجمع المعلومات الدقيقة عن منافسيه والمتعاملين معه من مصادرها بدقة شديدة، وقد أفادته هذه المعلومات في اصطياد الصفقات الرابحة حتى من قبل الإعلان عنها.
باختصار، كان خزانة أسرار قذرة ومُتْخَمة تمشي على الأرض.
وقد استخدم كثيرا من الأساليب الملتوية للحصول على المعلومات الخام من مصادرها، فقد كان يُغدِق هداياه المبتكرة على عناصره المهمة في كل هيئة أو مؤسسة من أقراط ماسية وسيارات فخمة لزوجات المسؤولين إلى أحدث أجهزة الهواتف التي تصنع بأعداد محدودة للعملاء المميزين، تكون مزينة بالأحجار الكريمة ولها إطارات من الذهب الخالص، منقوشة عليها أسماؤهم، ليتباهى بها مالكوها، وخصوصا نساؤهم، مع خطوط مفتوحة بأرقام مميزة يدفع هو فاتورتها إكراما لهم مهما بلغت.
وقد كانت هذه الهواتف روافدَ لسيلٍ لا ينقطع من المعلومات التي تصل إلى قسم خاص داخل إدارة الـ "IT" ملحقة بمكتبه الخاص، تقوم على فرزها وتصنيفها.
كانت المعلومات تصل عن طريق برامج مخفية في تلك الهواتف لا يدري بها مستخدموها، وهي تسجل كل المكالمات والرسائل الصادرة والواردة من هواتفهم إلى تلك الإدارة، ولا يطلع عليها أحد سواه، هو وسكرتيره رامي الذي يحيطه علما بكل ما قد يثير شهيته أو شكوكه من معلومات، وقد استفاد كثيرا من تلك المعلومات عن الصفقات والمشروعات وتفاصيلها الدقيقة وميزانياتها، حتى من قبل أن يُعلَن عنها، بالإضافة إلى بعض المعلومات الشخصية الخاصة التي كان يوظفها توظيفا جيدا لتخدم أهدافه ومشروعاته.
دخل رامي مدير مكتب فهيم فجأة وهو يرتجف من شدة الخوف، وهو يجفف حبّات العرق الباردة التي تتقاطر على جبينه قائلا له:
ـ نحن في مأزق كبير يا سيدي.
ـ انطق، تكلم، ما الأمر؟

ـ لقد خطف رجال العصابات اثنين من مهندسينا وأربعةً من الفنيين في أوسراپينا، حيث تعمل شركتنا في مشروع أنابيب الغاز.
ـ هون على نفسك، واذكر لي التفاصيل.
ـ كانوا في مهمة لعمل جَسّات للتربة، وقد تعطلت سياراتهم فجأة في أحد الكمائن التي نصبها الخاطفون.
ـ كم طلبوا من فدية؟
ـ طلبوا عشرة ملايين دولار!
هذا كثير يا أولاد الـ............
ـ ثم استدار حول مقعده يَنْفُثُ الغضب كالْمِرْجَل البخاري ويسب ويلعن، ثم قال:
ـ تفاوض معهم على مليون دولار ولا أكثر.
اتصل السكرتير بالرقم الذي أعطاه إياه الخاطفون مبديا استجابته لهم، على أن يدفع لهم مليون دولار.
كان الرد من الخاطفين صوت طلقة نارية اخترق أذن السكرتير عبر الهاتف، وجاءه بعدها صوت المتحدث يقول له:
ـ لقد قتلنا المهندس إبراهيم، أصبح لدينا الآن مهندس وأحد وأربعة فنيين.
استشاط فهيم غضبا وقال له:
ـ ارفع المبلغ إلى مليونين فقط ولا أكثر.
فقال السكرتير:
ـ لا أستطيع يا سيدي أن أفقد شخصا آخر!
ـ إنك طري العود أعطني الهاتف، في نبرة تهديد
تحدث فهيم مع الخاطف قائلا:
ـ سوف أدفع مليونين ولن أزيد.
جاءه الصوت من الطرف الآخر:
ـ سوف تسمع الرد بعد ساعة، وأغلق الهاتف.

فيما دار الحوار التالي بين فهيم وسكرتيره.
قال فهيم:
ـ كم يبلغ مبلغ التعويض لكل الأفراد المخطوفين لذويهم إذا ما قُتلوا جميعا؟
ـ حوالي أربعمائة ألف جنيه، لكل مهندس مئة ألف وللفني خمسون.
ـ إذن لا ينبغي أن نزيد الفدية عن مليونين ولو قتلوهم جميعا.
عَرَتِ الدهشة وجه السكرتير ولَحَظَه فهيم فقال له:
ـ لا تظنَّ أنني مُنْعَدم الرحمة، لكن المشروع الذي نقوم به في حدود الثلاثمائة مليون دولار، وتبلغ أرباحنا فيه نحو ثلاثين في المائة، يعني حوالي تسعين مليون دولار، لو خسرنا منها مليونين فلا بأس، أما لو خسرنا فقط أربعمائة ألف جنيه فهذا أفضل لعدة أسباب:
أولها: يعرف الخاطفون أننا لن ندفع فدية أكثر من ذلك، وبالتالي لا يكررونها، وأتمنى أن يرفضوها.
ثانيا: نحن ندفع للسلطات المحلية مبلغا من المال لحماية أفرادنا، حيث إنهم يعملون في أماكن بالغة الخطورة، واتضح تقصيرهم، فإما أن يقوموا بعملهم والقبض على الخاطفين، وإما أن نتوقف عن الدفع، وهذا سوف يحفِّزَهم للقبض عليهم، خصوصا وقد قتل أحد المهندسين الآن.
ولو دفعنا الآن ما يطلبون فَلَسوف تضيع كل أرباحنا لمصالحة الخاطفين الذين سوف يستمرئون اللعبة.
تأثر السكرتير كثيرا لهذا المنطق، ولما أوشك أن يبدي اعتراضه أشار له الفتى بالصمت، فابتلع لسانه وصمت، ثم أردف فهيم قائلا:
ـ مزاولة الأعمال مثل خوض الحروب يجب أن تحسبها بميزان الهزيمة والفوز، ولابد من أن تتحمل بعض الضحايا، وارحمني من عواطفك الجياشة وقلبك الحنون.
ـ ماذا عن أهلهم؟

ـ أهلهم!!! -خرجت من فِيهِ ضحكة استهزاء، مع إشارة خليعة وأضاف: يعرفون أن أبناءهم يعملون في مناطق بالغة الخطورة، ومع ذلك وافقوا طمعا في الشقة والسيارة والتليفزيون البلازما، وسوف يحصلون عليها من مبلغ التعويض، وعما قليل ينسونهم.
ـ ماذا لو لجأوا إلى القضاء؟
ـ لا عليك، وماذا يفعل جيش المحامين لدينا الذي يتقاضى مرتبات وهم جالسون في مكاتبهم المكيفة دون عمل؟ وماذا عن الهدايا والإكراميات التي نرسلها لمن تعرف ومن لا تعرف؟ ثم إنهم في حال اللجوء للقضاء سيفقدون التعويض الفوري الذي سوف ندفعه لهم، بالإضافة إلى مرتبات أبنائهم التي تدفع طوال فترة الخطف. لا تنس أن هؤلاء الناس لديهم التزامات تضغط عليهم في اتجاه قبول التعويض، ولا بأس أن نرفع من قيمة التعويض إلى الضعف، فلن نصل إلى عُشْر مبلغ الفدية، وسوف نكسب عطف الجماهير في البلاد إذا قمنا بزيارة ذَوِيْهم، وقدمنا لهم هذه الزيادة كأنها عفو الخاطر ووحي الساعة.. الآن عليك أن تنظم حملة إعلامية ضخمة لتوضيح موقفنا، واحرص على ظهورنا بمظهر الضحايا، ونحن فعلا كذلك.

بالرغم من أن رامي كان على شاكِلة رئيسه في العمل، إلا أنه امتعض من الطريقة التي تَعامَل بها فهيم مع أهالي المخطوفين، واستغلال الظرف النفسي السيئ الذي يمرون به، ودار في خلده أنه يوما ما قد يكون في موقفهم أو حتى أحد من ذويه إذا تعرض هو لأي موقف مشابه.
لاحظ عليه فهيم ذلك، فأراد أن يبرر له موقفه قائلا:
ـ أنت يا رامي من العائلة الصغيرة لي، ونحن لا نفرِّط أبدا في رجالنا، لكن هؤلاء المهندسين والعمال مجرد أدوات في المواقع، ولا تقارن نفسك بهم.
***

فهيم والبرلمان

كان عضو البرلمان الناجح في الانتخابات التي جرت حديثا قد طلب لقاءَ عاجلا مع فهيم.

كان عضو البرلمان محدود الثقافة، يكتب ويقرأ بمعاناة شديدة، لكن علاقاته كانت متشعبة ومتداخلة مع من كان يسميهم رؤوس المال الشعبي، وكان تاجرا بالفطرة يعرف كيف يكسب المال، وكيف يكسب من الأصدقاء من يساعده على التسلق إلى قمة المجتمع حتى يدخل المجلس التشريعي لِيَسُنَّ القوانين التي تحارب الفساد الذي يشارك فيه.

فتحت له السكرتيرة الحسناء باب غرفة المكتب، وأتى فهيم يبدو عليه الاستعجال، وبادر عضو البرلمان بابتسامة واسعة قائلا:

ـ "ألف مبروك يا فتحي ع الحصانة".

ـ "الله يبارك فيك يا فهيم باشا، بس ما جاتش بالساهل زي ما حضرتك عارف".

ـ "صرفت كام"؟

ـ "سبعة مليون بس على المعارف والتظبيطات والدعاية، وشِرا الأصوات".

ـ "بكرة تلاقي شيك بأربعة مليون عند السكرتيرة".

ـ "بس"....؟

قاطعه فهيم قائلا:

ـ"ما بَسَّشْ... اللي جاي أحسن، ما تبقاش طماع"!

قال ذلك وهبَّ واقفا مؤْذِنا بانتهاء المقابلة، ومد يده مصافحا لفتحي قائلا له:

ـ "ابقى نسق كويس مع رامي، وهو حيقولك تعمل إيه في الجلسات".

ـ "تؤمر يا فهيم باشا، إحنا رِجّالتك".

وخرج سريعا، ولما صَفَقَتِ السكرتيرة الباب خلفه، أمسكت أنفها بأطراف أصابعها لتقززها من رائحة فتحي، وتنفس فهيم الصعداء وفرك كفيه بسعادة قائلا:

ـ "كده إحنا ماشيين صح".

كان فهيم قد حصل على نسبة جيدة من الأعضاء التابعين له والمتعاطفين معه وذوي المصلحة تؤيد ما ينتويه للبرلمان القادم.

وكان جملة ما صرفه فتحي على الانتخابات لا يتجاوز المليونين، ولم يكن فهيم جاهلا أن فتحي يكذب، لكن الاثنين كانا يعرفان قواعد اللعبة جيدا.

****

الشيخ الكبير "مسعود"

كان الشيخ قد قرأ في بعض العلوم الشرعية، واهتم بتاريخ الفرق والطوائف والملل والنِّحَل من الكتب التي حازها بشكل عارض، واستوعب كثيرا من أفكارهم، وكان شَغُوفا بشكل خاص بأفكار طائفة الحشاشين الإسماعيلية، وأعجب بحِيَلِهم وألاعيبهم، وكان مُنْبهرا بشكل خاص بزعيمهم الحسن الصبّاح وحُسن إدارته لرجاله في قلعة آلمـوت.

عكف الشيخ مسعود على قراءة كل ما كُتِبَ عن الصباح، ودرس بالتفصيل طرق تأثيره في أتباعه ومريديه.

كانت المفاجأة التي ألهبت الحماس في صدره أنه وجد صلة في النسب بينه وبين الحسن، وقد تتبعها إلى أن وجد أن أصوله فارسية، وأن أجداده استوطنوا مصر أيام الدولة الأيوبية وأنه ينحدر مباشرة من نسل الحسن الصباح مؤسس فرقة الحشاشين.

كان هذا مما زاد شغفه بجده الأكبر الحسن الصباح، واستزاد فدرس علم الكلام وبعضا من علوم النفس، وكثيرا من فلسفة الإغريق والرومان بمجهوده الشخصي

كانت لدى الشيخ قدرة عالية على الإقناع تدعمها ملامح جسده الفارِه، وقدرته على التحكم في حركات الجسد بالسّليقة، وقد لَمَعت في ذهنه فكرة إعادة الحياة لطائفة الحشاشين، وإحياء أفكار جده الأكبر الحسن الصباح، ليس كفرقة دينية ثورية ذات فكر تعمل على نشره وتسعى إلى السلطة، فقد كان لا يعنيه هذا الأمر، بل إحيائها كمؤسسة خدمية فقط تقدم خدماتها للخاصة الذين لا يحبون التعامل مع العالم السفلي بأوزاره وأقذاره، ولكن بأسلوب عصري أنيق يتناسب مع مستجدات العصر وأدواته.

كرّسَ الشيخ نفسه ووقته لخدمة من يدفع، صحيح أنه كان ينتقي زبائنه ممن يثق بعدم إفشائهم للأسرار، لكنه كان في كل عملية يأخذ من الضمانات ما يمنع طالب الخدمة من إفشاء أسراره، بل ويحافظ عليها من التسرب.

لم يفصح الشيخ عن طرق التنفيذ أو آلية العمل لأيٍ كان مطلقا، وقدم خدماته للكثيرين، وكان ينتَقي أدواته من أولاد الشوارع الذين لا حظٌ لهم من التعليم أو الثقافة، ليَسْهُل تطويعِهم لأوامره طالما قدَّم لهم المأكَل والمأوى، بالإضافة إلى أنه ابتكر كثيرا من الطرق الشيطانية لإقناعهم وجعلهم يُطيعونه طاعة عمياء، حتى لو أمرهم بقتل أنفسهم، فإنهم يفعلون عن طِيب خاطر.

واسْتَهوت شخصية الحسن الصبَّاح (جده الأكبر) الشيخُ مسعودٍ إلى درجة كبيرة، ووجد فيها كثيرا من أوجه الشبه في شخصيته، مما زاد في يقينه أنه يتحدر من سلالته فعلا.

قد كان الشيخ صعب الْمِراس ذو شخصية قوية وآسِرة، وبلغ به الْهَوَسَ بالحسن الصبَّاح أن قرر الذهاب إلى حيث أقام الحسن قلعته، واجتاز المفاوز والقِفَار في رحلة طويلة إلى أطلال قلعة الموت التي شَيّدها الحسن الصبّاح في جبال بلاد فارس، ورأى الأودية والسهول التي أشرف عليها الصبّاح ذات مرة، وجلس على قمة الصخرة التي كان يقف عليها جده الحسن مخاطبا رجاله ومريديه.

كان الشيخ مسعود يجد متعة عقلية كبيرة في ترسم خُطَى الصبّاح، حتى أنه قرأ كثيرا من الكتب التي جرى فيها ذِكْر الصبَّاح، حتى ولو بشكل عارِض، لم يكن الشيخ مسعود دمويا، لكنه لم يكن يترك شيئا يعُوقُه عن تحقيق أهدافه كائنا ما كان، ولا الدماء التي سالت في سبيل تحقيق رغباته، ولكنه كان من الدَّهاء بحيث لا يترك أثرا يدل عليه ولا على أيٍ من عملائه الذين كانوا يطلبون خدماته، ولما يحين الحين لم تَكُ تأخذه رأفة بأي هدف يقع في مرماه، وكان يقول "إن الرحمة نقص في الطبيعة البشرية".

كان الشيخ مسعود قد حصل على قطعة واسعة من الأرض على الساحل في مكان ناءٍ لا يَطْرُقه أحدٌ، بعيدا عن العمران وعن عيون المتطفلين في أحد السواحل المِتميزة باعتدال جوها معظم أوقات السنة، واستقدم معماريين متميزين ليضعوا له أنْمُوذجا للفردوس الأرضي، كما يحلم به ويتخيله، واستخدم وسائل العلم الحديثة في توفير احتياجات المكان اليومية، باستخدام العناصر المحلية دون

اعتماد على مصادر أخرى، إلا فيما ندر، فكانت لديه مصادر الكهرباء الخاصة من ألواح الخلايا الشمسية، ويستخرج الماء من الآبار، ويزرع مساحات تكفي لإعالة فريق العمل وضيوفه أيضا.

لم يكن يسمح بدخول الغرباء إلى قلعته الحصينة أبدا، وكان الفتية الذين يخفقون في اجتياز الاختبارات الرياضية يُلحقون بفريق العمل في تلك القلعة، على ألا يلتقوا أبدا بمن نجحوا مرة أخرى، فقد كانوا يعملون في المزرعة الكبيرة التي تزود القلعة باحتياجاتها.

طَفَا الشيخ مسعود على سطح المجتمع بين ليلة وضحاها، يقدم خدماته بحذرٍ وحِرْصٍ بالِغَيْن لمن يستطيع تحمل تكاليفها من نجوم المجتمع وعالم المال والأعمال.

كانت حياة الشيخ مسعود يلفها الغموض من كل جوانبها، فلا يعلم أحد من أي أسرة يتحدر، ولا من أي مدينة أو مكان، بل ظهر فجأة على مسرح الأحداث وهو يلتقي أناسا غامضين مثله، وكل من يحاول فك طلاسم هذا الغموض أو محاولة استكشاف غوامضه يختفي أيضا بطريقة غامضة، لذلك كان مرهوب الجانب، ولا يفكر كائن من كان من عملائه أو العاملين لديه في تجاوز ما يرسم لهم من حدود، ويحرصون كل الحرص على عدم الاقتراب منها، بل تجاوزها.

****

مراد... القاضي

استطاع فهيم، في فترة وجيزة، بناء شبكة متينة ومتشعبة من العلاقات والأفراد الذين يَدِيْنُون له بالولاء في جميع الجهات النافذة.

كان الطرفان حريصين على إبقاء العلاقات غير ظاهرة لخدمة أهدافهم، فالأفراد كان يهمهم ألا يتوقف أبدا تدفُّقَ الأموال إليهم بشكل دَوْرِيً، والاستفادة من المميزات التي تقدم إليهم من شبكة علاقات وشركات فهيم المنتشرة في كل مكان.

كان فهيم خبيرا بفنون التعامل مع الناس، ففتح قنواته لكل من يحب الظهور الإعلامي من نُخْبة المجتمع وأدْعِياء العلم والثقافة، طالما هو يستفيد من مواقعهم، واسْتَقْطَبَ بعضا من الإعلاميين ذوي الخبرة والدِّراية، وأغْدَق عليهم لتحظى قنواته ببعض الْمِصداقية لدى السَّواد الأعظم من الناس، وكانت قاعدته التي لا يكف عن ترديدها أن "لكل شخص رغبة يَتوق إلى تلبيتها، ولكل باب مفتاح".

لم يكن فهيم يضيع وقته مع المراتب الدنيا للإدارة، إنما كان يتجه مباشرة صوب صانع القرار، مُحَمّلا بكل ما يضمن موافقته على طلباته من وعود، ويستخدم كل لباقته ودبلوماسيَّته ورِقَّتِه الْمُفْتَعَلة معه، هذا في أول مرة فقط، ثم بعد أن يدخل الرجل في دائرة المحظوظين يصبح مجرد رقم في قائمة مُنَفِّذي أوامره وليس طلباته، فهو لا يطلب بل يعتبر أن من وافق على التعاون في البداية لابد أن يستمر كأنه أحد موظفيه، حتى أنه كان يتجاوز أحيانا حدود اللِّياقة والأدب في الحديث إلى استخدام الألفاظ المجرّدة اختصارا للوقت، ويحرص على أن تحمل في طَيَّاتِها أيضا شيئا من الإهانة المقصودة، أو التهديد حال التهاون في التنفيذ.

كان يختار ضحاياه المتعاونين معه من ذوي الطموح المحدود والنفوس الصغيرة الذين يفرحون بما يلقى إليهم من فُتات، متجاهلين الثروات التي تضيع من مستقبل الأجيال، فهي لا تعنيهم على الإطلاق، بقدر ما تعنيهم أرصدتهم التافهة في البنوك أو الشقق الفاخرة وبعض الإجازات التي يقضونها في قراه السياحية، ويعودون بعدها أطْوَعَ له من بَنَانِه، خصوصا بعد الكم الكبير من الصور

الفاضحة التي كان يلتقطها لهم عناصره في تلك القرى، ويقوم بين الوقت والآخر بالتضحية بأحدهم على مذبح العِبرة والعِظة للآخرين.

وبعد أن توسعت أعماله، ترك هذه المهمة لأحد رجاله الذين يثق بقدرتهم على التَّغَلْغُلِ في الجهات النافذة وقدرته على تَطْويع المتعاونين معه، وإن كان لا يبخل عليه بتوجيهاته وتلميحاته الخارجة عن المألوف.

كان القاضي مراد من القلائل الذين لا يهمهم أن تُعرف عنه علاقته بفهيم، ولا أن تمتلئ الصحف الصفراء بفضائحه، لكن كان يهمه في المقام الأول ألا يقف تَدَفُّق الأموال والتسهيلات التي تقدم له في القرى السياحية التي يملكها فهيم، ولأنه يعلم أنه إذا رضي عنه فسوف تتوقف الحملات الإعلامية عنه تَوًّا، وتكف الصحف عن الخوض في تفاصيل حياته، بل قد يحصل على الانتداب الذي يصبو إليه في إحدى الوزارات لزيادة دخله.

وأثناء نظره إحدى قضايا الفساد الكبرى، صعد أحد الشهود إلى منصة الشهادة بجوار القاضي، ووجه إليه وكيل النيابة السؤال قائلا:

ـ ألم تأخذ نصف مليون جنيه لهذه القضية؟

لكن الشاهد لم يرد!

فوجه إليه وكيل النيابة السؤال مرة أخرى بصوت عالٍ:

ـ ألم تأخذ نصف مليون جنيه لهذه القضية؟

ولاذ الشاهد بالصمت المطبق، فانحنى القاضي مراد إلى جانب الشاهد، وسأله:

ـ لماذا لا ترد على سؤال ممثل الادعاء؟

فقال الشاهد بعيون تغمرها البراءة:

ـ كنت أظن أنه يسألك أنت!

وضجت القاعة بالضحك.

بعد انفضاض الجلسة، وسط صخب الأحاديث الجانبية التي حوّلت قاعة المحاكمة إلى ما يشبه السوق، وبعد أن غادر القاضي منصته إلى مكتبه، ألقى أحدهم قصاصة ورق ملونة داخل مظروف صغير أمام القاضي واختفى.

كانت هذه الوريقة له بِمَنزلة طَوْق النجاة، إذ تَضَمَّنَت إشارة من فهيم بالحكم في القضية المنظورة في جدول الغد أمام القاضي وحَيْثِيَاتِه الكاملة مكتوبة بأيدي محترفين، وكانت المقدمة في القُصاصة الصغيرة مختصرة جدا "البراءة لعدم كفاية الأدلة"، لم يأبه القاضي كثيرا بما كُتِبَ في الورقة بقدر ما غمرته السعادة وأشرقت تلافيف وجهه وانبسطت طياته المترهلة، لأنَّ فهيم قد رضي عنه وأعاده إلى دائرته مرة أخرى.

كان فهيم يسعى إلى تعيين ذوي قُرباه وأهاليهم في المناصب التي تخدمه مستقبلا، ويشملهم بالرعاية، وكان يقول لمدير مكتبه: هؤلاء هم القاعدة العريضة التي سوف تخدمك في المستقبل.

******

السحب الغامضة

في الفردوس كان عبّود يسير في رُدْهةٍ طويلة لا تبدو لها نهاية من سحب الدُّخَان الأزرق الذي يغمرها، وكانت الروائحِ الشَّذية تملأ المكان وتضفي عليه عبقا رائعا. بدا كما لو كان الفتي يطير ويشعر أن قدميه لا تلامسان الأرض من أثر النَّشْوة.

من جوف الدخان برز رجل يرتدي عباءة بيضاء فضفاضة، وعلى رأسه عمامة ضخمة وله لحية بيضاء طويلة تصل إلى ما دون صدره، ثم انشقت من حوله سحب الدخان وهو واقف كأنه أحد تماثيل الإغريق، ألقى هذا المنظر في قلب الفتى رعبا يكفيه أعواما عديدة، ثم أَوْمَأ إليه الشيخ يأمره بالتقدم مع هَمْهَمَةٍ غريبة وصوت عميق.

سمع الفتى هذا الصوت بجميع حواسِّه كأنما يخترق الجلد والعظم ويبعث في نفسه قَشْعَرِيْرَة، قال الشيخ:

ـ تقدم لا تَخَفْ.

لكن الفتى لم يستطع أن يحرك ساقَيْه، فكرر الشيخ النداء بكل لطف ووداعة. فتقدم الفتى قليلا. قال الشيخ:

ـ بعدما تصحو سوف يطلب منك المنشاوي طلبا مهما، وعليك أن تنفذه بكل دقة.

قال الفتى بصوت مَبْحوح خرج من تجاويف حنجرته بصعوبة بالغة كأنه يسعل:

ـ سمعا وطاعة.

كانت هذه الكلمة التي لَقَّنَهُ إياها بسيوني حتى لا يغضب منه الشيخ.

ـ الحفاظ على السر أهم من السر، أتفهم؟

ـ سمعا وطاعة.

كرر الشيخ سؤاله بشيء من التَّبَرّم.

ـ أنا أسألك: أتفهم؟

كان عبود يخشى أن يخرج على النص الذي تَلَقَّنه: فكان يكرر "سمعا وطاعة" دائما، حتى وإن كانت الإجابة تقتضي غير ذلك.

وكان الشيخ يختبر الطاعة والدقة في تنفيذ الأوامر، فكرر سؤاله:

ـ أتفهم؟

عندها خرج الفتى عن النص، وقال بحدة:

ـ نعم أفهم يا سيدي.

شعر حينها الشيخ أن الفتى لديه قدر من الذكاء لا بأس به، ولا يُخشى منه، فربت على كتفه قائلا:

ـ افعل ما يأمرك به المنشاوي دون سؤال وبنفس الترتيب، ولا تنس شيئا، اذهب على بركة الله.

ثم اختفى كما ظهر في سحب الدخان الكثيفة.

كان الأثر الذي تتركه هذه المقابلة قويا على الفتيان الذين يقع عليهم الاختيار لتنفيذ المهام الموكلة إليهم، إذ كانوا يؤمنون بالخوارق التي تُقَصّ عليهم من الشيخ ومن بسيوني إيمانا لا يتزعزع، وقد استخدم الشيخ كل وسائل التأثير البصرية والسمعية في الإقناع.

كان للسماعات المبْثُوثَة في أرجاء المكان وِفْقَ نظامٍ صوتي بديع ابتكره السباعي، والتي يصل إليها الصوت من خلال الميكروفون المخفي بعناية في تلافيف ثياب الشيخ يوحى بأن الصوت يخرج من كل مكان، والإضاءة الموزعة بدقة دون أن يظهر مصدرها، كما كان لتأثير الروائح الممزوجة بعناية أثر السحر على الفتية.

****

اليوم الموعود لعبّود

استدعى بسيوني عبودا واقتاده إلى غرفة طليت من الخارج باللون الأسود، وكان الفتيان يسمونها "الخزنة".

كان للخزنة بابان أحدهما من داخل المبنى والآخر يفضي إلى دهليز طويل يقود إلى درج حديدي ضيق يهبط بحدة إلى باب خلفي للمقر مغطى بشجيرات اللّاتانيا المبرقشة، التي تعمل كتمويه طبيعي للمكان.

جلس بسيوني مع عبّود ثلاث ساعات كاملة داخل الغرفة يراجع معه الخطة التي أعدها المنشاوي، ثم اصطحبه إلى خزانة الملابس لينتقي الزي الذي يتناسب مع قَوَامِه.

كانَ الزي يتألفُ من رداء كامل كالذي يرتديه الغواصون، لكنه أخف وأمتن، حِيكَ من قماش مطاطي خفيف مُصَنَّع بشكل خاص ليتكيف مع نُتُوْءات الجسد، ولا تخترقه الآلات الحادة حسب ما طلب الشيخ، وذا لون أسود غير لامع حتى لا يعكس أي إضاءة، مع غطاء للرأس كالذي يلبسه السباحون لا يبدو منه إلا العينين، ونظارة سوداء بإطار عريض لا تعكس الضوء، وحذاء مطاطي أسود أيضا.

عندما ارتدى الفتى عبّود هذا الزي أصبح كقطعة الفحم الحالكة السواد.

انخرط الفتى في نوبة ضحك هستيرية عندما نظر إلى نفسه في المرآة، كما لم يستطع بسيوني رؤيته عندما أطفأ الأضواء، ليتأكد من سلامة الزي للمهمة الموْكَلة إليه، لكن بسيوني تَمَلَّكَهُ الغضب عندما فوجئ بعبّود يوشك أن يَخْرِقَ عيني بسيوني بأصابعه التي لم يتمكن من رؤيتها في الظلام الحالك، فَحَدَّجَهُ بنظرة قاسية قائلا له:

ـ الموضوع جد جدّا وليس هزلا.

سار بسيوني أمام عبود إلى أن خرجا من ذلك الباب، ثم اصطحبه في السيارة الرياضية السوداء التي كانت تقف خارجا ملتصقة بالباب.

أسْدَلَ بسيوني على رأس الفتى قطعة من القماش الأسود الذي لا ينفذ منه الضوء، ولما تَذَمَّرَ عبّود وأبدى اعتراضه على ذلك، قال له بسيوني هذا لحمايتك حتى لا يراك أحد ويتعرف عليك.
لما قال بسيوني هذه العبارة صمت عبّود، وامتلأ وجهه بعلامات التهكم، وقال في نفسه إن أمي لو قُدِّر لها أن تراني ما عرفتني في هذا الزي، وأصيب بقشعريرة اجتاحته من ناصيته إلى أخمصيه عندما تذكَّر أمه، وغلبه الحنين فانتفض، فظن بسيوني أن هذه الرعشة من خشيته، فابتسم في خيلاء ووضع يده على كتف عبود قائلا:
ـ هدئ من روعك ولا تخش شيئا.
فقال عبود في نفسه: يا لهذه المشاعر التي تنبثق في غير أوقاتها كأنها شعلة من نار تتأجج في الصدور.
انطلقت السيارة تَنْهَبُ الأرضَ إلى أن وصلت قريبا من فيلا السنوسي بك.
كانت الفيلا مُقامة في أحد الأحياء الجديدة على ربوة عالية، وهي أقرب إلى القصر منها إلى الفيلا، حيث إن مساحة الأرض المخصصة له من صديقه الوزير كانت أكثر من ثلاثة آلاف متر، لم يَبْنِ منها إلا منزلا صغيرا على الطراز الكولينولي، وترك الباقي مساحات خضراء وحمام سباحة أسطوري وبِرْجُولا خشبية في وسط الحديقة، يتعاطى فيها النرجيلة مع أصدقائه ساعات السّمَر.
قبل الفيلا بأحد الشوارع، انْزَوَت السيارة إلى جوار الإفريز، ونزل منها عبّود لا تكاد قدماه تلامسان الأرض من فَرط الحماسة وتدفق الأدرينالين في جسده.
تسلق السور الخلفي بخفة الفهد، وقفز إلى داخل الحديقة ومنها إلى سُلم العاملين، حتى وصل إلى المطبخ.
كان الصمت العميق يلف المكان، فقد أوشك الفجر على إشعال ضيائه في بقايا ظلام الليل، وهي الساعة التي يكون فيها سكان الفيلا في سُبات عميق.
فتح باب المطبخ بمهارة شديدة حسبما دُرِّبَ عليه، ودَلَفَ إلى الداخل بخطوات واثقة، كان يعرف أن صاحب المنزل في سهرة خارج البيت، كما أخبره بسيوني،

لذلك دخل إلى غرفة النوم مسرعا، وبيد مُرتعشة من فرْطِ الإثارة، دسَّ المظروف تحت الوِسادة وخرج من الغرفة كأنه الشبح، لكنه فوجئ بصوت صَرير بابٍ يُفتح وصفير سُعال أحد الرجال يدوي في المكان، فتَسَمّر في مكانه خلف أحد أعمدة البَهْو وحبس أنفاسه، ويده على قارورة المخدر، وجمد في مكانه حتى لَيكاد يسمع صوت الدماء في تجاويف أذنه الداخلية.

ما هي إلا بُرهة حتى مرّ السفرجي من أمامه دون أن يلحظه في سبيله إلى الحمام، ليتوضأ استعدادا لصلاة الفجر، تنفس عبّود الصعداء.

عاد عبود من حيث أتى بنفس الطريقة، وما إن قفز من السور الخارجي حتى وجد بسيوني يفتح له باب السيارة الرياضية من الداخل.

مد بسيوني يده إلى عبّود، مهنئا بنجاح المهمة، وأسدل على وجه عبّود قطعة القماش السوداء مرة أخرى ثم انطلقت السيارة تشق الطريق إلى المقر في ذاك الصباح الباكر، وزُفَّ الخبر إلى الشيخ برسالة هاتفية من كلمة واحدة (تمت)، بعدها أغلق الهاتف ونزع الشريحة وشقها نصفين، ثم ألقاها في عرض الطريق، حسب التعليمات.

****

الجدار المسدود

كان السنوسي بك يعتبر أن الفتى المتحذلق "فهيم" دخيل على المهنة، وكان يطِيب له أن يسترجع الأيامَ الخَوَالي، أيامَ كانت المنافسات مُرتَّبة ومحسوبة، وكان للمهنة شيخٌ يفرضُ رأيهُ على الناس، ويتولى توزيع المشروعات، لذلك كان دخول الفتى إلى المهنة وإدخاله أساليب جديدة للتعامل، كثيرا ما يثيران حنقَ وغضب السنوسي بك، لكنه لم يكن لِيُعِيرَه اهتماما كثيرا استصغارا لشأنه، لكن السنوسي بك لم يعلم ما تُخبِّئه له الأيام، وأن هذا الفتى في تلك الفترة القصيرة استطاع بناء إمبراطورية ضخمة، وامتدت أذرعته في الداخل والخارج.

كانت محاولاتِ دَءوبة سبقت من فهيم للاتفاق مع السنوسي بك قد فشلت واصطدمت بجدار صلْد من عناد الأخير، وترفُّعا عن العمل مع من في سن أبنائه ندًّا لندٍّ، كما أن فهيم اشترطَ أن يكون له النصيب الأوفرَ في أي شراكة بينهما.

استمر السنوسي بك في أعماله، وخَبَت قليلا مخاوفه إثر الرسالة التي وصلته، لكنها لم تبُارح خياله قَطُّ، وإنما انزوت قليلا في تلافيف ضغوط العمل اليومية.

كان السنوسي بك يتناول إفطاره كل يوم في ميعاد محدد، يجلس بمفرده إلى طاولة الطعام الكبيرة، بعد رحيل زوجته وانتقال أولاده وبناته لحيواتهم الخاصة، ويأتيه السفرجي بقائمة الطعام المعتادة حسبما أوصى به الطبيب عدا يوم الجمعة، حيث كان يُصِرّ على أكل ما يشتهيه، ضاربا بتعليمات الطبيب عرض الحائط ذلك اليوم فقط، ثم يعود إلى نظامه بقية أيام الأسبوع.

دقت الساعة السابعة صباحا، ولم يظهر السنوسي بك على مائدة الإفطار كعادته.

انتظر السفرجي خمس دقائق مرت كأنها خمسة دهور، ولم يظهر الرجل.

تفقد السفرجي الصالة والحمام، لكنه لم يجد له أثرا، تجرأ السفرجي وفتح باب غرفة النوم الرئيسة، وألقى نظرة داخلها، فألفاه راقدا على الفراش دون حراك.

تجرأ أكثر وتقدم من الفراش، فوجد وجه السنوسي بك شاحبا، وتعلو شفتيه زرقة خفيفة، وضع بحذر أصابعه تحت أنف الرجل، فلم يشعر بتنفسه، فالتقط سماعة الهاتف من جانب الفراش، واتصل بالطبيب المعالج، فحضر على الفور.

عَبَس الطبيب بعد توقيع الكشف، وتَمْتَم في هدوء:
ـ البقاءَ لله.
اتصل السفرجي بأولاده وبناته الذين حضروا على الفور يصحبهم أزواجهم، كانت تتلاعب في رؤوسهم الأفكار المتناقضة، وكانوا بين راضٍ مبتهج يواري ابتهاجه بسحابة من الحزن المفتعل، وساخطٍ ومستغربٍ شامت.
غير أن ابنه الأصغر التقى الطبيب، ودار بينهما هذا الحوار.
ـ في أي لحظة حدثت الوفاة؟
ـ قُبيل الفجر.
ـ لقد كان معي على الهاتف بعد منتصف الليل، ولم يبْدُ عليه المرض ولا الضعف، فما تشخيصك لسبب الوفاة؟
ـ لا أستطيع أن أجزم تماما، لكن الشواهد تدل على أنه هبوط حاد في الدورة الدموية، ولم يُسعف فورا.
قال الابن في نبرة عالية ممزوجة بالحزن الشديد:
ـ هل أنت متأكد؟
ـ قلت لك لا أستطيع أن أجزم!
رد بحزم:
ـ فمن يجزم؟
بدت على وجه الطبيب بوادر الشفقة على الابن، فوضع يده على كتفه بحنوٍ بالغ قائلا:
ـ أنا أقدّر الظرف جيدا، وأعلم مدى حزنك و.....
لم يدعه الابن يتم حديثه، وإنما نزع يده برفق، وقاطعه قائلا:
ـ أود أن أصل إلى الحقيقة.
ـ الطب الشرعي فقط هو من يجزم في حال كان هناك شك.
ـ شك في ماذا؟
ـ أن الوفاة غير طبيعية مثلا، واستطرد: ولا أرى سببا لذلك.

ـ أنا أرى أسبابا لذلك!

ـ أقترح أن تتناقش مع إخوتك في هذا الأمر.

عاد الابن إلى البهو الكبير، حيث كان إخوته جالسين يبدو عليهم الوُجُوم الشديد، وتنبعث بين الفَيْنة والأخرى أصوات بكاء مكتومة من إحدى بنات السنوسي.

ما إن أفضى إليهم الفتى بشكوكه، حتى اندلعت المناقشات بين مؤيد ومعارض، وكل له حُجَّته، فحجة المعارضين أن الوفاة طبيعية، خصوصا أن الرجل كان يعاني أمراضا كثيرة، وأن مجرد خروج الأمر إلى العلن فضيحة، إضافة إلى تأثيره على أعمال الرجل وشركاته التي سوف تتأثر سلبا.

كان مؤيدو هذا الرأي بناته وأزواجهن، أما أولاده فقد أيده واحد منهم، وبقي الابن الأكبر متحيرا، لا يثبت على رأي، فهو مع أزواج إخوته كلما لاحت له حجتهم مقنعة، وهو مع أخيه الأصغر كلما غضب وعلا صوته، لذلك لم يأبهوا كثيرا لرأيه، وتجاهلوا وجوده.

ولما كان الأمر لابد له من إجماع، فقد تلطف أزواج الفتيات مع الابن الأصغر، وأخذوا في مواساته، طمعا في أخذ موافقته على إغلاق الموضوع عند هذا الحد، وإكرام الميت دفنه، واستخدموا كل ما يعرفون من أمثال وحكم ليدعموا وجهة نظرهم، لكنه كان يزداد تشبّثا بموقفه كلما ازدادوا تَلَطُّفًا معه.

****

الدكتور شفيع

أُدخلَت جثة السنوسي بك إلى معمل التشريح للفحص.

كان الطبيب الشرعي الْمُتَمَرِسِ الطَّاعن في السن، الدكتور شفيع، يتفحصها من خلال نظارته ذات العدسات السميكة الْمُبَرْقَشة ببصمات أنامله، وهو يعلم أن تقريره على الْمَحَك، حيث إن الرجل شخصية عامة، وهو يتحسّبُ لكل صغيرة وكبيرة، ورفض التحدث حتى مع موظفيه عن طبيعة الوفاة.

بعد إتمام الفحص كاملا، اقتنع الدكتور شفيع أن الوفاة كانت نتيجة هبوط حاد في الدورة الدموية أدى إلى توقف الأجهزة الحيوية عن العمل، وكان هذا مؤيدا لرأي الطبيب المعالج.

وقبل أن يهم الدكتور شفيع بمغادرة غرفة التشريح لكتابة التقرير، لفتت نظره وخْزَة صغيرة في ظاهر اليد اليسرى للجثة، تدل على إدخال "كانيولا" التي تعطى من خلالها المحاليل، ولما كان باديا على الجثة أن صاحبها كان يعاني أمراض الشيخوخة، أبعد الرجل عن خاطره أي شكوك.

لكن تلك البقعة كانت حديثة، وكانت تقفز إلى وعي الدكتور شفيع بين الحين والآخر، لأن هذا يعني أن الرجل خضع لمساعدة طبية حديثا، ولم يذكر السفرجي ولا الطبيب المعالج أنه خضع لذلك خلال الأسبوع المنصرم.

مضى إلى مكتبه لكتابة التقرير كما تَيَقَّنَ، ويصرح بدفن الجثة لعدم وجود أي شبهة جنائية.

كان مساعده يؤيد هذا الرأي، ويرى أن وفاة الرجل طبيعية بشكل مُلِحٍّ، وكلما نظر الطبيب الشرعي إلى تلك البِقعة أراد أن يصرف نظره عنها بالحديث في أمور هامشية، ونجح في ذلك، غير أنه بعد أن ألقى قُفَّازه الطبي في سلة المهملات، انْتَحَى المساعد جانبا وأجرى اتصالا هاتفيا قصيرا، ثم عاد إلى مكتبه.

دق جرس الهاتف المحمول للطبيب الشرعي، فرد الطبيب على المكالمة

ـ إيه الأخبار؟

ـ تمام... طبيعي.

ـ كويس... خلص التقرير وابعتهولي علشان الدوشة اللي بره.
ـ حاضر.
أحس الطبيب أن نبرة الاتصال والاستعجال كانت على غير العادة لَحُوحة من رئيسه المباشر، الذي كان في العادة يصبر عليه ويَحُثه على التَّثَبّت قبل كتابة التقارير!
وانتابَته الهواجس، فمن ناحية كان سوف يكتب في التقرير كما انتهى إليه فحصه أن الوفاة طبيعية تماما، ولو لم يأتِه هذا الاتصال لكان التقرير على مكتب رئيسه المباشر بعد بُرهة قصيرة، لكن هذا الإلحاح جعله يسّترَيب، وأنه لو كتبه كما أراد رئيسه لأصبح محل شك، كان يقول في نفسه "الوضع طبيعي تماما، والرجل يريد أن يتجنب خوض الصحافة والإعلام في أعمالنا، خصوصا أن الصحافيين مرابطون منذ البارحة خارجا، يتسقطون الأخبار حتى من الموظفين غير ذوي الشأن، وينسجون قصصهم الخيالية والخالية من التهذيب والصدق من قبل صدور التقرير.
إذن لننه الموضوع الآن والوضع قانوني وصحيح". ثم تنتابه الهواجس، فيعود مرة أخرى ذلك الصوت الآخر في رأسه صارخا: فما الداعي لهذا الإلحاح من الرئيس المباشر إن لم يكن في الأمر ما يريب؟
مرت على صاحبنا ما يقارب الساعة بين أخذ ورد بينه وبين نفسه، ثم دوّى من جديد جرس الهاتف المحمول، فأفزعه وأيقظه من تصوراته كأنما يسمع هذا الرنين لأول مرة.
استعاد رباطة جأشه ورد على الهاتف فجاءه الصوت:
ـ "إيه يا دكتور... فين التقرير"؟
ـ على مكتبي.
ـ "وبينيّل إيه على مكتبك"؟
كانت هذه اللهجة جديدة تماما على أذُن الطبيب، فلم يتعودها من رئيسه المباشر قط، صحيح أنه كان فَظًا مع من هم دونه، لكن العلاقة بينهما كان يغلفها

غشاء رقيق وهش من الاحترام المتبادل، يحافظ عليه الطرفان بكل كياسة، فرد عليه مُتمالكا أعصابه:

ـ أراجعه.

ـ لا يحتاج إلى مراجعة، فقط وقعه وأرسله لي لاعتماده.

ـ آسف... لابد أن ألقي نظرة أخرى على الجثة.

ـ نعم! هل تمزح؟

واختلفت اللهجة تماما.

كان المساعد ينظر إلى الدكتور شفيع نظرة من يعرف بواطن الأمور، ويبدي انشغالا بما بين يديه، غير أن أذنيه وكافة حواسه كانت مُتنبهةً لما يدور، وينتظر ليعرف نتيجة هذه المبارزة التي لم يكن يتوقعها.

أصر الدكتور شفيع على فحص الجثة مرة أخرى.

وجاء الأمر من الرئيس المباشر بِتَنْحِيَته عن هذه الحالة، وإسنادها إلى مساعده، مخالفا بذلك الأعراف الإدارية، وقد وقَّع المساعد التقرير راضيا تلمع عيناه، وتتورد وجنتاه، في التَّوِّ واللحظة.

كان المساعد يمت بصلة القرابة لرامي مدير مكتب فهيم، وهو من توسط له ليصل إلى ما وصل إليه في هذه الهيئة المهمة.

****

الموت الأبيض

كان الفتى عبّود بارعا في التسلق كأنما قد خلق من طينة القرود، له رشاقة الفهد وقوة عضلاته، كما له مرونة القِرَدَة وسرعة حركاتها.

قام بسيوني والفتى عبّود بنفس الرحلة إلى فيلا السنوسي بك، متتبعين نفس الإجراءات، مع زيادة بسيطة، وهي حقنة ذات غلاف أبيض باهت من عقار السكسونلكولين.

عندما دلف الفتي إلى غرفة السنوسي يتلَمّس مواضع أقدامه بحذر شديد، كان الأخير يَغُطُّ في نوم عميق بعد يوم عمل شاق، وبالرغم من ذلك نَثَرَ الفتى على أنفهِ جرعة من الغاز المخدر حتى يضمن عدم استيقاظه، وبأصابع خبيرة دهن بعضا من مخدر موضعي، ثم غرس إبرة المحقن في وريد ناتئ على ظاهر يده اليسرى، وأفرغ محتوياتها، ومسح أثرها جيدا، وانطلق بخفة الفهد كما جاء مرورا بالحديقة.

حانت من عبود التفاتة إلى تمثالِ مرمري محطَّم الذراع في الحديقة، ظن أنه أحد الأشخاص ينظر إليه، فجمد الدم في عروقه وتوقف لبرهة، لكنه سرعان ما تبين له أنه تمثال، وارتسمت صورة التمثال في ذهنه مرتبطة بلحظة الرعب التي مرت به، ثم أكمل طريقه إلى الخارج.

ما إن قفز عابرا فوق سياج الحديقة ولامست قدماه إفريز الشارع، حتى تلفت حوله يُمْنَةً ويُسرةً، فلم يجد أثرا لبسيوني كأنما انشقت الأرض وابتلعته.

اعترت عبود رعشة، وزاد خفقان قلبه، لأنه لا يدري أين هو ولا يدر كيف يعود إلى المقر، وليس لديه ما يثبت شخصيته.

دارت الدنيا من حوله، ومرت لحظات من القلق والتوتر كمن ينتظر حكما بالإعدام أو البراءة، وبينما هو في ذهوله، لمح سيارة بسيوني تتوقف إلى جواره، وتمتد يد بسيوني لتجذبه من ملابسه إلى داخل السيارة.

كان أول ما نطق به عبود في لهفة:

ـ أين كنت؟

ـ أثناء انتظاري لك حامت سيارة شرطة حول الفيلا، وخشيت أن يرتابوا في وقوفي بجوارها، فدُرت حول الحي إلى أن تنُهي مهمتك، وها قد عدت، فلا تقلق.
واقع الأمر أن بسيوني كان يرتعد خوفا أكثر من عبود عندما دارت حوله سيارة الشرطة، لكنه كان يخفي جزعه وخوفه خلف غلاف رقيق من الشجاعة ورباطة الجأش المزيفة، ثم انطلقت بهما السيارة تنهب الأرض عائدة بهم إلى المقر.

****

الاتفاق

كان الشيخ جالسا في مطعم أحد الفنادق الراقية، وإلى جواره أحد رجال الأعمال المشهورين يتناولان طعاما فاخرا.

كان الشيخ خبيرا في أنواع الطعام، خصوصا البحري منه، كما كان عليما بأنواع الكافيار الفاخر وطرق التلذذ به.

مد يده بأسلوب خبير للاستاكوزا اللامعة وكسر قشرتها، وأخذ يمتص ما فيها بنشوة وتلذذ ومبررا استعمال يديه في تناول الطعام عوضا عن استخدام أدوات المائدة قائلا:

ـ هذا النوع من الطعام لا يمكن تناوله بأدوات المائدة، بل باليد مباشرة، ومجرد لمسه بأناملك يزيد من متعة تذوقه.

في حين كان رجل الأعمال لا يكفّ عن الكلام عن الأحوال العامة وحركة السوق، دون أن يكون كلامه محددا بحيث لا يؤخذ عليه.

انتهى الشيخ من طعامه، فسأله الرجل سؤالا مباغتا:

ـ أريد منك خدمة جليلة.

لم يتفوه الشيخ بأي كلمة، وإنما نظر إلى الرجل نظرة معبرة يحثُّه على الاستطراد، ولكنها حاسمة، واستطرد الرجل بنظرة من عينيه ذات مغزى يفهمه كلاهما جيدا قائلا:

ـ الشاكري باشا.

فقال الشيخ:

ـ مليونين

ـ (تمام)

بعدها تنفس الرجل الصعداء وقال:

ـ متى؟

ـ بعد إيداع المبلغ بأسبوع.

أومأ الرجل بالموافقة، لكنه استدرك قائلا:

ـ أريد عملية نظيفة لا يصلني رذاذها لا من قريب ولا من بعيد.
قطب الشيخ جبينه ممتعضا، قائلا:
ـ هذا الشيء خارج المناقشة.
شعر الرجل بالراحة وأخذ بيد الشيخ يسيران الهُوَينى في حديقة الفندق، ويتحادثان في أمور عامة كأي صديقين.
قال الرجل بأدبٍ جمٍ معتذرا قبل إبداء السؤال:
ـ مما سمعته يا شيخ أنك تدرِّب رجالا لا يخافون الموت ويقتلون من دون رحمة، فعلامَ تدربهم وكيف تسيطر عليهم؟
قال الشيخ:
ـ هذا موضوع طويل، لكنني أختصره لك في كلمتين، الطموح أو الحاجة.
ثم استطرد، الطموح هو ما يجعل العظماء عظماء، وهو ما يجعل الزعماء زعماء، وهو ما يجعل القَتَلة قتلة، هناك قتلة يقتلون بلا دافع إذا توفرت لهم الظروف سوى أن يثبت لنفسه أنه قادر على القتل، وهؤلاء أُناسٌ عاديون تماما، قد تجد أمثالهم في شركاتك وبين موظفيك لا يبدو عليهم أي من الظواهر الإجرامية، وهم عادة ذوو ذكاء مرتفع.
إذ يكفي أن توفر لمثل هذا الشخص الظروف الملائمة حتى يقوم بالمهمة كما تريد، ومتى ما فعلها مرة أصبح أسيرا لك، وهناك من القوم من يستعذبون العبودية ويقنعون بها عن كل ما عداها.
أما الحاجة فتدفع الناس إلى فعل مالا يظنون أنهم قادرون على فعله ويظنون أنهم بعيدين كل البعد عن تلك الأخلاق التي يترفعون عنها في حال الاستغناء.
ـ فمن أين تأتي بهؤلاء؟
ضحك الشيخ وأردف قائلا بحركة مسرحية مميزة الجملة المشهورة لبطل أفلام جيمس بوند:
ـ لو أخبرتك لاضْطُرِرْتُ إلى قتلك!

تكلف رجل الأعمال ضحكة باهتة وعالية النبرة، ليواري رعدة خفيفة اجتاحته عندما نظر في عيني الشيخ، وهو يلقي بهذه الجملة.

قال الرجل:

ـ إذا سمحت لي سؤال أخير، ألا تخشى أن يفشي سرّكَ عملاؤك؟

فقال الشيخ:

ـ لكأنك تسأل عن نفسك، دعني أذكر لك أنك منذ سبعة عشر عاما، وفي بداية حياتك المهنية حرّضت على قتل شريكك في تجارة الموالح، وقُيِّدَت القضية ضد مجهول، واستوليت على نصيبه بثمن بخس من ورثته، فضلا عن التلاعب في أوراق الإفراجات الجمركية عن بضائعك الآن ومخالفتها لأوراق بوالص الشحن و....

لم يدعه الرجل يكمل، وقال له:

ـ إذن لقد تحريت عني؟

فقال الشيخ بلهجة الواثق:

ـ عفوا أنا لا أتحرى، إنما أجمع الأدلة التي تُدين من يطلبون خدماتي حتى من قبل أن يطلبوها.

شعر الرجل برعب شديد، ولولا أنه مر بمواقف عديدة سابقة لما بدا رابط الجأشِ أمام الشيخ، وَلَهانَ عليه أن يُطلق ساقيه للريح، لكنه تمالك نفسه بصعوبة وقال للشيخ:

ـ إذن فقد اتفقنا.

قال الشيخ بابتسامة عريضة والبِشْرَ يطفح من وجهه:

ـ اتفقنا.

****

الأنفس الْمُستَباحة

في الصباح الباكر كانت الشوارع شِبه خاوية إلا من بعض الكلاب الضّالة ورذاذِ خفيفِ من المطر يتساقط على زجاج النوافذ، محدثا صوتا رتيبا، توقفت سيارة سوداء قديمة الطراز أصابتها الخدوش في جوانبها وتحمل لوحات صَدِئَة، ولا تبدو أرقامها جيدا إلا لمن يحدَّق فيها عن قرب، زحَفَت إلى جانب الرصيف ببطءِ، ثم توقفت أمام الباب الخلفي لأحد المستشفيات العامة، وانفتح باب السَيارة الخلفي، وبرز منه رأس امرأة في عقدها الثالث، تمسك بمهدِ فارغ.

ما هي إلا لحظات حتى خرجت من باب المستشفى إحدى السيدات ترتدي زي الممرضات وتحمل بين ذراعيها ما بدا أنه طفل حديث الولادة، قذفته داخل المهد الذي تحمله المرأة بسرعة كأنما تقذف كرةً من القماش غيرَ عابئة بِعَويل الطفل ولا صراخه، وتقدمت إلى جانب السائق الذي دسّ في يدها رزمة من النقد، وانطلقت السيارة والممرضة كلٌ في طريق.

في اللحظة نفسها، كان صراخ إحدى السيدات في عنبر الولادة يشُقّ عنان السماء، بحثا عن وليدها المفقود.

وصلت السيارة إلى مُبتغاها أخيرا، مبنى عتيق ذو أسوار شاهقة كان فيما سبق قصرا مهجورا لأحد الباشاوات اشتراه الشيخ.

بالرغم من اعتبار هذا القصر وتسجيله أثرا تاريخيا، لكن الشيخ استطاع تسوية الأمور، ثم رمَّمَه من الداخل فقط، وتركه من الخارج مُهْتَرِئا ينبئ فقط عن أيام العزِّ التي مرت على القصر وساكنيه، قبل أن يهجره أصحابه.

قام الشيخ بترميم القصر من الداخل، وأعاده إلى طبيعته الأصلية حتى أنه استقدم عمالا مَهَرة من خارج البلاد، واستعان بالرسوم الأصلية للقصر.

انفتحت البوابة الحديدية الثقيلة ذات الزخارف السوداء اللامعة، ودخلت السيارة بعد أن ألقى الحارس نظرة فاحصة بداخل السيارة، وسمح لها بالمرور.

نزلت السيدة تحمل الطفل وقد هدأ صراخه، بعد أن حصل على وجبة من الحليب أثناء الرحلة، وصعدت الدرج قفزا، وقامت بتسليم الطفل إلى سيدة

أخرى ترتدي زيا كلاسيكيا، وقد اكتسى وجهها بملامح عسكرية، ويبدو عليها الصرامة والحزم.

دخلت أمينة ممسكة بالمهد إلى غرفة الأطفال حديثي الولادة، ووضعته في سرير فاخر بين خمسة أسِرّة في الغرفة نفسها، ينام عليها أطفال في العمر ذاته تقريبا.

كانت الغرفة تشبه أي غرفة في بيت من بيوت الطبقة الأرستقراطية مُرَتَّبَةً بعناية، ولها نوافذ عالية تغطيها ستائر داكنة أنيقة.

باختصار، كان المكان يشبه مدرسة إنجليزية أرستقراطية داخلية عريقة، وهي بالفعل كذلك.

كان الأطفال يتلقَّونَ تعليما راقيا في هذا القصر، ولا يعرفون أبَا ولا أمّا سوى العاملين في القصر والمدرسين، وكان المنهج يشمل جميع نواحي الحياة، وقد تم إعداده خصيصا لهذه المدرسة من قبل خبراء متخصصين في التعليم الخاص.

كان المدرسون يغرسون في الأطفال أنهم مميزون وأنهم أفضل من الأطفال الذين يتربون ويتعلمون خارج القصر، حيث الفوضى وعدم الالتزام، وحيث يفرض الوالدان تعاليم وأوامرَ على أطفالهم، كلٌّ حسب تعليمه وثقافته، إنما النظام داخل القصر أفضل من ذلك بكثير.

******

غُرست القيّم التي يتلقاها الأطفال في تلك البيئة غرسا لا سبيل إلى تغييره، بل إنهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنهم طبقة أفضل ممن بالخارج ممن لديهم آباء أو عائلات تفرض عليهم التزاماتِ شتى، في حين أن كل مُتَعِ الحياة متوافرة لهم داخل القصر، بشرط الطاعة التامة للمعلمين والمربيات، والذين يدينون بدورهم بالولاء والطاعة التامة أيضا للشيخ الكبير.

وقد أُعطوا أسماءً وهمية، وقيل لهم إن أهاليهم قد قَضَوْا في حوادثَ مرورية، ولم يتبق لهم إلا الشيخ الذي تبناهم.

كان هؤلاء الأطفال يتلقون تعليما راقيا حتى دخول الجامعات الخاصة، إذ لم يكن مقررا لهم دخول الجامعات العامة، وكان الشيخ يتولى كل الإجراءات التي تيسر ذلك.

كان الفتية يحصلون على وظائفهم فور تخرجهم، وكان الشيخ مستفيدا من علاقاته المتشعبة في المجتمع المخملي، يُوْلِي اهتماما خاصا بالإعلام، فكان كثير من فتيانه إعلاميين مرموقين يستطيع من خلالهم توجيه قطاع كبير من الرأي العام لمن يشاء، أو بالأحرى لمن يدفع.

كان لدى الشيخ نوعان من الأدوات البشرية كما كان يطلق عليهما:

الفريق الأول هو فريق الإعلاميين وذوو المواهب الإدارية، وكانوا من خريجي هذه المدرسة الذين يتربون ويتعلمون تحت إشرافه المباشر، وكانوا يدينون له بالولاء المطلق. ولما كانوا لا يتمتعون بأي علاقات اجتماعية أو صِلات قُربى تربطهم بالمجتمع - سوى فيما بينهم - فلم تَكُ تعني لهم قِيَمِ المواطنة والانتماء أي شأن.

كانوا يدافعون باستماتة عن جماعات الأعمال والسلطة، حسب توجيه المايسترو القابع خلف الكواليس، أو ما كانت أماني العادلي تسميه القابع خلف "الكوابيس".

أما أدوات التنفيذ الميدانية فكانوا من شاكلة عبّود وجماعته الذين ليس لهم من يفتقدهم إذا اختفوا من على مسرح الحياة المزدحم بأمثالهم ممن لا يُؤْبَهُ لهم.

*****

الحشيش

كان الشيخ جالسا في الصالون الاجتماعي لأحد النوادي الرياضية مع مدكور بك يتجاذبان أطراف الحديث في ألفة ومودة ظاهرة، فقد كانا يتوافقان في كثير من الاهتمامات والهوايات.

قال مدكور بك:

ـ هل سمعت أن ابن سيد بك قُبِضَ عليه وهو يحاول شراء مخدرات في أحد الطرق الصحراوية؟

ـ نعم سمعت ذلك أيضاً.

ـ ما الذي يدفع مثل أولاد سيد بك للتعاطي، وقد تربَّوا بطريقة جيدة في وسطٍ راقٍ ودخلوا أفضل الجامعات؟

ـ يا مدكور بك لا تستطيع فصل طبقات الشعب من الاحتكاك المباشر، وكثير من التغييرات الاجتماعية في فترة السبعينيات والثمانينيات مع فوضى الانفتاح صنعت نوعا من الخلط بين طبقات المجتمع، فقد صعد أقوام من هامش المجتمع إلى قمته، وصحبوا معهم عاداتهم الاجتماعية التي توارثوها، ولم تفلح القشرة الرقيقة من التحضر في إخفائها، كما أن الوسط الراقي والبيئة الْمُترفة لا يمنعان الانحراف، بل قد يكونان سببا فيه.

ـ هل ينطبق هذا على كل رجال الأعمال الذين ظهروا في تلك الحقبة؟

ـ كلا بالطبع، لكن غالبية الجدد كذلك.

ـ أليس للإعلام والفنون دور في زيادة التعاطي؟

ـ نعم لهما دور، ثم إن الحشيش أو المخدر له أشكال متعددة، وليس فقط ما يستنشقه الناس أو يتعاطونه في الأوردة أو الأنوف، إنما وسائله متعددة منها الإعلام - كما تفضلت - الذي يبث كل أنواع المخدرات ليل نهار من أفلام ومسلسلات وأخبار مفتعلة، وأخبار خارجة عن سِياقها، وموظفة بشكل ممنهج لتغير من العادات والسلوكيات الاجتماعية لخدمة أهداف بعينها وبرامج جماهيرية، حتى برامج الطبخ لا تسلم من جرعتها التي تدفع قيمتها الشركات

المنتجة للأطعمة، والتي يحرص مقدمو البرامج على إبرازها واستخدامها في الوصفات التي يقدمونها، ومعظم الناس يتأثرون بهذا الحشيش.
أما ذوو المناعة منه، فهما قسمان، أحدهما نستميله ليكون معنا، وهم لديهم استعداد فطري لذلك، أما من لا يتوافر لديه الاستعداد أو القناعة ليكونوا معنا، فهؤلاء لا سبيل إلى التعايش معهم مطلقا، ولا نبذل أي جهد في الاتفاق معهم، إنما نحاول إقصاءهم أو تصفية المشاغبين منهم إذا لزم الأمر.
اعتدل مدكور بك وأخذ رشفة طويلة من كأس العصير التي أمامه، وسأل الشيخ قائلا:
ـ ما هي الحقيقة؟
قال الشيخ بابتسامة واسعة تطفح سخريةً وتهكما:
ـ هي وهمٌ يتسبب فيه الحشيش الرديء، وكل ما نتعاطاه كما ذكرت وهم نحبه، وتغمرنا الراحة كلما اعتبرناه حقيقة.
ـ وما الفرق بين الحشاشين والسّاسة؟
قال بابتسامة واسعة:
ـ الساسة لا يتعاطون، ومع ذلك يا أخي يريدوننا أن نصدقهم!
تبسم مدكور بك، ثم أردف:
ـ إنهم يقولون إن تعويم العملة ضروري للاقتصاد.
ـ هؤلاء مجانين.
ـ إن لديهم شهادات دكتوراه من جامعات عريقة.
ـ إذن مجانين رسميا.
ضحك مدكور بك طويلا لهذه الطرفة، ثم تمالك نفسه سائلا:
ـ ماذا عن الإعلام؟
ـ لي بعض العناصر فيه.
ـ هل يعني ذلك أنك تتحكم في الإعلام؟

ـ لا بالطبع، لأنه أكبر من أن يتحكم فيه شخص أو أشخاص ولا حتى مؤسسات، ولكن يكفيك من الماء ما بلَّغَك الأمان، وأنا أعرف حدودي جيدا، ولا رغبة لي في تجاوزها.

ـ تعجبني رؤيتك الثاقبة، بالرغم مما تقوم به.

ـ المعرفة أساس القوة.

ـ وما علاقتك بما يسمى التيار الإسلامي؟

ـ واقع الأمر أنهم قومٌ أغرارٌ لا يفهمون شيئا في السياسة، لم يُحسنوا تقدير حجمهم ولا معرفة مقدار تأثيرهم قط، وأقصى ما يستطيعون هو بعض الخدمات الاجتماعية التي قَصُرَت فيها يدُ الدولة، فيحصلون على بعض الشعبية من خلالها، وهم يصدِّقون من دون تمحيص، ويقبلون من دون تحرٍ، وتستطيع خداعهم بكل سهولة.

ـ كيف وهم متميزون علميا وخلقيا، وهم بلا شك أذكياء؟

ـ هناك فرق بين الذكاء والفِطنة.

ـ كيف؟

ـ هناك قول لعمر بن الخطاب ـ وأنا أعتبره سياسيا داهية ويعجبني الكثير من أقواله ـ، يقول: "لست بالْخِبِّ والْخِبُّ لا يخدَعُني".

ـ وما معنى الخب؟

ـ الخب هو المخادع، ويقصد أنه يفهم الخديعة، لكنه يترفع عن أن يَخْدَع أحدا، هؤلاء القوم دائما وأبدا يُخْدَعون ولا يتعلمون.

ـ أليس هناك أي تعاونٍ معهم؟

ـ واقع الأمر أنه ليس هناك وجه للتعاونِ معهم، فمصالحنا لا تتقاطع، ولكن قد تَتَماس معهم، وأجد فيهم ميلا غير مفهوم للترفع عن إظهار علاقتهم بي.

ـ فما بالك تلتقي بهم بين الحين والآخر؟!

ـ أنا أحتفظ لنفسي بخيوط مع كل المؤثرين على الساحة، فلربما تخطئ الحسابات ذات يوم فيكون لي عندهم سابق معرفة، هم أو غيرهم.

ثم تطرق الحديث بينهم إلى العناصر التي يستعملها الشيخ لتنفيذ مآربه، وهنا سأله مدكور بك قائلا:
ـ ماذا لو تعرض أحد عناصرك للوقوع تحت طائلة القانون، أو خرج عن المرسوم له؟
ـ كل عنصر له حدود لا يجب أن يتخطاها، ولو حدث ما ليس في الحسبان، يحدث له أيضا ما ليس في حسبانه.
ـ ألا تربطك أي علاقة شخصية بأحد منهم قد تجعله في مأمنٍ من العقاب؟
اعتدل الشيخ واكتست ملامحه تعبيرات الجد والصرامة، وأجابه بصوت عميق النبرة:
ـ كل ما هو دوني أداة يستعمل لمهمة معينة، ولا أرتبط بأي علاقة شخصية بأي عنصر على الإطلاق، إنما هي علاقة احتراف فقط، لذلك لا تأخذني بهم شفقة أو رحمة إذا ما بدا على أحدهم التجاوز أو حتى التراخي في أداء ما يكلف به.
ـ ما هذه القسوة؟
ضحك الشيخ ملء فيه وهو يستمع إلى هذه الكلمة، ومال إلى الخلف قائلا:
ـ ليست هناك أي قسوة في ذلك على الإطلاق، بل القسوة تكمن فيما إذا تركت أحدهم يكون سببا في إلحاق الأذى بي أو بعملي؛ وهم بالنسبة لي مجرد وقود في سيارتي يدفعها إلى الأمام، ويخرج كالعادم من الخلف.
ـ لماذا لا يستخدم عملاؤك القانون لفض منازعاتهم؟
مال الشيخ بمقعده إلى الخلف، وارتسمت على محياه علامات الزهو قائلا:
ـ أنا القانون.
كان الشيخ يعرف أن هذه الأسئلة ليست مما يشغل بال الرجل، لكنه عرف بفطنته أنه مكلَّفٌ بطرحها عليه والحصول على إجابات، ليرفعها لذوي الشأن، فحرص الشيخ على توضيح موقفه جيدا، وقد كان ما توقعه الشيخ صحيحا، إذ فتحت له الأبواب الموصدة مرة أخرى على مصاريعها، وقد استوعب الأمر تماما.

الذي لَفَتَ مدكور بك في حديث الشيخ أنه كان يصف ما يقوم به تماما، وليس هذا انفصاما في شخصيته أو نوعا من الإسقاط النفسي، بل هي قشرة زائفة يتحصن خلفها، وجزء أساسي من طبيعته الشخصية التي يدركها تمام الإدراك، وهو يدور مع المصلحة أينما دارت.

لذلك كان مدكور بك يعجب أيما إعجاب بالحرفية العالية للشيخ وسعة علمه ودرايته، بغضّ النظر عن أخلاقية التطبيق أو عدمها.

ويعتقد مدكور بك أن استمرار الشيخ في عمله لفترة زمنية طويلة من علامات احترافه وقدرته على مواكبة التغييرات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع، مما جعله من أهم أدوات العصر.

******

السابق فائز

دار الحوار التالي بين الشاكري وعباس الدوسي صديقه وشريكه، فقال الشاكري:

ـ أتدري أن وجود هذا الرجل من علامات زوالِ الدول؟

ـ تقصد الشيخ مسعود؟

ـ ومن غيره؟

ـ كيف؟

ـ عندما تلجأ النخبة إلى وسائل غير مشروعة لتنفيذ أهدافها، فهي لا تستحق وصف النخبة، وهذا يعني لديها أن الخاص قد تغلب على العام، بل وأزاحه تماما من دائرة الاهتمام، فلن يتبقى إلا أن تبدأ الغوغاء في البحث عن مصالحها، محطّمةً في سبيلها الصالح والطالح كالسيل الجارف، ولا شيء لديها لتخسره، وهذا من قِصَر نظر تلك النخبة، كانت الناس فيما مضى ترتكب الجرائم للحصول على القوت، ثم تطور الأمر للحصول على المسكن، وتلاه الرغبة في الحصول على الأمان النفسي والذُّرِّيَّة، فأصبحت ترتكب الجرائم، لذلك وبعد أن تحقق ذلك للإنسان، أمسى يقتل للمتعة المعنوية.

ـ هل هناك من يقتل للمتعة؟

ـ نعم... ألا ترى أولئك الذين يقتلون الشعوب في حروب عبثية للمجد فقط، هؤلاء يبحثون عن متعة ذهنية ومجد زائف يبذلون في سبيله دماء الآخرين وأقواتهم، ويعتبرهم العامة أبطالا.

ـ هل من الممكن أن يؤدي استئثار النخبة واستخدامهم وسائل العالم السفلي إلى اختلاط الأمور، مما يؤدي إلى حدوث تمرد أو ثورة جياع أو احتراب داخلي.

ـ أنا لا أعتقد أن يكون هناك احتراب بين عامة الناس، لأن المصريين شعب متجانس، برغم الفوارق الشاسعة بين الطبقات واختلاف الرؤى والأفكار وحتى الألوان، وهو شعب لديه قدرة عجيبة على امتصاص الأجناس الذين يذوبون في بوتقته العميقة، وإذا تتبعت أصول بعض العائلات ممن يتحدثون اللهجة القاهرية بكل إتقان، فَلَسَوف تجد من تنتهي جذوره إلى المغرب أو الشام وشبه

الجزيرة، بل وحتى من اليونان والطليان وغيرهم من أمم الأرض وشذاذ الآفاق، ومنهم الصالح والطالح الذين أصبحوا مصريين قلبا وقالبا، أما عن الأفكار، فأنت تجد في العائلة الواحدة الملتزم بتعاليم دينه، والعلماني، وحتى الملحد الذي قد لا يكتم إلحاده، وإذا توسعت العائلة قليلا تجد الضابط كما تجد اللص وتجد الأشقر والأسمر، وهم لا يعرفون العنصرية كما تعرفها الشعوب التي تدَّعي التمدن، ولا يمكنك أبدا تخليص هؤلاء وفرزهم، بالرغم من الشروط الصعبة للانخراط في بعض المهن، فالشعب ابتكر طرقه للقفز فوقها.

كان الشاكري باشا يعاني معاناة شديدة من أحد منافسيه، ولم تفلح كل الوسائل في التخلص منه ولا حتى استمالته أو استرضاءه، وقد طرح عليه صديقه عباس الدوسي أن يستعين بخدمات الشيخ مسعود، لكن الشاكري باشا كان يمقت الشيخ مسعود مقتا شديدا، ويعُدُّه من علامات الساعة.

لكن في النهاية، وبعد أن فشلت جميع الوسائل في التخلص من منافسه أو حتى تحييده، خضع رغما عنه لنصيحة صديقه وشريكه عباس، وسأله بعد أن وافق على مَضَضٍ:

ـ كيف تتيقن من أن هذا الشخص أهل لذلك؟

ـ ليس هناك يقين تام في الحياة، إن اليقين هنا كما لو كنت تحاول إصابة هدف متحرك بـ "نبلة" لكنه أفضل الحلول المتاحة.

ـ لست أدري كيف يتمكن هذا الرجل من القيام بهذه الأعمال دون أن يقع تحت طائلة القانون، أتظن أن هناك من يقف وراءه؟

ـ أنا أظن أنه أداة.

ـ في يد من؟

ـ لست أدري!

وبينما هما يتحدثان، سُمِعَ صوت دوي عميق كأنه قَصْفُ الرَّعود أو نفخة الصور، فأثار الفزع في نفوس الحضور، لدرجة أن كأس العصير التي كانت بين أنامل

الشاكري انسكبت فوق ثيابه من هول الصوت، وراح الخدم يتخبطون لا يَلوي أحدهم على شيء، في محاولة لمعرفة مصدر الصوت أو سببه.
وفجأة صَمَتَ الشاكري وشَحَبَ وجهه، ثم سقط أرضًا مُضَرّجا بدمائه، دون أن يعلم أحد ما الذي حدث له.
لم يكن الشاكري يحمل لقب باشا بصفة رسمية، وإنما هو اسم أبيه، لكن هيئته المهيبة وطوله الفارع ووجهه المستدير الأحمر كقرص الشمس وصوته العميق الهادئ تسْبغ عليه هيئة الباشا بشكله التقليدي الذي غرسته السينما في وجدان الناس.
كان لا يسير إلا محاطا بعدد من حراسه الشخصيين الْمُدَجَّجِين بالسلاح، والمدربين جيدا على الحماية الشخصية، لكن هؤلاء الحراس لم يحسبوا حسابا لموظف الصالة الذي أخفى سلاحا حادا تحت طيّات منشفة حمراء قانية أسْدَلَها بعناية فوق ذراعه أثناء تقديم الطلبات للشاكري وضيفه، وانتهز فرصة الصوت الرهيب الذي أحدثته قنبلة صوتية، ليُشَتِّتَ انتباه فريق الحراسة المكلف بحماية الشاكري باشا، ليغرس ذلك السلاح بيد خبيرة حتى مقبضه أسفل إبط الشاكري ليخترق الضلوع ثم الحجاب الحاجز والتامور، وصولا إلى قلبه، كأي جرّاح ماهر، ثم يَسْتَلَّه سريعا ويمضي مهرولا كمن أصيب بالرعب تجاه الصوت، ثم يذوب في طوفان البشر الذين غادروا المكان لا يلوي أحدهم على شيء.
لم يكن ذلك الفتى إلا أحد فتية الشيخ مسعود، بعد أن تم تكليف الشيخ مسعود بالتخلص من الشاكري من قِبَلِ أحد منافسي الشاكري باشا الذي كان محور الحديث بينه وبين صديقه عباس الدوسي قبل سقوطه ميتا.
****

المواجهة

كان الدكتور غيث يعتقد أن الشيخ مسعود شخصية سَيكوباتية من أولئك الذين يتلذَّذون بتعذيب الآخرين، وليس لديه مراكز للحس أو الشعور في جسده على الإطلاق كبقية الخلق.

لكن الدكتور غيث لم يكن يجهر برأيه هذا ولا لأقرب المقربين إليه، خشية أن يصل الخبر إلى الشيخ مسعود، فيضعه في قائمة الْمُنتَهِيَة صلاحِيَّتَهم، إنما كان يذكر هذا الرأي بصوت عال أقْربُ إلى الصِّياح والنواح عندما يكون منفردا في بيته، ويلوِّح بيديه يمينا وشمالا كأنما يخاطب شخصا آخر، ليُفرّج عن نفسه قليلا مما يشعر به من آلام نفسية، لما يعلم أن ما يكلفه به الشيخ مخالف للطبائع السوية.

وكان الدكتور يقوم بهذه الطقوس عقب كل عملية يقوم بها، حتى لقد أصابه الشك في قواه العقلية، لكن الحقيقة أن هذه الثورة والصخب اللذين كان يقوم بهما يفرجان عنه ما يعاني من آلام نفسية يحاول إزاحتها عن صدره المفعم بها.

شعر الشيخ أن الدكتور غيث أصبح كالبَثْرَة التي لا تشْفى في ظهره، بعد أن زادت وَتيرة الأخطاء المهنية التي يرتكبها، خصوصا في العمليات الأخيرة، لذلك قرر أن يتخلص من هذا العبء، وأعدَّ لذلك العُدَّة جيدا، وأزْمَعَ أن يضع مساعده مكانه، وقد عَرَفَ كيف يستَقْطِبُ المساعد الذي رحب بهذا أيَّمَا ترحيب.

بمجرد أن بدأت الإيماءات من جانب الشيخ للمساعد لقي استجابة كبيرة منه ليحل محل الدكتور غيث، لكن الدكتور لم يكن بهذه السهولة لكي يترك مكانه طوعا لذلك المساعد التافه في نظره، والذي كان يصفه بأنه كاللصقة لا يستطيع منها فَكاكا.

كان الشيخ يضع لكل عنصر من عناصره المهمة مساعدا يتوسّمُ فيه الذكاء والألْمَعيّة والقدرة على القيام بمهام الوظيفة كنظام فعّال للتوريث، مع الحفاظ على الكفاءة في حال خلو الوظيفة لأي سبب طارئ، وخلال الفترة الماضية حَذِقَ المساعد كل مهام الدكتور غيث، وساعده على ذلك تكاسل الدكتور عن كثير من

العمليات، بسبب سهره الطويل ونومه حتى ما بعد العصر يوميا، وقد أراحه قيام المساعد بعمله، وكان يظن أن الشيخ راضٍ عنه لقيامه بمهامه كما ينبغي، غير أن الشيخ الذي لا تفوته شاردة ولا واردة كان يعلم ذلك جيدا، وأن الدكتور غيث أصبح في الفترة الأخيرة لا يعمل شيئا، إلا أن يزود المساعد بالتعليمات، فأوحى إلى المساعد أن يتقن جميع الأعمال في انتظار حصوله على مكان الدكتور.

أدرك الدكتور بحسه وذكائه أن الشيخ يخطط لاستبعاده، أو حتى التخلص منه بنفس أسلوب التخلص من أهدافه.

كان الدكتور تَحَسّبا لهذا الموقف يسجل كل العمليات التي يقوم بها في مفكرة ورقية خاصة - إذ لم يكن يتعاطى مع التقنيات الحديثة، ولا يثق إلا فيما يخطه بيده - وقد دوّن فيها كل العمليات التي نفذها وأسماء كل الشخصيات الذين تخلص منهم الشيخ مسعود.

كان يدوِّن أمام كل ضحية منهم الطريقة التي تم بها التنفيذ والمواد المستخدمة والجرعات، وكان يحتفظ بهذه المفكرة في مكان أمين لا تسقط عليه أعين رجال الشيخ مسعود الذين كانوا يحصون عليه خطواته.

كان الدكتور من الذكاء بحيث يضمن لهذه المفكرة أن تحفظه في حياته من أي محاولة للشيخ للتخلص منه، ولم يكن الهدف الأصيل لها أن تورط الشيخ مسعود، بعد أن يلقى الدكتور حتفه، إذ ليست هناك فائدة من انتقام الأموات، لكنه على أي حال كان هدفا ثانويا، وقد صنع منها نسختين، وكان يتحين الفرص لكي تصل تلك المعلومة بطريق غير مباشر للشيخ حتى يأمن جانبه.

*****

اللقاء العاصف

توقفت السيارة الفارهة أمام أحد "الشاليهات "في منتجع ساحلي فاخر، ونزل منها الدكتور غيث متقدما ببضع خطوات عن دليله، وبدا أن الدكتور يعرف طريقه جيدا، فقد كانت تلك الزيارة تلبية لدعوة مفاجئة من الشيخ مسعود للدكتور على الغداء في ذلك المنتجع.

كان الشيخ جالسا يتحدث مع أحد الرجال الذي توارى عن الأنظار بمجرد أن لمح الدكتور يتقدم ناحيتهما.

صافح الدكتور غيث الشيخ مسعود الذي لم يهُبّ قائما لتحيته ككل مرة يلتقيان فيها، وبدا عليه عدم الاهتمام بحضوره، إذ انشغل في محادثة طويلة على المحمول، وبدا أنها غير مهمة، لكنها أعطت انطباعا للدكتور أن هذه المقابلة الفاترة لها ما وراءها.

وزاد ذلك من امتعاض الدكتور، وأخذ يقلِّب الرأي في رأسه مرات عدَّة علَّه يُفلح في معرفة سبب هذه الدعوة الطارئة والمفاجئة، وأثاره فتور المقابلة وتجاهل الشيخ لوجوده كل تلك الفترة، وكانت تحدثه نفسه أن يوجه لكمة لوجه الشيخ الأحمر اللامع الذي بدا له مستعدا لتلقِّيها، أو أن يضع سكين الفاكهة المدبب في مُقلة الشيخ ويدوِّرَها في مِحْجَرِها، لكنه كان يطرد هذا الخاطر فورا، لعلمه أنه لا يستطيع تحمل تبعاته، وإن كان لا يزال صدغ الشيخ الطري اللامع يغريه بهذه اللكمة.

فجأة، أقفل الشيخ هاتفه المحمول ووضعه جانبا بحركة عصبية، والتفت إلى الدكتور قائلا بغضب:

ـ أنت تسجل عملياتنا؟

الدكتور مبديا دهشته وعدم علمه:

ـ أيَّ عملياتٍ تقصد؟

ـ اسمع، دع عنك المواربة والتجاهل، فنحن نعرف بعضنا جيدا، وتعلم أنني أحب المباشَرة في الحديث.

قال الدكتور:
ـ ألا تؤمِّن نفسك من عملائِك؟
ـ نعم.
ـ فأنا أيضا أؤمِّن نفسي.
ـ مني؟
ـ نعم.
ـ أنا انتَشَلتُك من الحضيض بعد أن أوشكت على الغرق!
ـ أنت انتشلتني من الأوشال لتلقي بي في عرض اللُّجَّة، وقد غرقت فعلا بفضلك.
ـ أنت تعيش في بَحْبُوحة العيش بفضلي.
ـ لولا مجهودي ومساعدتي إياك في أعمالك ما فعلت ذلك.
ـ اسمع، أنت تعلم أن علاقتنا متكافئة، ولابد من استكمالها حتى النهاية.
ـ لا مانع عندي.
ـ فتخلص من المفكرة ولا تكررها، وأعِدُكَ أن نستمر على تعاوننا.
ـ طالما أنك أثرت الموضوع، فالمفكرة هي التي تضمن لي ذلك التعاون.
ـ يبدو أنك لم تفهمني.
ـ بلى، أفهمك جيدا، لكن اعلم أنها ليست النسخة الوحيدة، ولا أحب أن تدخل معي في قبري، لكنها تؤمن لي الحماية.
وجد الشيخ أن الحوار دخل في طريق مسدود، فبدا لطيفا لوهلة، لكنه أضمر شيئا ما في تلافيف مخه، ولم يبد لذلك أثر على ملامحه، وقال:
ـ لكن كيف تضمن عدم وصول أحد آخر غيرك إليها؟
تنفس الدكتور الصعداء، وعلم أن الشيخ قد خَضع له فقال:
ـ اطمئن فهي في مكان أمين لا يعلمه أحد حتى الآن.
ازدرد الشيخ ما في كأسه من عصير بصوت مسموع، وبدت على أساريره علامات الراحة، وطلب الغداء.
******

الهدية

أهدى الشيخُ للدكتور غيث مسكنا أنيقا في أحد الأحياء الراقية الجديدة، بدلا من المسكن القديم الذي تهالَك بسبب إهمال الدكتور وعدم اهتمامه بتجديده، وفي جلسة خاصة أعطى الشيخ للدكتور المفتاح الجديد، مُهنئا له بالمسكن الفخم.

كان الشيخ قد زرع المسكن الجديد بأدوات التنصت وكاميرات المراقبة المخفية. وما إن دخل الدكتور إلى مسكنه الجديد، حتى انطلق رجال الشيخ إلى القديم يفحصونه جيدا، بحثا عن المفكرة، لكنهم لم يعثروا لها على أثر.

كان الدكتور قد ترك نسخة من المذكرة داخل جيب سري في صندوق مجوهرات عتيق مغلق لدى جارته، طبيبة المخ والأعصاب، التي زاملته أثناء الدراسة الثانوية، وهي من جِيْرَته القديمة وتحمل ودّا قديما له، مدعياً أن بها بعضا من آثار أمه الراحلة، وأنه يأتمنها عليها إلى حين طلبها.

****

المحادثة المجهولة

دقَّ جرس الهاتف الخاص بالشيخ مبكرا على غير العادة بعد الفجر بقليل، فالتَقَطَ الشيخ السماعة على عجل، وبشيء من اللهفة على غير عادته، ربما لأن المكالمة كانت مبكرة، وقطع عليه حبل استنتاجاته الصوت الغامض على الطرف الآخر من الهاتف يقول:

ـ أحتاجك بسرعة لمهمة عاجلة، سيارتي في انتظارك أمام البيت الآن.

كان الصوت الأُنْثَوِيُّ الرقيق حاسما، برغم رقته، ولم يترك فرصة للشيخ لكي يلتقط أنفاسه، ولا أن يتمكن حتى من سؤال صاحبة الصوت من تكون؟ ولا لأي شيء تريده، غير أنه رَمَقَ السيارة الفارِهة الرابِضة أمام المنزل بنظرة عاجلة من النافذة، وكان يتحرّق شوقا ليكتشف من هذه السيدة وماذا تريد، وقد تَغَلَّب فضوله على حذره، فارتدى ثيابه على عجل، ووضع بعضا من العِطر المميز له، وانتعل حذاءه وهو يخطو إلى الباب بخطوات واسعة، تدفعه اللهفة ويُغريه الفُضول.

كان السائق يرتدي زيا مميزا، ويضع في كفيه قفازا أبيض، ويتحدث بلهجة مهذبة، مما يدل على أن صاحبة السيارة من الطبقة الأرستقراطية، لم يحاول الشيخ سؤال السائق، أو حتى التحدث معه، فقد كان يعرف بالخبرة أن السائق لن يبوح بشيء.

اخترقت السيارة شوارع المدينة كأنها حيوانٌ مفترسٌ يلهَثُ خلف فريسة له، وخرجت إلى إحدى الضواحي الجديدة، ثم انعطفت إلى ممر خاص مرصوف بالحجر البازلتي الأسود المصقول، يحوطه من جانبيه صف من الأزهار العطرية التي تبث أريجها في جو المكان.

كانت السيارة تتأرجح قليلا بتأثير البازلت، ثم توقفت أمام بوابة حديدية ضخمة تعلوها أسِنَّة رُكِّبَت عليها تماثيل حديدية سوداء لامعة كأنها رؤوس الشياطين، تنتهي بحراب زرقاء مُسَنَّنة كأنياب أغوال.

فُتحت البوابة على مصراعيها، وما هي إلا برهة حتى وصلت السيارة إلى البوابة الداخلية، تشق طريقها وسط أحواض الزهور المنسقة بعناية.
توقفت السيارة على بعد خُطوة من درجات السلم المغطّى بطبقة رقيقة من البساط الأحمر.
نزل السائق مسرعا وفتح الباب للشيخ الذي نزل بتؤدة وتمهل، وانتصب واقفا أمام البوابة، فلمح من خلال الزجاج المعشَّق الملون ظِلَّ شبحٍ من خلفه، وما هي إلا لحظة حتى انفرج الباب عن سيدة ثلاثينية ممشوقة القد تسُدُّ فُرجة الباب، وقد ابتسمت للشيخ ابتسامة ذات مغزى، ورحبت به ثم سبقته إلى البهو، وتبعها الشيخ صامتا يتأمل في طريقه اللوحات التي صُفَّت على الجدران بذوق فني راق، حتى وصل إلى صالون باريسي رحب تتوسطه سيدة أخرى أربعينية ذات شعر كستنائي غزير وطويل، ممشوقة القوام، أنيقةً في غير ابتذال، محتشمةً في غير تزمّت، جالسة على أحد المقاعد تضع ساقا على الأخرى، ويبدو عليها أنها لم تتوقع استجابته الفورية لدعوتها.
ألقى عليها التحية وجلس غير بعيد منها.
ردت التحية ورحّبت به، وبدا صوتها مُتَهَدِّجا منهكا، كما لو كانت قد ظلت ساهرة حتى الصباح، ويلوح القلق على مُحَيّاها، وقد بذلت جهدا كبيرا لإخفاء توترها، لكنه كان جليا على قسمات وجهها وحركات أصابعها.
ازداد الشيخ تَوقا إلى معرفة من هذه المرأة وماذا تريد، لكنه كان بارعا في إخفاء مشاعره ولهفته، إلى حد أنه أثار إعجابها بثباته وعدم مبالاته بسبب الاستدعاء العاجل، فقالت على الفور:
ـ أريد منك خدمة جليلة، ولم يكن من الحكمة أن أذكرها عن طريق الهاتف، كما لم أستطع أن ألاقيك في مكان عام.
ازْدَرَدَ الشيخ ريقَهُ، وأخذ نفسا عميقا، ثم سألها بكل برود:
ـ وما هي الخدمة؟

صمتت المرأة طويلا كأنما تناجي نفسها وتقاومَ ترددها، ثم استَجْمَعَت قواها قائلة:

ـ أن تقتلني!

تغيرت ملامح الشيخ وارْبَدَّ وجهه فجأة، وقال بلهجة حاسمة دون أن يقوم من مقعده:

ـ لقد أخطأتِ الاختيار يا سيدتي، هل تأذنين لي بالانصراف؟

تجاهلت السيدة طلبه، ثم أردفت بنبرة عالية:

ـ نعم أريدك أن تقتلني شكلا وليس موضوعا، وأن تعرف الدنيا كلها أنني قد قُتِلت، وأظن أنك تستطيع تدبير هذا الأمر. ثم صمتت قليلا وأردفت، وتدبر لي سبيل خروجي من البلاد.

قال الشيخ بنظرة تشوبها السخرية:

ـ يبدو أنك تدمنين قراءة الروايات البوليسية الرخيصة.

ثم لبث برهة كأنه يفكر، ثم استدرك قائلا:

ـ ما هي مشكلتك؟ فلربما وجدت لك حلًّا أبسط من ذلك.

قالت في لهجة حاسمة:

ـ لم أطلبك لتضع لي حلولا، بل لهدف محدد، ولن أقبل بالرفض.

أثارته عجرفَتها وقوة شخصيتها، حتى أوشك أن يلبي لها ما تطلب في التوِّ واللحظة بسبب نظراتها النارية وعصبيتها، لكنه كان أكثر احترافا من أن يُستَثار بكلمة، إضافة إلى أنه أراد أن يعرف معلوماتٍ أكثر عنها وعن دوافعها لتطلب ذلك.

كان الشيخ ينتقي ألفاظه بعناية شديدة، وكان يتمتع بأسلوب راق في توصيل المعلومة حتى وإن كانت مؤلمة، وبالرغم من أن معظم عملائه كانوا من الأرستقراطية المالية فقط، فقد قفزوا على قمة المجتمع كالنباتات الطفيلية، ولم تكن تعنيهم كثيرا اللياقة ولا كياسة القول، ففي أحيان كثيرة كانت تتناثر من

أفواههم ألفاظ يتورع عنها السوقة، لكنه لم يكن يجاريهم في هذا قطٌّ، بل يحتفظ بكياسته ولياقته الاجتماعية في كل الأحيان.

قال الشيخ:

ـ دعيني يومين أو ثلاثة، أرى ما يمكنني عمله.

كانت نظرات السيدة النافذة تخترقه وكأنها تنظر إلى عقله من وراء سِتْرٍ رقيق، فقالت على الفور:

ـ لعلك تود التحري عني ومعرفة بعض المعلومات التي قد ترضي فضولك، أو لتعرف مع من تتعامل، ثم مدت يدها بذاكرة إلكترونية صغيرة ألقتها أمامه على الطاولة، فالتقطها الشيخ وقلّبها في يده بغير اهتمام.

قالت السيدة:

ـ في هذه الذاكرة سوف تجد كل ما تود معرفته، ثم أردفت: انتبه؛ هذه الذاكرة لن تعمل إلا لمرة واحدة، ثم تمحو ما بها من معلومات.

أصر الشيخ على هذه المهلة التي أعطاها لنفسه قائلا بحسم:

ـ إنه لمن كرمك أن توافقي على هذه المهلة.

ومن ثَمَّ وافقت السيدة على مَضَضٍ، وقالت:

ـ سأرسل لك السيارة في الوقت المناسب.

انصرف الشيخ يلملم أفكاره المبعثرة، حتى وصل إلى الفيلا التي كان يسميها "صومعتي".

كان الشيخ قد ترك هاتفه يسجل عنوان القصر الذي تقطنه السيدة، مستعينا بخدمة المواقع العالمية التي توفرها الهواتف الذكية، وما إن وصل إلى صومعته حتى كانت المعلومات عن أصحاب القصر وقاطنيه وعن السيدة ذات الشعر الكستنائي الطويل تتدفق إليه كالنهر الجاري.

*****

السيدة نوال

لم تكن السيدة نوال عبد المتعال من نجوم المجتمع المشهورين، ولم يتحدث عنها الإعلام مطلقا، لكنها كانت ذات حيثية عظيمة في المجتمع المخملي، وخصوصا لدى العائلات المالية الكبيرة، فقد كانت أرملة لرئيس مجلس إدارة أحد البنوك الكبرى، وقد تعرف عليها أثناء توليها إدارة أحد أقسام البنك المهمة، وبالرغم من حداثة تعيينها، فقد كانت كفاءتها عالية، ونسجت شبكة علاقات عامة في الأوساط المالية كافة تمكنها من تسوية أعقد وأعوص الأمور في لحظات، وأول عملية غير قانونية لها كانت بيع بيانات كبار العملاء في البنك لإحدى شركات أبحاث التسويق الدولية، التي حوّلت إليها أول مليون دولار دخل في حسابها.

ومن بعد تلك العملية انفتحت شهيتها لمثل هذه الأعمال، التي كانت تحرص على أن تتم دون أي أثر يربطها بها، وقد استولت على قلب زوجها وعقله، وقد فتح لها خزانة أسراره، ودرّبها على كيفية إدارة الصفقات الكبرى لمصلحة عملاء البنك، غير أنها بعد وفاته ابتكرت طرقا أخرى أخصبَ خيالا وأكثر إدرارا للأموال، حتى أنها ابتكرت وأضافت منتجات خدمية خاصة جديدة لمصلحة كبار العملاء، بل أحيانا لمصلحة عميل بعينه، وقد مكنتها لباقتها وخبرتها من أن تحوز ثقة كبار المودعين، وأن تتعامل باسمهم مع شركات المضاربة على الأسهم في معظم البورصات العالمية.

غير أن نوال لم تكتف بالعمولات التي كانت تنالها منهم، لأنها ازدادت جشعا، فكانت تحول أحيانا الأرباح كلها إلى حسابها الخاص، وكانت الثقة الممنوحة لها من العملاء تمكنها من ذلك، بالإضافة إلى قدرتها الخارقة على الإقناع.

لم تكن نوال سليلة أي من العائلات الكبيرة، لكنها استطاعت بذكائها وجاذبيتها وسرعة بديهتها اختراق الأوساط المالية بسرعة البرق بعد زواجها، وعرفت كيف تدير العمليات المصرفية الكبرى، وعرفت أيضا من يتحكمون في أوصال المجتمع المالي وكيف تستفيد من ثغراته، بل وأصبحت هي التي تدير البنك من خلال

زوجها في حياته، والذي بدا أقل منها قدرة على الاستفادة من أنهار الأموال التي تجري تحت عينيه.

وبعد وفاته المريبة، استقالت من العمل الرسمي، وأدارت أعمالها من قصرها في تلك الضاحية، وقد احتفظت بروابطها مع ذوي الشأن في الجهات المصرفية.

لكن ما لم تذكره السيدة أنها خَدَعَت مدكور بك، وحصلت منه على ما يقرب من ثمانين مليون دولار قيمة أسهم ومضاربات في البورصات العالمية، وكانت تحوِّل أرباحها لحسابها الخاص دون علمه، وأن هذا السر انكشف بمحض المصادفة لمدكور بك، وهو يطالبها الآن بتلك الأموال.

وقد خطرت في ذهنها تلك الفكرة الجنونية لكي تجعل من موتها سببا لطيِّ صفحتها مع مدكور بك وآخرين أقلَّ شأنا منه، ومن ثم تتمتع بأموالهم بعد مغادرة البلاد، ورتبت مع الشيخ كافة تفاصيل العملية أثناء زيارة الشيخ لها مرات عدة للاتفاق على التفاصيل وكيفية التنفيذ.

ـ كم تطلب عمولة على التحويل؟

قال الشيخ:

ـ خمسا وعشرين في المائة مقدما، بالإضافة إلى خدمة بسيطة من البنك الذي كنت تعملين به.

ـ وما هي الخدمة؟

ـ بيانات كبار العملاء التي أظن أن لديك نسخة منها.

ـ البيانات يتم تحديثها باستمرار، والنسخة التي لدي غير محدثة.

ـ ليس من الصعب عليك أن توعزي إلى أحد زملائك السابقين بإحضارها، أو إرسالها إلي مباشرة عن طريق البريد الالكتروني.

ـ ملفات البيانات في البنوك "أيها الشيخ" محمية، بحيث لا يمكن نسخها ولا إرسالها عبر البريد، لكنني سوف أحاول بطريقة أخرى.

ارتشفت قليلا من قدح القهوة، ومالت الى الخلف ناشرة غدائر شعرها الكستنائي على ظهر المقعد في خيلاء، ثم سألت الشيخ بنظرة ملؤها التحدي:

ـ وما هي الضمانات التي تقدمها؟
ـ لا توجد ضمانات، وأعتقد أن من أعطاك رقمي أطلعكِ على كيفية التعامل.
ـ أنا أتحدث عن ضمانات تحويل الأموال، وليس ضمانات التنفيذ، وكيف أضمن عدم حدوث ما يُعَرّقل التحويل؟
ـ تقصدين عدم استيلائي عليها؟
ـ شيئا من هذا القبيل.
ـ جهزي ما شئت من أوراق أو ضمانات، وسوف أوقعها لك عن طيب خاطر.
ـ كيف ستحول الأموال إليّ؟
ـ الكيفية مهمتي – قالها بنبرة حازمة - لكن سوف تكون في حسابك لدى وصولك إلى أوروبا، بعد خصم العمولة.
لم تكن السيدة نوال في وضع يسمح لها بفرض أي شروط، وكان الوقت يدهمها، فلم تجد بُدّا من الموافقة.
في إحدى الزيارات سألها الشيخ عن الدافع الذي جعلها تستولي على هذا المبلغ من مدكور بك دون علمه، لم تسأله من أين لك تلك المعلومات، فقد كانت أذكى من ذلك، وإنما ردت مباشرة ولكن بتأفف، قائلة:
ـ أتظن أن هؤلاء القوم يعرفون كم يربحون؟، معظمهم لا يعرفون حجم أموالهم بالضبط، ولا حجم أرباحهم، بالرغم من ذلك تجد أحدهم يدقق في "كوبونات" المحروقات التي قد يحصل عليها أحد السائقين بالتحايل، وقد يعاقبونه على عدم أمانته في ملء خزان سيارته الخاصة دون وجه حق من بنزين الشركة، لقد شاهدت أحدهم يفصل موظفا عمل في خدمته أكثر من عشر سنوات، لأنه كان يستخدم سيارة العمل لإيصال أولاده إلى المدرسة، فهؤلاء القوم ليست لديهم أي مشاعر أو أحاسيس على الإطلاق، بل كل ما لديهم هي حاجات ورغبات يجب إشباعها حتى التُّخمة، ومنها الرغبة في الاستحواذ على الأموال، ويتبجح أحدهم أنه بنى مدرسة أو مسجدا أو كنيسة، وقد لا تصل كل تكاليفه إلى نسبة عشرية من أرباح أحد مشروعاته الصغيرة.

ـ أرى أنكِ – مع احترامي – قالها بطريقة مسرحية، تحقدين عليهم. لأن الخطأ يظل خطأً صَغُرَ أم كَبُر.

احمر وجهُها ولمعت عيناها، وارتفع صوتها قليلا وردَّت في تحدٍ قائلة:

ـ نعم أنا أمقُتَهم وأحقد عليهم، وأنا لم أتحايل إلا على هؤلاء، فالبنك يَعِجُّ بالعملاء الكبار، لكنني لم أخْتَر إلا من كانوا أهلا للعقاب.

اعتدل في جلسته ليواجهها قائلا بابتسامة واسعة ماكرة ونظرة نافذة وبصوت بارد:

ـ وهل أنت مبعوثة العناية الإلهية للقصاص منهم؟

ـ لا أنكر أبدا أن لديّ دافعا شخصيا في الانتقام من هؤلاء، لكنني أعتقد بأن الأمر خاصّ بي، ولا أحب مناقشته مع أحد.

ـ أنا منبهرٌ بطريقة إدارتكِ لعملائكِ وإقناعهم بالتعامل معك، لكنني لا أفهم الكيفية.

أصابها الغرور من مديحه لها، فتقمصت دور الحكيمة المجربة وقالت:

ـ يا عزيزي كل إنسان في هذه الدنيا يُعامَل حسب إمكاناته وقدراته حتى لو كان لصّا.

ـ لكن ما الذي يجعلك تتركين أهلك ووطنك وتذهبين إلى بلاد قد لا تعرفين فيها أحدا؟

ـ ليس لي بوطن من عدّ علي أنفاسي، وليس لي بوطن من يأخذ مني دون أن يعطيني، وليس لي بوطن من لم يوفر لي الحياة الكريمة وأنا أعتبر أن الكرة الأرضية بكاملها هي وطني.

هنا قاطعها بضحكة قصيرة، وبعد أن التقط أنفاسه بادَرَها قائلا:

ـ الحياة الكريمة! وما هذا العزِّ الذي تَرْفُلِينَ فيه والمال الذي تنفقين منه بهذا البَذَخ، أي حياة كريمة أخرى؟

اعتدلت في جلستها وحَدَّجَتْه بنظرة نارية قائلة:

ـ لم يوفر لي الوطن شيئا مما تقول، فقد اعتمدت على نفسي، ولو لم أفعل لكنت الآن إحدى الموظفات البائسات أتنقل في الحافلات العامة جريا وراء لقمة العيش، وأسعى لتوفير ما لم يوفره لي الوطن أو في أي مهنة أخرى. يا عزيزي في هذه الأيام إن لم تدفع للوطن لا تستحق ما تسميه أنت المواطنة.
قالت الجملة السابقة بصوت متهدج، والتقطت أنفاسها بصعوبة واحتقن وجهها، ثم استطردت:
ـ وأنت تدفع في كل لحظة منذ أن تخرج من بيتك إلى أن تعود، وفي كل مكان خاص أو عام، أنت تدفع لكي تحصل على عمل، وتدفع للاحتفاظ به، هل جربت أن تحصي ما تدفعه كل يوم؟ بل أنت تدفع حتى لتشعر بالاحترام، ولكي تنال حقا هو لك، وإلا تُسّحَقَ دونما اكتراث، والدفع قد لا يكون مالا فقط.
قدمت له السيدة مجموعة من الأوراق لتضمن عدم استيلائه على أموالها، فوقَّعها دون اعتراض ودون أن يكلف نفسه حتى عناء قراءتها، ومن ثم ألقت نظرة فاحصة على توقيعاته، وتأكدت من مطابقتها حسب نموذج التوقيع الخاص به، الذي حصلت على صورة منه من زميل سابق لها في أحد البنوك التي يتعامل معها الشيخ، ثم وضعت الأوراق في مُغَلَّفٍ أزرق أنيق، وشكرته ودعت له بالتوفيق، في الوقت الذي بدا على سِحْنَتِه مسحة خفيفة من التهكم على طريقتها في الدعاء له.
استوقفها قبل أن تمضي قائلا:
ـ هل لي بسؤال أخير؟
ـ تفضل.
ـ لِمَ لمْ تستخدمي معارفك وعلاقاتك في تحويل أموالك؟
ـ أموالي كلها سائلة وليست لدي في حساباتي إلا ما يكفي مصروفاتي الشخصية فقط، ثم إن مدكور بك حرّض عليّ كافة البنوك، بما له من علاقات، فلا أستطيع تحويل قرش واحد إلى خارج البلاد، ولا حتى داخلها دون أن يصل إليه علمها.
ـ لماذا لم تجربي طريقة خطابات الاعتماد البنكي؟

ـ أنت تحدث "بنكيرة" خبيرة يا سيدي، وهذه الطريقة تصلح لتحويل الأموال بطريقة شبه قانونية إذا تعذر التحويل بشكل قانوني لأي سبب، لكنها لم تكن لِتُفلحَ في حالتي في ظل علاقات مدكور بك الْمُتَشَعِّبة في القطاع المصرفي، بالإضافة إلى أن كثيرا من البنوك الآن ترفض التعامل بهذه الطريقة لأسباب خاصة بها.

وكانت هذه الكلمات الأخيرة لها، ثم انتصبت واقفة من مقعدها المخملي إيذانا بانتهاء المقابلة الأخيرة، والتي اتفقا فيها على كل التفاصيل بما فيها طريقة نقل الأموال إلى مقر الشيخ.

كان التنفيذ بكل بساطة الإيحاء بأنها ماتت مقتولة بدافع السرقة، ويتولى الشيخ حسب معارفه وعلاقاته استخراج أوراق رسمية تثبت وفاتها، ومن ثم تكون هي في طريقها إلى المطار باسم وجواز سفر جديدين، مودِّعة تلك البلاد، وفي ذهنها أحلام السعادة في أرض المهجر، ثم يقوم الشيخ بعلاقاته بتحويل الأموال إليها كما اتفقا.

تضمنت التفاصيل دخول أحد المشردين عُنوة إلى القصر لسَرِقَته، وبعد أن تفاجئه السيدة يقوم بإطلاق النار عليها من مسدس صوتي، ومن ثم تقع على الأرض ليراها الخدم مُضَرّجة بالدماء الْمُزَيَّفة، ويكون الخدم شهودا على الواقعة.

بعدها يأتي رجال الشرطة للمعاينة الشكلية والطب الشرعي، وكل تلك التفاصيل المعلومة، وأن الشيخ سيقوم بترتيب هذه الأمور مع رجاله، ليبدو كل شيء بشكل طبيعي، ومن ثم يتم إخلاء القصر من الخدم ونقل الجثة إلى مكان غير معلوم، لتصحو السيدة بعدها وتتوجه إلى المطار من فورها، وتأخذ القضية بُعدا إعلاميا يكفي لإقناع غُرَمَائها بأنها قُتِلَتْ فعلا، وهذا ما تَصْبو إليه.

لم تنْطَلِ تلك الخُطة الساذجة على السيدة نوال بسهولة، لكنه أقنعها أنه بعلاقاته الواسعة يستطيع التحكم في مجريات الأمور كما يريد، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فصمتت وفي داخلها ارتيابٌ يتعاظمُ رويدا رويدا، وكان يراودها ويتسلل حتى إلى أحلامها، لكنها كانت تتغاضى عنه، أملا في أن يكون قادرا على تنفيذ ما

وعد، والرغبةُ الجارفة تضع دون المنطق حجابا حاجزا، وتختلق أعذارا لكل الشكوك.

****

الرحلة الأخيرة

في صبيحة أحد الأيام، صحا الخدم في قصر السيدة نوال على صوت إطلاق نار في غرفة نومها.

كان أول الداخلين إلى الغرفة الخادمة الجديدة التي لم يمض على دخولها الخدمة سوى أسبوعين، بعد ثاني زيارة للشيخ، وأطلقت صرخة رعب عالية شقَّت أذان بقية الخدم لدى مشاهدتها للسيدة ملقاة على الأرض والدم يتفجّر من صدغها الأيسر إثر فجوة أحدثتها الطلقة فيه.

لدى دخول الخادمة كانت نوال مازالت تتحرك وتعلو محياها نظرة دهشة عميقة وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما، وكانت بضع خصلات من شعرها المتموج ألصقتها الدماء على وجنتيها، وسيال رقيق من الدم الأحمر القاني ينساب من بين شفتيها القُرمُزيتين الرقيقتين ليِشكل بقعة من الدماء على بساط الغرفة، ثم بدأ وجهها في الشحوب رويدا رويدا وحل اللون الأصفر الباهت على وجهها محل اللون الخمري الذي كان يغلف وجناتها إلى أن فارقتها الحياة، والخادمة مُتَسمرة قُبالتها، بعد أن عقدت الدهشة والرعب لسانها. ومن ثم هُرِعَ بقية الخدم إلى مسرح الجريمة.

استدار المحقق برفق حول الجثة التي كانت قد همدت تماما، وانتشرت خيوط وبقع الدماء اللَّزِجة الحقيقية إلى جانبها، ثم أمر بنقلها إلى المشرحة لبيان سبب الوفاة.

تم تشريح الجثة والتصريح بدفنها، بعد أن أثبت التقرير أن السيدة قد تُوُفِّيَت نتيجة لتهتكِ بالمخِّ بسببِ طلقٍ ناريٍ اخترق الجمجمة من الصدغ الأيسر وخرج من فوق الأذن اليمنى، مارّا بالمخ، تاركا فجوة في عظام الجمجمة. وتم قيد القضية تحت مُسمى اقتحام وسرقة بالإكراه أفضى إلى قتل، وتم تكليف المباحث الجنائية بالبحث عن القاتل.

في هذه الأثناء كان مدكور بك يحول مليونا من الدولارات إلى حساب الشيخ عن طريق الهاتف، وهو مستلق على أريكة السيارة الفارهة ويُطبق شفتيه اللامعتين على سيجاره الفاخر، بعد أن وصلته رسالة على هاتفه المحمول "تمت".
كان الشيخ في حديقة بيته يرتشف القهوة ويفرك كفيه رضًا بنجاح خطته في التخلص من السيدة نوال، بناء على رغبة مدكور بك في اللقاء الذي تم بينهما قُبَيل الاتصال الغامض الذي تم بين السيدة نوال والشيخ بيومين، وتنفيذا لرغبتها هي أيضا. وهذا ما جعله يُهرع للقائها من أول اتصال به.
لم يكن مدكور بك يعلم أن الشيخ أوعز إلى أحد معارفه من أصدقاء السيدة نوال بأن يُزَكِّيه عندها، ويمتدح قدرته على حل المعضلات، كما لم يعلم بأن أموالها، التي أنكر الشيخ إنكارا تاما معرفته بها، قد تم إيداعها بالكامل في حساب الشيخ حسب الخطة الأصلية معها، لتحويلها مرة أخرى إليها بعد خروجها من البلاد.
لكن الأموال لا تحوّل إلى الموتى!
قبل زيارة الشيخ الأولى بيومين، كانت مديرة المنزل السابقة للسيدة نوال تتسوق من أحد المراكز التجارية الكبرى حين انطلق فجأة شاب من الزحام، واصطدم بها بقوة، فسقطت على الأرض، واصطدمت بحاجز حديدي، وتهشمت ساقها على إثر هذه السقطة، واختفى الفتى في الزحام كما ظهر فجأة.
استدعى ذلك إدخالها المستشفى، وأمر الطبيب بوضع ساقها في الجبيرة ثلاثة أشهر.
من ثم كان على السيدة نوال أن تبحث عن مديرة أخرى، وفي عصر اليوم التالي تقدمت فتاة مُهَنْدَمة وأنيقة ولبقة إلى القصر، وقرعت الجرس وقدمت أوراقها باعتبارها مديرة منزل تبحث عن عمل.
تلقفتها السيدة نوال، وشكرت القدر أن بعث لها بديلا عن المديرة المريضة، وعينتها لديها على الفور دون فحص أو تمحيص، ذلك لأن الفترة التي سوف تمضيها وجيزة ولا تحتاج إلى تدقيق، كما أن لباقة المديرة الجديدة وإجاباتها الحاضرة والمقنعة عن كل الأسئلة أقنعت نوال بتعيينها.

كانت الفتاة الجديدة أُذُن وعين الشيخ، وكانت توافيه لحظة بلحظة بكل ما يحدث في القصر دون علم قاطنيه. بالإضافة إلى أنها حصلت للشيخ على النسخ الأصلية للأوراق التي وقعها وكل الضمانات التي قدمها للسيدة في ذلك المغلف الأزرق الذي كانت تحتفظ به السيدة في مخدعها.

أما القاتل المشرد فلم يكن سوى الفتى عبّود، وكانت هذه إحدى العمليات التي نفذها بفخر، لأن الشيخ كلفه بها شخصيا، متخطيا بسيوني والمنشاوي، لذلك كان الفتى عبّود ممتنا جدا، وقضى بعدها الفتى يوما كاملا في "الجنة".

كانت السيدة نوال بعد أن آوى الخدم إلى مخادعهم قد تركت الباب الأمامي للفيلا مواربا، كما تركت باب غرفتها مفتوحا، وفقا للخطة الأصلية، لذلك لم يجد عبود أي صعوبة في الدخول حتى غرفتها.

وكانت هذه هي العملية الوحيدة التي شذَّ فيها الشيخ عن استخدام وسائله الأنيقة في مثل تلك العمليات لطبيعتها الخاصة وغنيمته الكبيرة منها، فقد كان يرتب عملياته بحيث تبدو طبيعية تماما، دون أن يلقى عليها الإعلام أضواءه الباهرة.

****

مدكور بك

نشأ مُدَلَّلا في عائلة أرستقراطية تمتد جذورها عميقة في تاريخ المناصب المهمة، بالإضافة إلى شبكة علاقات واسعة نسبا وصهرا في جميع مفاصل الدولة.

لكن الطامّة الكبرى بالنسبة إلى العائلة كانت في قرارات التأميم التي أتَتْ على أفضل ما يمتلكون، وكان أبوه من المسرفين، فقضى على معظم البقية الباقية من أملاكهم بالبيع والإيجار والرّهن، ليستطع تعليمهم تعليما راقيا، ولم يتبق لهم من العزِّ الباذخ والشرف القديم سوى السمعة الحسنة، وبقية مما ترك الوالدان تقيم أودَهم وتحفظ لهم ما بقيَ من المظهر الأرستقراطي الراقي الذي يحرصون عليه، كما يحرصون على سلوكياتهم الرفيعة التي تميزهم في كل محفل.

لكن الفتى كان طَموحا عمل في مستهل حياته محاسبا في إحدى شركات القطاع العام، وكان محبوبا جدا من زملائه وزميلاته على حد سواء، فقد كان في شبابه وسيما ذا طبيعة مرحة وأسلوب جذاب يستميل به القلوب، وسرعان ما ترقَّى في الوظيفة إلى أن وصل إلى رئيس القطاعات المالية، ثم تضخمت ثروته تضخما كبيرا دون أن يلحظها أحد أو تكون لها مبررات واضحة، لأن حساباته البنكية كانت خافية على معظم الملاصقين له، فما هو السر في تكاثر أمواله في البنوك كتكاثر البكتيريا؟

كان السر الذي لا يعرفه أيّ من المقربين إليه أنه استخدم صلاحياته المالية الواسعة في الشركة ليقوم بتحويل الأموال السائلة المخصصة لشراء معدات وآلات ومواد خام من الخارج إلى حساباته الخاصة لفترات محددة يحسبها بدقة شديدة، يحصل خلالها على فوائد ومميزات من البنوك التي يتعامل معها، كما يتم التعامل بجزء منها في البورصات العالمية.

كان مدكور بك قد ابتكر نظاما شيطانيا يجعل رصيده ثابتا معظم الأوقات.

لما اتسعت عملياته وتمدَّدت، أسّس مكتبا يتولى تنظيم النشاطات المالية في شقة خاصة به، وكان يعيد المبالغ التي حوّلها لحسابه إلى الشركات التي تتولى إرسال المعدات والأجهزة إلى شركته بعد انقضاء هذه الفترة، بعد أن يكون قد أدخل في

حسابه أموالا أخرى قد خُصصت لمصروفات أخرى، إضافة إلى أرباح العملية، وهكذا دَواليك لا ينزل رصيد حساباته المتحركة أبدا هذه عن المائة مليون، وتضاف إليها الأرباح التي يحققها من واقع هذه الأنشطة.

معظم العاملين معه في مكتبه الخاص كانت لديهم مهام محددة لا يتجاوزونها مطلقا، ولا يسمح لأحدٍ أن يُلِمَ بكافة خيوط اللعبة، كما لا يدور في خَلَدِ أيّ منهم أن الأموال التي تتدفق بين أيديهم لا يملكها مدكور بك، بل يعتقدون اعتقادا جازما أن هذه الأموال من ميراثه، وقد استطاع استثمارها بطُرُقه البارعة كما أوحى إليهم.

الوحيدة التي كانت تُلِمُ ببعض المعلومات هي السيدة نوال، حيث فرضت عليه طبيعة المهمة أن يبوح لها ببعض أسراره، وقد كانت له نِعْمَ الْمُعين في توظيف تلك الأموال وكيفية اقتناص الفرص، بالإضافة إلى التعامل مع البورصات العالمية، وهي اللعبة التي تتقنها بمهارة شديدة.

كان على درجة عالية من الاحتراف، حتى أنه لم يدع للطمع أن يقود سفينته وسط العواصف، فقد كان من الذكاء بحيث يعرف متى يخلي مكانه في الشركة.

فجأة، بعد أن كوّن لنفسه ثروة لا بأس بها، قرر أن يترك العمل.

عندما طرحت الشركات فكرة التقاعد المبكر، وتوسّمَ في الأفق رياحا جديدة أطلق أشرعته صَوبها، ومن ثم قام بتسوية كل متعلقاته المالية دون أن يترك أي ثغرة توحي بما كان يقوم به، ثم حول المكتب الخاص به إلى شركة محاسبة قانونية، بالإضافة إلى الأنشطة الأخرى، وتكاثرت مشروعاته وتنوعت، فقد كان عليما بالدروب الخلفية لمعظم أنشطة المال والأعمال.

بعد ذلك كون لنفسه مجموعة من التابعين في كل هيئة أو جهة تتعلق بأعماله، وكان الشيخ أحد أصدقائه، كما كانت السيدة نوال أحد الأركان المهمة في نشاطه.

****

عزت الخلفاوي

التقى الكاتب عزت الخلفاوي مع رجل الأعمال مدكور بك على طاولة الغداء في بيته، ودار بينهما الحوار الآتي:

بادر مدكور بك الخلفاوي سائلا إياه:

ـ إن لك باعا طويلا في النشاط الاجتماعي وجماعتك كذلك، فما هو موقعكم في المستقبل؟

ـ من تجاربنا السابقة، مازلنا نلعق جراحنا من تصادمنا مع النظام على مدى العقود الماضية، وقد وصلنا إلى قناعة أن نحتفظ بمواقعنا الحالية، بالرغم من المناوشات الخفيفة بيننا وبين النظام، إلا أننا لا نود الدخول في مواجهة شاملة لعدم قدرتنا على تحمل الفاتورة الباهظة لذلك، ونعتقد أيضا أن العقلاء في النظام يدركون عدم قدرتهم على ابتلاعنا.

ـ فما جدوى هذه المناوشات؟

ـ لإثبات الوجود فقط وَتَلَمّس مواطئ الأقدام.

ـ ماذا عما يحدث على الساحة الآن؟

ـ لقد تصلبت شرايين النظام وصمّ أذانه عن فك الحزام ولو قليلا للشباب، لكننا لن ندخل في مواجهة حقيقية إلا إذا كانت الرياح قوية بما يكفي.

ـ بما يكفي لماذا؟

ـ لأن تُحَيِّدَ القوى التي تملك القوة، وتعرف أنه لا يمكنها، بل ويستحيل عليها الانتصار حال دخولها في مواجهة مع المجتمع ككل.

ـ هل تظن أن هذه المواجهة حتمية؟

ـ قد تكون كذلك إذا ضمن أحد الأطراف إنهائها لمصلحته حتى لو ضحى ببعض الوقود اللازم للتضحية به.

ـ ماذا تعني بالوقود؟

ـ كل الأدوات التي يستعملها للحفاظ على استمراره، بشرية أو مادية هي وقود قد يستهلكها إلى حد استنفادها، طالما لا تمس الأعمدة الرئيسة.

ـ هل لكم تحالفات إقليمية؟
ـ ليست تحالفات إنما هم قد استغلونا في الفترات السابقة كورقة ضغط على الأنظمة المختلفة، وبعد انتهاء تلك الفترة أصبحت العلاقة فاترة، ولكنها ليست عدائية.
ـ هل يساندونكم إذا هبت رياحكم؟
ـ قد يحدث وقد لا يحدث.
ـ مَن مِن الأشخاص المؤثرين حاليا عندكم؟
ـ لقد ذهب الناس ذوو "الكاريزما" والشخصية والرؤية، ولم يتبق سوى التجار والأكاديميين الذين لا يتقنون السياسة.
ـ وما دورك؟
ـ لقد حاولت كثيرا، لكنهم يصمّون آذانهم عن التماشي مع الواقع، وهم لا يتمتعون بموهبة الحدس والتخمين، أو استقراء المستقبل، وقد نويت الانعزال عنهم.
ـ انتظر قليلا فقد نحتاجك في الداخل، لكن ماذا عن الاغتيالات التي قمتم بها في العصر الملكي؟
ـ لقد كانت هذه الفترة تمور بالحركات الوطنية التي تقاوم المحتل ومؤيديه من كل أطياف التيارات من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وكلهم شاركوا في هذه الحوادث، إنما تم تضخيم ما قمنا به لأننا الجبهة الأكثر تنظيما، وبالتالي الأوفر حظا في التأثير على الساحة، وليس أسهل من إلقاء هذه التهم.
ـ لكنك في بعض أحاديثك تقول بعكس ذلك!
ـ لكل مقام مقال.
ـ يعجبني فيك مرونتك وحُسن تكيّفك مع الوقائع.
ـ عندما أكرموني وعرفوا مقامي كنت معهم، ولما رأيت التجاهل وإبرام الأمور من وراء ظهري انزويت بعيدا عنهم، وأفكر جيدا في تركهم وكتابة كتاب أشبه بالكتاب الأسود أبيِّن فيه سلبياتهم وأخطائهم.

ـ لا تتعجل ولا تكشف نفسك الآن.
ـ هل هناك شيء في الأفق؟
نظر إليه مدكور بك نظرة ذات مغزى تحمل في طياتها الكثير من المعاني الغامضة، فلم يعقب عليها الخلفاوي بما عرف عنه من كياسة وترقب، ثم سأله مدكور قائلا:
ـ ماذا عن الشباب؟
ـ لا صوت لهم في القرارات المصيرية.
ـ أقصد القيادات الشعبية.
ـ مجرد كوادر ميدانية صادقة ومتفانية، لكنها تابعة.

كان الكاتب عزت الخلفاوي انتهازيا بمعنى الكلمة، يتودد إلى كل من يظن فيه منفعة أو مصلحة قريبة كانت أو بعيدة، وقد التصق بالجماعة عندما ظن أن لهم شأنا في مستقبل الأيام، وطفق يلعب أدوارا من النقيض إلى النقيض بين الأطراف المتصارعة، ويعطي أحيانا معلومات مغلوطة تخدم أهدافه الخاصة.
كان يمثل إحدى القنوات الخلفية للتفاهمات التي تجري بين الغرماء المختلفين، وأسعفته مهنته وعلاقاته المتشعبة في التقرب من أقوى التيارات السياسية المعارضة والمتعارضة، كما أسعفته قدرته على الكتابة في التغلغل إلى قدس الأقداس لدى معظم الأطراف، لكن شيئا من الشك كان يتسرب إلى قلوب المتعاملين معه، فكانت بعض الأمور والقرارات تؤخذ بعيدا عنه، وهذا ما أثار حفيظته، لكنه كان يكتم ذلك بسبب الفوائد التي يجنيها من التصاقه بهم.
كان يوحي إلى أصدقائه ومعارفه أنه يمثل عنصرا مهما من عناصرهم، ويستغل هذا الوجود على سطح المجتمع في تكوين صداقات مع بعض رجال المال والأعمال، أمثال مدكور بك وغيره، وهو ضيف شبه دائم في ولائمهم وحفلاتهم.
****

صديقُ الأباطرة

كانت الشمسُ قد ألقت آخرَ خيوط أشعتها الذهبية على قمم الأشجار السامِقة التي تحوْطُ حديقة أحد البيوت الريفية، فأحالتها إلى لوحة رائعة.

هذا البيت يتخذه صاحبه الصحفي الكبير صاحب النفوذ الطاغي ملاذًا من صَخَبِ المدينة يكتب فيه مقالاته وكتبه، ويستقبل زواره من الخاصة في هدوء الريف.

كان الشيخ جالسا إلى إحدى الطاولات أمام الصحفي الكبير كما يجلس التلميذ أمام أستاذه، هو يسأل والصحفي يجيب.

قال الصحفي المخضرم، ردا على استفسار من الشيخ عن طبيعة المجتمعات الحديثة:

ـ هناك أربعة خطوط لابد لها أن تتقاطع في أي مجتمع بشري: الجريمة، والمال، والفن، والسياسة، وَيَرْفُدُ بعضها بعضا في التيار العام للمجتمع سلبا وإيجابا.

كان الصحفي المخضرم من ذوي النفوذ المعنويَ على كثير من قادة السلطة في الإقليم عَبْرَ عقود، تسبقه الهالة الكبيرة من التأثير على القرار في معظم الحقَبِ التي عاشها قريبا من صناعة القرار، ومشاركا فيه في غالب الأحيان، وله أيَادٍ جَمَّة على كثير من قادة الفكر، يحشو قلمه بكلمات أشبه بالطلقات، ويَتَمَتْرَسُ خلف الوثائق والمستندات، حُجَجه دامغة، وأقواله سارية ونظرياته أقرب إلى الحقائق.

وهو ذو سلوكٍ راقٍ أقربُ إلى اللّوردات الإنجليز، كان له بيتٌ ريفي يقضي فيه معظم أوقاتَ السنة، خصوصا الشتاء، كما يهوى ممارسة الجولف، وشاي الخامسة عصرا من الطّقوس الثابتةِ لديه كالإنجليز تماما والسيجار الكوبي الفخم بين شفتيه أغلبَ الأوقات، وكان ينشرح الصدر كلما كان مُحَدِّثه يطيلُ الاستماع إليه، ويخاطبه بالاحترام الواجب كأنه في حضرة فيلسوف إغريقي، وقد أعطاه الشيخ كل ذلك.

انطلق الصحفي الكبير في الحديث دون انقطاع، وأخذ بيد ضيفه يشرح له أركان البيت وزواياه جزءاَ جزءا، وأنساهُ المديح المفرط من ضيفه فضولَه لمعرفة سبب الزيارة لبُرْهة.

كان أنيقا في ملبَسه كأناقةِ عباراتِه التي يُجيد صياغتها لتناسب مقامات القوم، وقد تهذبت لغته السياسيةِ والاجتماعية باكرا، وعلى مدار عقود من معاشرته للباشاوات والبكوات وأرباب الأدب والثقافة من علية القوم، واخْتَطَّ لنفسه أسلوبا جديدا تجاوز به من سبقوه وبزَّ من عاصروه، ولا ينكر حتى شانئوه عالمَيَة قلمه وسعة اطلاعه ومعرفته بخفايا الأمور.

كانت عينا الشيخ تدوران في المكان أثناء جولتهما في أركان البيت الريفي وفي مكتب الصحفي الكبير.

كانت ذاكرة الشيخ الفوتوغرافية تسجل كل ما تراه، وقد كانت هذه الجولة من ضمن الأسباب الحقيقية من الزيارة، كما أن الصحفي المخضرم وافق على استقباله بدافع الفضول وانفتاحه على جميع التيارات المؤثرة في المجتمع دونَما قيودٍ، وكان بِحِسِّه الصحفي يلتقط ما قد يكون مادة صحفية له، لذلك رحب كثيرا بزيارة الشيخ التي كان هدفها التعارف، كما ذكر له الشيخ في المكالمة الهاتفية القصيرة بينهما، وكان يعلم أن لهذا الشيخ تأثيرا غامضا في أوساط المال والإعلام لكنه لم يكن يعرف التفاصيل ولا مدى هذا التأثير ولا كيفيته، وأراد أن يلتقيه ليستشف من حديثه ما قد يُبَدِّدُ له ظلام الشكوك.

أما الشيخ فقد كانت له أهداف أخرى.

سافر الصحفي الكبير في رحلة إلى إحدى الحواضر العالمية للاستشفاء.

كانت هذه الرحلة فرصة سانحة أرسل الشيخ خلالها فتيانه إلى المنزل الريفي للصحفي الْمُخَضْرَم، شارحا لهم كيفية الدخول والخروج.

كان الوقت سَحَرًا عندما تحركت سيارة سوداء تُقِلُّ أربعة من الرجال كان أحدهم بسيوني، أما الاثنان الآخرَان فمن فتيان الشيخ المدربين ورابعهم سائقهم الذي توارى بالسيارة خلف أحد النتوءات البارزة من الشارع الذي شُقَّ ورُصفَ قديما، خصيصا ليصل بيت الصحفي المخضرم بالطريق العام.

انساب الفتيان كانسياب الرِّقْطاء في جُنْحِ الظلام، وتسلقا برشاقة سور المنزل الريفي، وما هي إلا ثوانٍ حتى كانا داخل البيت يجوبان غُرَفَهُ ورُدْهَاته.

لم يكن هَمَّهُمَا إلا بضع وُرَيْقاتٍ داخل مُغَلَّفٍ أصفر يحوي وثائق مهمة وقيمة، وبأيد مدربة تَفَحَّصَ الفتيان كل الغرف وأرفف المكتبة وأدراج المكتب الخاص بالصحفي دون جدوى، وأوشك الليل على الرحيل دون أن يجدا أثرا لتلك الأوراق.
وعلى حين غِرَّة، سَرَى في سكون الليل صوتٌ حادٌ وممتدٌ يشبه صوتَ البومة، فتوقف الفتيان عن العَبَثِ بمحتويات المكتب، واستدارا للخلف ليَشُقَّا طريقهما عائدَيْنِ إلى السيارة.
وكان صوت البومة هو إشارة بسيوني لهم للمغادرة.
لكن عندما استدار أحدهما وجد نفسه وجها لوجه مع الصحفي الكبير الذي يمسك في يده مصباحا قويا سلَّطه على وجهه، فبادره بضربة قوية على مِعْصَمِه أطاحت المصباح، وغرقت الغرفة في ظلام دامس.
لم يتبين الصحفي وجه الفتى، لأنه كان مُلثَّما، وحالَ كِبَرُ سِنِّه دون اللحاق بهما، غير أن بعضا من الرشاقة والمرونة لديه مكنتاه من القيام سريعا، ولكن بعد فوات الوقت، إذ كان الفتيان قد لاذا بالفرار.
شقت سيارة المهاجمين سكون الليل عائدة أدراجها إلى المدينة، تحمل الخيبة وتخشى اللّوم.
تفَحَّصَ الصحفي كل غرف البيت، ولم يجد شيئا مفقودا أو في غير محله، لكن اللافت للنظر أن الفتيين قد تركا خلفهما آثارا غير واضحة تماما لتفحص الأدراج وأرفف المكتبة، وهو ما أثار الصحفي الكبير ولفت انتباهه إلى أن العملية ليست مجرد سرقة، بل للبحث عن شيء معروف لهما.
في الصباح اتصل الصحفي الكبير بأحد الرجال من ذوي الخبرة يخبره بما حدث عنده، ويود أن يعرف سببه.
قال الصحفي الكبير:
ـ لقد وصلت متأخرا بالأمس من رحلتي خارج البلاد بعد الانتهاء من العملية الجراحية، وقد أوصاني الأطباء بالعودة وترك المستشفى، واستكمال الراحة والعلاج

في بيتي، خصوصا أن العملية كانت بسيطة، فآثرت العودة العاجلة وقضاء فترة النقاهة في بيتي.

وسرد على مسامع مُحدثه ما حدث له مع المهاجمَيْن.

طمأنَه الرجل بأنه سيفحص الأمر بكل جدية، بما له من علاقات ومعارف بذوي الشأن.

بعد أسبوع تلقى الصحفي اتصالا من الرجل:

ـ لعلك بخير؟

ـ الحمد لله.

ـ اطمئن، ليس هناك ما يدعو إلى القلق.

ـ كيف؟ هل توصلت إلى شيء؟

ـ الزيارة كانت بسبب السرقة، ولما لم يجدوا شيئا وقد فاجأتَهم لاذوا بالفرار.

ـ لكنهما كانوا يبحثون في أرفف المكتبة، وهي ليست ذات قيمة عند اللصوص.

ـ لعلهم كانوا يبحثون عن أدراج سرية لإخفاء المجوهرات أو ما شابه.

أغلق الصحفي سماعة الهاتف دون أن يبدو عليه الاقتناع، لكن لم يكن بيده شيء، فصمت على مضض.

وعلى الجانب الآخر من الخط كان الشيخ مسعود يضع السماعة ويزمّ شفتيه حنقا وغيظا، لأن فتيانه لم يجدوا ما كانوا يبحثون عنه.

كان الشيخ مسعود قد كُلِّفَ بالبحث عن بعض الوثائق التي يملكها الصحفي الكبير وتُهِم أحَدَهم، وقد كانت الزيارة التي قام بها الشيخ مسعود إلى منزل الصحفي لاستكشاف كيفية الدخول والخروج والأماكن المحتملة لوجود الوثائق.

كانت هذه العملية من العمليات النادرة التي يُخفق فيها الشيخ في الوصول إلى مبتغاه.

وجه السخرية في الأمر أن الصحفي الكبير استعان بالشيخ لمعرفة من اقتحم بيته ومكتبه، ولم يدر أنه يطلب العون من غريمه.

بعد أسبوعين على تلك الواقعة، وفي أحد البنوك الكبرى في عاصمة أوروبية، كان الصحفي الكبير يضع لفافة من المستندات مطوية بعناية داخل حقيبة جلدية أنيقة بيديه الناعمتين المعروقتين في أحد صناديق الخزائن الخاصة، وهو يشعر بالابتهاج لأنها وصلت سليمة، وقد أدرك بفطنته أن عملية السطو كانت لأجل هذه الأوراق.

****

مراد القاضي

كان القاضي مراد يتوسَّم في وكيل النيابة الجديد خيرا، لِمَا له من عائلة عريقة في القضاء، وكان يودُّ أن يُزوِّجه من إحدى بناته الأربع اللاتي أوشك أن يفوتهن قطار الزواج، فصُغْراهن في الرابعة والعشرين، وكُبراهن كسرت حاجز العام الحادي والثلاثين، وكان - في نظره - تأخُّرَ زواجهن يقضُّ مَضْجَعَهُ ويُقْلِق راحته، والحقيقة أنه قد تقدم إليهن الكثير ممن يُعْجِبْنَ أمثالهن خُلقا وعلما.

لكن الكفاءة المالية لم تك ترضي أمَّهُن سليلة البيت الحسيب الشريف التي رفضت أحد الشباب الذي لا يقل عنهن كرم أصل وطِيب عنصر، إلا أن أحواله المادية كانت دون المطلوب بالنسبة لها.

لذلك رفضت طلبه رفضا باتًّا، وتسبب ذلك الرفض في عُزوف كل من تسول له نفسه التقدم لهن، لأن المقارنة بين المتقدمين والعريس المرفوض كانت واجبة.

كان القاضي مراد يقضي معظم أوقات الاستراحة معه آسر وكيل النيابة الشاب، بالرغم من تفاوت السن بينهما، وكان في كثير من الأحيان يعطيه الكثير من خبراته القانونية، وتدور بينهما المسامرات.

في هذا اليوم تقابلا في نادي القضاة لحضور زفاف زميل مشترك، ودار بينهما الحديث الآتي:

قال آسر:

ـ ليس لأحد من سلطان على القاضي إلا ضميره، أليس هذا القول شائعا بين القضاة؟

ـ دَعْكَ من هذا، فالسلاطين كُثُر وليست الأمور بهذه البساطة، فقديما كان القاضي يحكم طبقا لعلمه بالشريعة والفقه، ثم بالأدلة والبراهين، أما الآن فعلى القاضي أن يشقَّ طريقه بين أدغال القوانين التي يجب أن يضعها في حسبانه من بين "عوامل أخرى"، وأصبح القاضي المحترف يتحرى العدل، لأنه ملزم بالقوانين، لكن القاضي الوَرِع يتحرى الحق أولا، ثم يبحث عن سنده من القوانين العادلة.

كان آسر يعلم إجابة السؤال، لكنه أراد الخروج من جو الأفراح المزعج وصوت المطرب المبحوح وحركات جسده التي توحي بأنه يعاني ألما معويا، وإيحاءاته التي لم تعجبه، ووافق هذا رغبة لدى القاضي، فانتحى به جانبا في ركن قصي هادئ نوعا ما، بعيدا عن الضجيج، فأكمل آسرٌ سؤاله قائلا:

ـ وما الفارق بين الحق والعدل؟

ـ الحقُّ مطلقٌ والعدل نسبي.

ـ زدني إيضاحا.

ـ القاضي يحكم بناءَ على ما لديه من أوراق ومدى مطابقة الوقائع للقوانين، فيحكم من خلالها، وبعض القضاة يضع نُصْبَ عينيه أحكام الاستئناف والنقض مقدما، فيحاول كل جهده أن يكون حكمه متوافقا مع صحيح القانون، حتى لو كان مخالفا لانطباعه الشخصي، فهذا الذي يتحرى العدل فقط وهو في الغالب يتجاهل أي وقائع ليس لها سند من القانون، حتى وإن أيدها المنطق.

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى، وأتم حديثه قائلا:

ـ وأما إذا كانت القضية ذات "طبيعة خاصة"، فلابد من مراعاة مُقتضى الحال.

أما من يتحَرى الحق فهو يبحث كل المعطيات التي تؤدي إلى إقناعه شخصيا بتحقيق العدالة، ومن ثم يُكيِّف حكمه قانونا بِناءَ عليه، بغضِّ النظر عن أي عوامل أخرى، وهذا ممن يتَحَرّوْن الحق أولا.

ـ الفارق بينهما ليس كبيرا!

ـ كلا فالفارق بينهما شاسع، فالأول موظف، أما الثاني فقاضٍ.

ـ وما مراعاة مُقتضى الحال يا مراد بك؟

ـ لعلك بألْمَعِيَّتَكَ استنتجت المعنى.

ثم انصرف إلى البوفيه المفتوح يملأ طبقه من شهي الطعام، وترك وكيل النيابة الشاب أسيرا لتلك الحالة من الحَيرة في فَهم هذا التناقض بين ما يفهمه القاضي وبين سلوكه العملي.

****

الأخطاء القاتلة

طارت أخبار الحادثة التي راح ضحيتها العديد من العامة الذين لا ذنب لهم ولا جَريرة في هذا الحادث المروِّع كالبرق على صفحات الصحف وبرامج الـ "توك شو"، وأصبحت ملءَ السمع والبصر خلال سُويعات قليلة من حدوثها، وتصدَّرت نشرات الأخبار بجميع اللغات في أقطار المعمورة، وكانت كل صحيفة تُشَكِّلها حسب أيْديولوجيتَها وتُضيف إليها من البِهارات ما يخدم أهدافها، وتَبارى الكتَّاب في استنكارها في مُقدمة الخطاب، ثم يضعون في ثناياه ما شاءوا من رؤىً تتفق مع أهدافهم التي تفاوتت من النقيض إلى النقيض.

ما إن حل المساء حتى أصبح بطل الحادث من المشهورين، وغصَّت الصحف والقنوات بصوره وقصص محبوكةً عنه تَرَاوَحَت بين وصفه بالجنون الْمُطْبِق وبين العَراقة في الإجرام.

كان مرتكب الجريمة سعيدا بما يسمع من زائريه عن شهرته، وأنه أصبح حديث الناس، وكان يبتسم في بلاهة كلما نقل له أحدهم ما يدور في الخارج، غير آبهِ بكلام المحامين الذين حضروا لترتيب أقواله عند عرضه على النيابة العامة.

لكن الحادثة أخذت بعدا محليا ودوليا، مما ألقى بعبء ثقيلٍ على كاهل وكيل النيابة الشاب الذي أوشك أن يبدأ التحقيق.

في الردهة أمام النيابة، كانت مشادَّةً عنيفة جرت أحداثها بين المتهم الكحلوت وبين أمين الشرطة المكلف بحراسته هو وثُلة من الجنود المدججين بالسلاح.

لكن الكحلوت كان يرمقهم بنظرات ملؤها التعالي وعدم الاهتمام، ويسبهم بأقذع الصفات بسبب علاقته السابقة بينهم والود القديم.

لكن أمين الشرطة الْمُحَنَّك لم يعجبه هذا الأسلوب في العلن، وإن كان يغضُّ الطَّرفَ عنه عندما يكون في الخفاء.

وقد اسْتَشَاط الكحلوت غضبا، وكالَ السِّباب القاسي لأمين الشرطة، لأنه لم يُمَكِّن مصور الصحيفة المشهورة من التقاط صورة معبرة للكحلوت مُخْفِيًا القيود

الحديدية تحت أرْدان الجلباب الفَضْفاض الذي يرتديه، وجذبه جذبةً شديدة كادت تُطيحَ به أرضا.

عندما وقف الصحفي بجوار الكحلوت لالتقاط الصورة ولإثبات وجوده في سراي النيابة، نفيا لأي اتهامات له بتلفيق القصص واختلاقها مثلما حدث سابقا، كان مقطب الجبين زائغ النظرات، فلكزه الكحلوت قائلا:

- "ابتسم، هوه انت المتهم والَّا أنا"!

بدأ التحقيق في حضور المحامين الذين توافدوا على سراي النيابة فورَ علمهم بالحادث، حيث تجمعهم بالكحلوت علاقات قديمة، لأنه من معتادي الإجرام، بالرغم من أنه كان يخرج من القضايا كما يَمْرُقُ السهم من الرَمْيَة لأسباب كثيرة، كان أوهنها حيَلَ المحامين الذين كانوا ينسبون الفضل لهم في إثبات براءته، بغضّ النظر عن الدواعي الأخرى.

كان سكرتير النيابة المخضرم ذو الشعر الأشيب الذي مرت عليه عشرات القضايا المشابهة، كان يلم إلماما تاما بخيوط الحادث وأطرافه من طول معيشته في تلك المدينة القديمة التي ينحني عليها النيل من أطرافها ويضمها كأنها فَلْذَةُ كَبِدِه.

كان السكرتير يُسارّ وكيل النيابة ببعض النقاط المهمة التي يجب عليه أخذها في الحسبان، لِيَنْفُذَ من أحابيل المحامين ويُوقِعَ بالمتهم، ويحصل منه على اعترافات كاملة تدينه في تلك القضية.

غير أن هموما أخرى كانت تدور في ذهن الوكيل تتراوح بين نصائح زملائه، ومراعاة أصول المهنة وأبعاد الجريمة التي تطايرت بها الصحف إلى أقطار الأرض، وبين التزامه بالحياد في التحقيق.

وأفاق من سهومه على اتصالٍ هاتفي جعل أساريره تنْبَسِطُ، وتقدمَ بثقةٍ إلى مكتبه، وضغط زِر استدعاء المتهم وبدأ الاستجواب.

قبل أسبوع من تلك الحادثة كان الكحلوت جالسا على مقعد في باحة أحد المقاهي الشعبية ينفث دخان نرجيلته بشغف، ويضع الهاتف على أذنه منتظرا

ردّا من الطرف الآخر، غير أن هذه المكالمة العشرين دون أن يتلقى ردا من الجانب الآخر.

كان الكحلوت متعهد الأعمال السفلية في منطقته، يُعيد السيارات المسروقة والأطفال المخطوفين، كما يعُيد من بدلوا دينهم ويقبض "الحلاوة".

كانت الفتاة التي هربت إلى إحدى المدن الساحلية قد بدَّلت دينها وموطنها وتزوجت من فتى الجيران الذي أعجبها منه وسامته وحسنَ كلامه وطريقة وقوفه أمام محل الملابس الذي يملكه.

هو ليس مُتَضَلِّعا في دينه ولا عالما بأحكامه ولا شرائعه، لكنه اشترط عليها تغيير دينها حتى يرتبطا، ويبيع ذلك المحل وبثمنه يفتتح محلا آخر في تلك المدينة الساحلية الجميلة، حَزَمَتِ الفتاة أمرها وتركت أشياءها كما تركت دينها من بين ما تركت، وغادرت مع الفتى دون حتى أن تُلقي نظرة وداعٍ على بيتها.

خشيَ سامي أن يتحول الأمر إلى ظاهرة، وبعدها تلقى الكحلوت اتصالا من سامي يأمره بإعادة الفتاة بأي ثمن.

قال الكحلوت:

ـ أين ذهبت؟

ـ البحر الأحمر.

ـ عنوانها.

ـ سوف يصلك في رسالة.

ـ خمسون ألفا نصفها مقدما، كما تدفع المتأخر عليكم من المهمة الماضية.

ـ كم؟

ـ عشرون ألفا.

ـ موافق، سوف أرسل لك وديع الآن.

وصل وديع على دراجة نارية يحمل كيس قمامة أسود ألقاه في حجر الكحلوت قائلا "دول باعتهملك سامي"، وتركه وانصرف.

خلال يومين قام الكحلوت بمهمته على أكمل وجه، غير أن سامي لم يدفع له بقية الأتعاب ولم يرد على مكالماته مطلقا، حتى بعد أن توعده الكحلوت في الرسائل المتكررة التي أرسلها إليه، دون نظر إلى العواقب.

ذلك الصباح المشئوم نهض الكحلوت من نومه بعينين حمراوين زائغتين يغلي مرجل غضبه على سامي ومعلِّمه الذي استهتر به ولم يدفع له بقية الأتعاب عن العملية الأخيرة، وحزم في نفسه أمرا.

انتظر حتى المساء، كانت الطرق تزدحم بالمارة والمحتفلين والزينات تملأ الشوارع والشرفات، وكان مجموعة من الفتية أقارب سامي يتقافزون على الإفريز المؤدي إلى أحد الشوارع الكبرى.

فتح الكحلوت نيران بندقيته الأوتوماتيكية عليهم، فتفجر الشارع بالدماء، وعلا الصراخ يشق الآذان وتفرق المارة على غير هدى.

حاول أحد رجال الشرطة القبض على الكحلوت أو أحد رجاله، فعاجله أحدهم برصاصة أصابته في ساقه فخر مغشيا عليه.

خلال ثوان كان الفَعَلَة قد امتطوا الدراجات النارية وغابوا في الشوارع المزدحمة.

ما هي إلا سويعات حتى تم القبض عليهم، بعد مكالمة هاتفية مجهولة بأوصافهم وأسمائهم وأرقام الدراجات النارية وكل التفاصيل التي لا يمكن لشهود العيان ملاحظتها، مما يَشِي بأن الْمُبَلِّغَ على دراية كاملة بالكحلوت ورجاله.

سيق الكحلوت ورجاله إلى سراي النيابة على عجل، وتمت إحالتهم إلى المحاكمة بتهمة القتل العمد، وتم الحكم عليهم بالإعدام في فترة لم يتمكن حتى متابعو القضية من معرفة ملابساتها ولا دواعيها وأسبابها، وإنما تُرك ذلك للصحافة لتختلق قصصها وتوهم بها العامة.

سأل مدكور بك الشيخ مسعود عن الحادث بنظرة ذات مغزى تعني:

ـ هل له علاقة بمدبِّر الحادث؟

ولم يغب ذلك عن فطنة الشيخ فقال:

ـ نحن لا نتورط في مثل هذه الأمور، لكن واقع الأمر أن أحدهم "استرخص"، فتعامل مع السفهاء فجنى عاقبة "استرخاصه".

******

العُرس الأحمرِ الدامي

حضر كل المدعوين إلى حفل الزفاف، وامتلأ السُّرادِق المنصوب عن آخره، حتى أن الوافدين من خارج المقاطعة وفدوا مبكرا لحضور الحفل والتمتع بفقراته إكراما لصاحب الفرح.

كيف وهو صاحب أكبر مجموعة صناعية في المقاطعة، وهو يؤثّر سلبا وإيجابا في كل أعمال رجال المال والأعمال في مقاطَعته الغنية.

كان بعض المشاغبين يتندرون عليه في مجالسهم الخاصة أنه لا يستطيع الحركة ولا التجول أو حضور المناسبات دون فريق الحراسة الخاص الذين يحيطون به كظله، خوفا من أحقاد المنافسين أن تناله شَظايا حسدِهم وغلِهم، لما يتمتع به من نفوذ، وبما استطاع أن ينال خلال ظهوره القصير على الساحة، كما أن حنكته وطريقَته في إدارة الأمور والتخلص من المآزق كانت تُشعل نيرانَ قلوبهم حسدا وغلّا.

نمى إليه هذا الحديث أنهم يحتقرون ظهورَه وسَطَ رجاله ويسخرون منه ويصفونه بالجبن، فأمر بأن يختفي فريق الحراسة المكلفين بحمايته خلال حفل زفاف ابنته الوحيدة التي قرر أن يزوجها من خارج العائلة من رجل خَطَّ الشيب مفرقه، ورسم الدهر على مُحَيّاه علامات التقدم في السن، رغما عن رغبة حكماء العائلة وكبرائهم الذين رفضوا النسيب الجديد، وكانوا يسمّونه "شايلوك"، بسبب أنشطته المالية المريبة.

وقد استطاع بما لديه من قوة وقدرة على التلاعبِ بالكلمات إقناعهم بقَبول الخطيب، فوافق بعضهم طمعا في الأموال التي سوف يُغدقها عليهم والوعود المغرية، ووافق البعض الآخر اتقاءَ لشره.

غيرَ أن القلة القليلة بدا اعتراضها يأخذ شكلا لم يتوافق مع ما يدعو إليه الشريف سراج - كان هذا اسمه - وهو لا ينتمي إلى الأشراف لا نَسَبًا ولا صهرا، وإنما كان جَدُّه من محسوبيهم، فأضاف إلى نفسه لقب الشريف، ولم يجرؤ أحد على تكذيبه.

كان في مقدمة مستقبلي الوفود شوقي ابن أخ الشريف سراج وذراعاه اليمنى واليسرى معا، وهو من يقوم نيابة عن عمه بكافة الأعمال والتوقيع على الصفقات.

كان شوقي يبذل في ذلك مجهودا كبيرا بكل إخلاص وأَرْيَحِيَّة، ويتحمل عناء الرحلات الطويلة لتوصيل رسائل من عمه إلى شركائه في جميع البلاد، حتى أنه أحيانا لم يكن يعرف بمضمون الرسائل التي كان ينقلها.

وكان في جلسات الفراغ يُلقي على مسامع عمه الشريف سراج النِّكات التي يؤلفها له أحد الأفّاقين، كأي مهرج محترف.

***

جلس فريق الحراسة في الصفوف الخلفية للسّرادق يحتسون المشروبات، ويتسامرون حسَبَ أوامر كبيرهم، ونسوا مهمتهم الأصلية ودارت كؤوس المشروبات على المدعوين مراتٍ ومرات، مع ما يتبعها من مقبلات ومشهيات قبل العشاء.

توالت فقرات الحفل من أشعارٍ وأغانٍ وفقرات راقصة على وقع الطبول.

على حين غِرَّة دوَّى صوت عميق اخترق الأذان، واقتحم مجموعة من الرجال حاملي المشاعل والطبول الكبيرة، وهم يرتدون ملابس فضفاضة بيضاء يحيطون رؤوسهم بعمائم سوداء كبيرة تنزل أطرافها على صفحات أعناقهم، واصطفوا على المسرح أمام الصف الأول في مواجهة الحضور.

شرع المقتحمون في الرقص على وقع الطبول الضخمة، وكانوا يحاكون حركات المتصوفة، ويدقون بأقدامهم الأرض، وتهتز إلياتِهم على نغمات الدفوف التي ترج جنبات المكان.

دار في خَلَدِ الشريف سراج للحظة أنها من فقرات الحفل، فقام لتحيتهِم، لكنه انتفض على أطراف أصابعه، عندما تبين في عيونهم الغدر، ليرى مَن هؤلاء الذين سَوَّلت لهم أنفسهم أن يقتحموا العرس بهذه الوقاحة.

ثم صحا من تَوَهُّمه مبهوتا على طعم الدماء في حلقه، بعد أن غرس أحدهم خنجرا ذا حدين في خاصرتِه، وأتْبَعها بطعنة أخرى في رقبته، وتناثرت الدماء الحارّة على ثياب الحضور.
بُهِتَ المدعوون من هول المفاجأة، وألجمَ الرّعب ألسنتهم، كما قيد أرجَلَهم لبُرهة قصيرة بدت كالسنة العجْفاء، ثم بدأ الناس يستفيقون من هول المفاجأة، فانطلقت سيقانهم تسابق الريح، لا يلوي أحدهم على شيء، هربا من الجحيم الذي فَغَرَ فَاهُ في هذا المكان.
استمر حَمَلة المشاعل بالصراخ وتوجيه الطعنات إلى المدعوين دون تمييز، أو كما كان يبدو حينها أنه دون تمييز، وملأت الدماء أرضية السّرادق ومقاعده وجنباته، كما انطلقت الحناجر بالصراخ والعويل، وسقط الشريف أرضا تسيل الدماء من أعضاء جسمه كافة.

على الجانب الآخر من السّرادق، رفع أحد الرجال طرف الستار، فظهرت من خلفه عينان زرقاوان تحاكيان عينا الصقر فوق أنف مدبب ولحية صهباء نحيفة وطويلة ترقبان المشهد في صمت، ولا تبدو على تلك السحنة أي تعبيرات تنم عن الرعب الذي عَقَدَ الألْسِنَة من حوله، ثم ترك طرف الستار يقع على الأرض ليسقط على البركة الصغيرة التي كَوّنتها الدماء النازفة من جراح الشريف سراج، ثم مضى لطَيّته، متخطيا تلك البقعة بالرغم من أن إحدى قدميه وطَأتها وتركت على نعله آثارا منها، ثم سار دون أن يلتفت إلى الوراء ثانية، وصعد إلى سيارته التي انطلقت تسابق الريح في شوارع البلدة حتى طوتها الظلمات.
بعد أن هدأت العاصفة، نُقل الرجل وقد فارقته الحياة إلى أحد المستشفيات المتواضعة الْمُزْرية القريبة، إذ لم يستطيعوا نقله إلى مستشفى مناسب، وأحيط المكان برجاله ولأول مرة يشاهد الناس هذا التجمع الكبير للسيارات الفارهة أمام هذا المستشفى المتواضع.

دخل الطبيب على عجل يلبس في إحدى قدميه خُفًّا، ويسحب الأخرى في أصابع قدمه، مُهَرْوِلا إلى غرفة العمليات، بعد أن استدعوه على عجل، وأوشك أن ينكَفِئ على وجهه، بعد أن تعثر في الهِرّة العجفاء التي تُرضع صغارها أمام باب الغرفة.

بعد الفحص الظاهري، تأكد له أن الشريف أُدخل المستشفى ميتا.

تم التكتم على خبر موته، حتى يتمكن ابن أخيه الوريث الأول من ترتيب أوراقه ولَمْلَمَة شعث أفكاره، ليستطيع إدارة هذا الحجم الضخم من الميراث الذي يشمل أرقاما فلكية من الأموال والعقار، حيث إن الرجل لم يترك أبناءَ ذكورا، وليس له إلا شوقي ابن أخيه من عَصَبَته، وكان مقرّبا منه في أخريات أيامه.

كان شوقي يعلم كيف اسّتأثر عمه بميراث أبيه من قبل دون إخوته الذين حاولوا الحصول على نصيبهم من ميراث أبيهم.

لكن الشريف سراج استطاع في غفلة من إخوته أن يجعل أباه يعطيه توكيلا عاما، فباع لنفسه جميع الأطيان والعقارات، حتى إذا قضى أباه نحبه ظهرت الحقيقة، ولم يستطع إخوته أن يحصلوا لأنفسهم على نقير ولا قِطْمير من ثروة أبيهم الطائلة. حتى أن أحدهم في قمة غضبه وغيظه، استل بندقية صيد عتقى كانت لأبيه، وأراد أن يقتل أخاه، فمنعه إخوته الباقون وعاشوا عيشة الكفاف حتى رحلوا عن دنياهم تملأهم الحسرة.

كان الشريف سراج ينشر بين أهالي بلدته أنه يوادّ أهل قرابته ويهتم بأمورهم، لكنها كانت كلها أعمال تصب في مجرى العلاقات العامة والدعاية التي كان يحتاجها لتجميل صورته أمام الناس، فقد كان يعشق الظهور والإعلام.

كان ابن أخيه شوقي قد تقرّبَ منه في صباه، وأصبح أطوع له من بنانه في حياته، ويعترف له في كل حين بفضله عليه بأسلوب يفيض رقة وأدبا، وأحيانا تَصَاغُرا، ولم يذكر مطلقا أن له نصيبا أو ميراثا، وكان هذا مما يشبع غرور الشريف سراج، فكان يكلفه بتنفيذ بعض الأعمال التي كان يأنف القيام بها بنفسه.

ثم توطدت الثقة بينهما رويدا رويدا، حتى أصبح شوقي يقوم بكل أعمال عمه تقريبا.

شوقي والشيخ مسعود

كانت العلاقة بين شوقي والشيخ وثيقة، لكن كان يَكْتَنِفَها بعضَ الغموض، ولم يكن أيّ من مساعدي شوقي يعلم بها.

كانت اللقاءات بينهما تتم في قصور الشيخ الخاصة وفقا لإجراءات غاية في الصّرامة، ولم تحدث أبدا في الأماكن العامة، كما لم يستعملا الهاتف مطلقا فيما بينهما.

في الباحة الخلفية لمنزله كان الشريف سراج يجلس مُتَّكئا على بِساط مفروش على العشب، ويمسك بالخرطوم الطويل للنَرجيلة ويجذبُ من أنفاسها مُتَلَذِّذًا بها، ومُطلقا هالاتِ من الدُّخَان الأزرق من شفتيه وخَيْشومه.

كان يجلس أمامه شوقي مُقْعِيا ينتظر إشاراته.

ودار بينهما هذا الحديث.

بدا خلالها أن شوقي مُتَحَرِّجا من بدء الحديث، وكان هذا جليًّا على سِحْنَتِه القَلِقَة وتعبيرات وجهه المترددة، وانتبه له الشريف سراج وسأله قائلا:

ـ (فيه إيه يا شقي)؟

فقد كان هذا الاسم الذي يحلو للشريف سراج أن يناديه به - بلهجة مرحة وحروف ممدودة.

ولما بدا على شوقي التردد نهره الشريف قائلا:

ـ (ما تنطق يا وَلَه، فيه إيه)؟

ـ (أبدا، بس الجماعة إياهم بيلسَنوا عليك كلام موش حلو)

ـ (بيقولوا إيـــه)؟

ـ (اعفيني يا عمي)

ـ (انطق يا حمار)

ـ (بيقولوا إنك بتخاف تخرج من البيت من غير حراسة وبيقولوا....)، ثم غاض الكلام في حلقه، ولم يستطع البَوح بما قالوا، ولاحت على وجهه علامات التردد.

فقال الشريف:

ـ (بيقولوا جبان... موش كده؟ مين اللي بيقول كده يا وله)، قالها بلهجته الفلّاحي المحببة
ـ (الشاكري بيه بيقول كده يا عمي).
ـ(طيب أنا حاوريهم).
واقع الأمر أن الشاكري لم يقل هذا قط، وإنما فهيم هو من أفرغ هذه المعلومة في أذن شوقي، لينقلها بنصها إلى عمه، ليوغر صدره على الشاكري.
كانت الاستعدادات تجري على قدمٍ وساقٍ للإعداد لعُرس ابنة الشريف سراج في قاعة الحفلات الكبرى التي بدا أنها لن تكفي المدعوين، فاضطر شوقي إلى استئجار سُرادق كبير ألحقه بقاعة الاحتفالات لكي تكفي العدد الضخم من المدعوين الذين سوف يحضرون من جميع البلاد المجاورة مجاملة للشّريف سراج، وكذلك طمعا فيما يَحْبُوهم به من العطايا.
كان الشريف سراج يهوَى الحفلات الكبيرة التي يظهر فيها كأنّه الفارس المعلم، ولما كانت من عادة الأفراح في تلك البلاد أن تطلق فيها النار بغزارة، فقد أوصى الشريف سراج بمنع ذلك مُطلقا، حتى لا يسبب أي نوع من الإزعاج للمدعوين الذين أتوا من الأصْقاع البعيد،ة ولا يعلمون شيئا عن عادات وتقاليد هذه البلاد، وشدّد على ابن أخيه شوقي ألا يسمح بذلك مطلقا، وقد وَعَى شوقي هذا جيدًا، والتزم به فقد كان ينفذ تعليمات عمه حرفِّيا، حتى وإن لم يفهم مُراده.
****

النظام الجديد

انقضت مراسم الدفن والجنازة على غير ما توقَّع شوقي، فقد كان عدد الْمُشَيِّعين قليلا والجنازة باهتة باردة لا حرارة فيها، ولا تتناسب مع مكانة الشريف سراج ولا مع عدد الناس الذين كانوا يحيطون به في حِله وترْحاله.

شَعر شوقي من قلة عدد الْمُعَزين أن الناسَ لا يأبَهون له، ويَرَوْنه ضعيف الشخصية، سطحيَ التفكير، سقيم الخيال، وأنه قد يفقد الثروة الكبيرة التي تركها له عمه، وأنه لن يُحسِن تدبيرها.

ومن الغريب أن شوقِي كان يعلمُ هذا من نفسه أيضا، ولم يكابر في ذلك، فسمع نصيحة "الهانم" زوجته بأن يوظف أحد الخبراء في شؤون المال، ليساعده في إدارة أمواله، كما منعته من ردٍّ نصيب أولاد عمومته الآخرين وحقوقهم في ميراث آبائهم التي منعهم إياها الشريف سراج في حياته قائلة له:

ـ المسؤولية تقع على عمك، ولا شأن لنا بذلك، وقد أصبح هذا حقنا وميراثنا وحدنا، وحسمت الأمر من تلك الساعة.

ولدهشة المقربين من شوقي أن وقع اختياره على فهيم الذي كان لا يخفي كراهيته ومَقْتَه الشديد لعمه الشريف سراج.

لكن فهيم أبْهَرَ شوقي وأقنعه بقدرته على تثَمْير أمواله ومضاعفَتِها في فترة وجيزة، فسال لعاب شوقي للأرقام التي سمعها من فهيم، ولم يدر أن فهيم يتلاعب به لمصلحته، ولما تمكَّن فهيم من إدارة أعمال شوقي بادر إلى تحويل شركات عمه الخاصة إلى شركات مساهمة، وبدأ في بيع بعضٍ من الأسهم إلى أقربائه، مُتَعَلِّلا بحاجته إلى السيولة، ليتمكن من إحلال وتجديد بعض المصانع التي عَفَى عليها الزمن، وأصبحت بحاجة إلى تحديث.

مع مرور الوقت أصبح المساهمون الجدد أصحاب السّطْوة في الشركات، ولا يحصل شوقي إلا على الفتات.

في كل مرة يواجه شوقي فهيما بما يصل إليه من معلومات، إلا ويجد لدى فهيم الحُجّة الحاضرة والعذر الواضح، ولا يخرج فهيم من المقابلة مع شوقي إلا وقد

أقنعه ببيع مزيد من الأسهم، لأن هذا هو الحل الأمثل في نظره للاحتفاظ بمكانته المالية التي كانت في الواقع تتآكل شيئا فشيئا لمصلحة فهيم وذوي قرابته.
تمكن فهيم من بيع إحدى الشركات الكبيرة بالكامل لنفسه من خلال شريك خفي، بحجة أن خطوط الإنتاج في هذه الشركة قد انتهى عمرها الافتراضي، وأصبحت عبئا عليهم، وبالتالي فإن التخلص منها تماما أفضل من الإبقاء عليها ودفع رواتب ضخمة "للتنابلة" الذين يعملون فيها، كما كان يدعوهم.
لما أصبحت الشركة في حوزته سرح عددا ضخما من أفرادها، وألقى بهم في عرض الطريق، واستجلب خبراء في الإدارة ليقوموا بإعادة هيكلتها كما أراد.
***
(منّك لله)، صدرت بصوت مُلتاع مُتهدج.
قالها أحد العمال المفصولين لشوقي عندما كان الأخير يتَرَجَّلُ من سيارته أمام الشركة التي تَبَقَّى له بعض من أسهمها، ولم يَسَع شوقي إلا أن يُشيحَ برأسه بعيدا عن العامل، متظاهرا بعدم الانتباه.
تقاطعت مصالح فهيم مع أحد الخواجات في الحاجة إلى إزاحة الشريف سراج، وكان فهيم قد اتفق على كافة التفاصيل مع الشيخ نيابة عن شوقي، خصوصا وقد التقت مصالحهما، وكان الشريف يقف حجر عثرة أمام طموح فهيم، وقد غرس فهيم الفكرة بشكل جهنمي في عقل شوقي.
في كل مرة كانا يلتقيان كان فهيم يبلغ شوقي بأخبار مُلَفَّقَة عن عمه تجعله يزداد حقدا وحنقا عليه، ويتمنى زواله، خصوصا وقد كان الشريف سراج لا يخفي إهاناته المتكررة لشوقي أمام الحضور، بل يتمادى فيجعله هدفا لسخريته ونكاته اللاذعة، وكان هذا مع أسباب أخرى ما أوْغَرَ صدر شوقي على عمه، وقد قال شوقي لفهيم في معرض حديثه عن التخلص من عمه يشكو إليه طريقة الشيخ في الاتفاق:
ـ (أنا ما بعرفش أتفاهم مع الناس دي، ليهم طريقة غريبة وموش مفهومة في اختصار الكلام، وأنا أحب الوضوح).

ـ (ما تقلقش أنا رايح اتفق لك مع الشيخ مسعود، بس انت جهز المبلغ اللي قال لك عليه).

كان شوقي لا يعرف إلا الخطوات المحددة والأوامر الواضحة الْمُفَصَّلة، كما لو كان هناك سدّ منيع أمام عقله يمنعه من البحث في البدائل أو الاستنتاج أو التَّخيل لما قد يكون، ولما كان عمه يكلفه بمهمة كان يصف له كافة تفاصيلها، لعلمه أنه يتَّصِفُ بفقر الخيال ومحدودية الأفق، ولا يجيد إلا طاعة الأوامر، ولا يحب أن يرهق نفسه بالتفكير في ماهيّة الأمور ولا معرفة كُنْهِها، وكان هذا من أهم الأسباب التي قرّبت شوقي من عمه، حيث يتمتع بالطاعة العمياء والطموح المحدود.

لم يكن شوقي ذا عقل يسمح له بالتفكير في سقف أعلى مما يسمح له به عمه. لكن فهيم استطاع بدهائه أن يستغل ذلك في إدخال شوقي في عالم آخر من الخيال الجامح الذي لا حد له، فقط بمجرد إزاحة العم سراج من طريقه، وبعد أن يحصل على ثروته الكاملة، يستطيع فهيم أن يديرها له ويضاعفها في فترات قصيرة، وكان يحدثه عن النعيم الذي سوف يَرْفُلُ فيه وعن مظاهر العزِّ والفخامة التي سيُوَفِّرها له دخوله كلاعب رئيس في المقاطعة بدلا من عمه الذي اكتسب عداوة الأهل بهذا النسب الجديد. وكان مما أقنعه به أنه سيستفيد من الصهر الجديد بسبب علاقاته المتشعبة بذوي المال والنفوذ، وليس عليه أن يبرر للناس سبب المصاهرة، فقد تحمل عمه الراحل عنه اللَّوم، وورث هو حسنات هذا الوضع، وليس عليه أي ذنب في سيئات هذه المصاهرة وهذه العلاقة، فماذا عليه إن استغلها إلى أقصى حدود استطاعته؟

وقد حل فهيم محل عمه في توجيهه وتذليل العقبات أمامه.

ورث شوقي من ضمن ما ورث طائرة عمه الخاصة التي كانت تجلب لهم المأكولات والمشروبات ساخنة وطازجة من يد أفضل الطهاة في باريس ولندن، إذا حالت الظروف دون قيامهم بتناول وجباتهم في تلك العواصم التي كانوا يسافرون إليها أسرع مما ينتقل الناس من حي إلى حي داخل القاهرة.

كان شوقي يتذكر أسماء الطهاة أكثر مما يتذكر أسماء مساعديه، فقد كان نَهِمًا أكولا، وترتب على ذلك التفريط في جانب كبير من الشركات التي تركها عمه لمصلحة فهيم أو أحد شركائه.
كان شوقي شحيحا فيما يخص أملاكه قبل رحيل الشريف سراج، وقد حدثت مشادة بينه وبين السفرجي في بيته عندما استهلك ثلاثة كيلوجرامات من اللحم في أسبوع، ونهره قائلا:
ـ "حرام عليك تلاتة كيلو في أسبوع!"
وبعد أن استولى على الميراث الضخم، أقام مأدبة كبيرة لذوي قرابته وأصدقائه، وقد أشرف بنفسه على ترتيب الأدوات وتجهيز المأكولات، ولفت انتباهه أن السفرجي وضع قوارير للمياه المعدنية من ماركة "بيريه"، وكانت قوارير بلاستيكية، فنهره قائلا:
ـ أنا قلت قوارير زجاجية وليست بلاستيكية!
فأوضح له السفرجي أن المحتوى واحد، والبلاستيكية أقل سعرا، فزجره قائلا:
ـ "هوه انت بتجيب من بيت أبوك؟"
وكان ظاهر الأفعال يدل على أن شوقي هو صاحب القرار النهائي، وهو من بيده مقاليد الأمور، بعكس الواقع.
******

الخواجا سميث

كان الشيخ يلتقي مذكور بك بشكل دوريٍ كل شهر مرة أو مرتين، يتبادلان الأحاديث الودِّية، بالرغم من أنه كان يتقاضى منه أتعابًا كأي عميل آخر، إنما كانت تَطيب له صحبته، ومع ذلك لم يكن يُفضي إليه بأسراره، بل يعطيه منها ما يشفي غليله، ولا يترك عليه أثرا لو جرت الرياح بما لا تشتهي السفن.

ذات لقاء في حديقة قصره، كانا يتسامران، وسأله مذكور بك سؤالا مباغتا:

ـ كيف استطاع فهيم توسيع أعماله بهذه السرعة؟

قال الشيخ، وقد أشار إلى إحدى الأشجار السامقة التي تظلل مساحة واسعة من الأرض في حديقة قصره:

ـ انظر إلى هذه الشجرة إن اسمها "التين البنغالي"، وهي تتكاثر بالجذور الهوائية، أتدري كيف؟

لم ينتظر الشيخ إجابة، وإنما استطرد قائلا:

ـ إن أحد أغصانها الرقيقة الطرية الناعمة يتدلى من السماء ليُلامِسَ الأرض اللَّينة التي تنمو فيها الأعشاب والحشائش، ويخترقها وينشئ فيها جذورا جديدة، ولا يلبث هذا الغصن أن ينمو ويغْلُظ ويشتدّ، إلى أن يصبح جِذْعا كبيرا وينشئ غصونا وارفة تغطي مساحة واسعة من الأرض تقتل النباتات الصغيرة الضعيفة التي أسفلها، لأنه يحجب عنها الضياء ثم تخرج منه أغصان جديدة تتدلى لتلامس الأرض التي خلت من الزروع والنباتات، لغياب أهم مصدر للحياة لها وهو ضياء الشمس، وتتكرر هذه العملية طالما هناك أرض جديدة خالية من الأشجار القوية أو الجدران، فتجد فيها الأغصان موطئا لها، ولا تلبث أن تصبح غابة كثيفة متشابكة تشتجر فروعها وتتنداح وتتسع كالدائرة التي يصنعها الحجر إذا أُلْقِيَ على سطح البحيرة الساكن.

فجأة قطع رنين الهاتف المحمول حبل الحديث، فقد جاءت مكالمة هاتفية للشيخ أثناء سيره مع مذكور بك، فاستأذن قليل.

دارت المحادثة باللغة الإنجليزية.

ـ مرحبا، هل أنت الشيخ مسعود؟
ـ من يسأل؟
ـ لقد حصلت على رقمك من السيد ماكفرسون الذي يود إبلاغك بإلغاء عملية "النسر الأصلع"، وبدلا من ذلك لدينا عملية أخرى نريدك أن تنفذها بما عُرف عنك من التزام الدقة في التنفيذ، ولي الشرف أن ألتقيك في جناحي بفندق هيلتون اليوم الساعة الخامسة.
ـ أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم!
ـ هذا صحيح، أقدر لك حذرك، إلى اللقاء.
عندها أغلق الشيخ مسعود الهاتف وقال: رقم خاطئ. ثم استأنف حديثه مع مدكور بك كأنه لم ينقطع، متذكرا بالضبط النقطة التي قاطعه فيها رنين الهاتف، وكأن شيئا لم يحدث.
كانت الساعة الرابعة والثُلُث عصرا، فأتمَّ حديثه مع مدكور بك دون أن ينظر الى ساعته، وإنما رَمَقَ بطرف عينه ساعة الحائط المعلقة على جدار البِرجولا الخشبية، ولما قاربت الساعة الرابعة والنصف، بدا عليه أنه تذكَّر موعدا مع طبيب الأسنان، فاستأذن من مدكور بك وانصرف.
كانت الأفكار تتزاحم في رأس الشيخ مسعود، ثم ظهر طيف ابتسامة خفيف على وجهه، عندما تذكر كلمة "النسر الأصلع"، وقال في نفسه: ما بال هؤلاء القوم يسمون عملياتهم كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة؟

في الخامسة تماما كان الشيخ مسعود واقفا أمام باب الجناح الخاص بالسيد سميث الذي هاتَفَه منذ قليل.
طرق الباب بلطف وانتظر بُرهة قصيرة انفتح خلالها الباب، وظهر السيد سميث بقامته الفارعة وملامح وجهه الضخمة التي كان فيها كل شيء كبيرا، بدءا من عينيه الواسعتين اللتَّين يعلوهما حاجبان كثيفان كالعشب الأشعث وأنفه الضخم الأقْنى، وانتهاءً بشفتيه الغليظتين وذقنه الذي يشبه الخشب المصقول.

رحب السيد سميث بالشيخ بصوته الأَجَشّ العميق، وتقدمه إلى الصالون الأنيق، فبادره الشيخ قائلا:

ـ أنا لا أفضل الطريقة التي استدعيتني بها، يجب أن تعطيني وقتا كافيا.

تحدث السيد سميث كأنه لم يسمع تذمّر الشيخ من طريقة استدعائه، وأكمل قائلا:

ـ إن جدولي مزدحم، وعليّ أنا أسافر الليلة، فرحلتي في الساعة العاشرة، لذلك استدعيتك، يجب عليك أن تبدأ ما خططنا له بالنسبة للسيد سراج وفورا.

ـ هل هناك أي عقبات أو أمور طارئة؟

ـ لا، على الإطلاق، فقط نفذ.

قال ذلك وأعطاه ذاكرة الكترونية، وأتم حديثه قائلا:

ـ في هذه الرقاقة سوف تجد كل التفاصيل التي تحتاجها، وأرجو أن أتلقى أخبارا طيبة عاجلا.

قال الجملة السابقة وهو يصطحبه إلى الباب مودعا، وانقضت المقابلة فيما لا يتجاوز ثلث الساعة.

كان السيد سميث عمليا، والوقت عنده له ثمن، وهو لا يحب إضاعته في المجاملات الفارغة، كما كان يقول، وكما تحدث إلى الشيخ في أول مقابلة بينهما، وطلب منه أن يتعامل معه بنفس الروح.

دار بينهما هذا الحوار قُبيل عقد قران ابنة الشريف سراج بأسبوعين كانا كافيين ليقوم الشيخ بعمله بالدقة والكفاءة اللّتين امتدحهما فيه السيد سميث.

****

في إحدى قاعات الاجتماعات في مكان ما في إحدى الدول دارت هذه المناقشة باللغة الإنجليزية بين مجموعة من الرجال بأزيائهم الرسمية، وكانت هناك سيدة في أقصى الغرفة تجلس على طاولة منفصلة تسجل الحديث.

بدأ الحديث أحد الرجال الذي بدا عليه أنه يحتل منصبا كبيرا موجها حديثه للسيد سميث قائلا:

ـ أعتقد أن الخطة جاهزة للتنفيذ، هل شرحتها للشيخ مسعود؟

ـ هو بالفعل لديه علم بها من آخر لقاء بيننا، لكن عليّ أن أحيطه علما بالتعديلات الجديدة.

ـ يبدو هذا جيدًا.

ـ لماذا علينا التخلص من سراج؟

ـ من فضلك لا تذكر أسماءَ في مثل هذه الاجتماعات.

ـ آسف، لكن سؤالي مازال قائما.

ـ لقد تجاوز الخطوط.

ـ كيف؟

ـ لقد ظنَّ أنه رجل أعمال حقيقيَ، وهو تقريبا نسيَ أننا من جعلنا له نفوذا وأموالا.

ـ وهل هذا سبب كافٍ للتخلص منه؟

ـ لا، لكن هناك ظروفًا إقليمية وترتيبات جديدة ليس بمقدوره أن يكون جزءا منها.

ـ لكنه رجلنا!

ـ لكن بضاعته على وشك الفساد.

ـ ومن الذي سوف يفي باتفاقاتنا التجارية؟

ـ خليفته، الذي تم إعداده جيدًا.

ـ ذاك الأحمق!

ـ إنه رائع لهذه الفترة، وقد تم اتخاذ هذا القرار بعد مناقشات مضنية وساعات طويلة من العصف الذهني على كل مستويات الإدارة.

****

المذيع الشهير

دخل مساعد المخرج وبِصُحْبَتِه مُعِد البرنامج على المذيع الشهير حاملا بيده بضع وريقات، وبدأ في تلاوتها عليه، موضحا له كيفية إلقاء الخبر بصيغة التساؤل، ثم إعادة صياغة رد الضيف بما يودُّ أن يصل إلى المشاهدين.

اختطف المذيع الورقة من يده في جفاء، وألقاها على المكتب ضاربا عليها براحة يده قائلا:

ـ أنا لا أستطيع أن أحفظ هذا السيناريو كاملا، لدي أشياء كثيرة تشغل بالي، (إنت خليك معايا واحدة بواحدة وأنا بكلِّم الضيف، ووجِّهني في "الإير بيس"، ولو سمحت بالراحة علشان اليومين دول أنا استيعابي ضعيف).

كان المخرج من ذوي العلم والخبرة، وقد دخل إلى المهنة عن هواية ورغبة عارمة في نفسه، وقد حاول جاهدا أن يكون شريكا في برامج محترفة وهادفة، لكن هذا هو المتاح الآن، فاضطر للعمل في هذه القناة رَيْثما يتمكن من البحث عن قناة أفضل وأكثر احترافا.

بعدها جرفه التيار بعيدا عما كان يأمل، وأصبح عبدًا لعبد المأمور، ثم أصبح هو من يتلاعب بالأخبار ويُكَيِّفَها بخبرته وحنكته على غير ما كان يحب، ثم أصبح يجيد تبرير المواقف الواضحة للعيان ويُغَلِّف الكذِبَ بِسَيْماء الصدق.

كان مخرج البرنامج يعرف كيف يتلاعب بالمواقف التي تُثِير العواطف، فأصبح فريق الإعداد والمخرج طبعة واحدة جديدة لذلك الإعلام اللزِّج الذي أصبح هو المطلوب والرائج.

كان المذيع قد استَنْفَدَ كل الإنذارات التي وُجِّهت إليه للالتزام بمواعيد البرنامج والتَّقَيّد بالأسئلة التي توضع له، لكنه كان ينسى كثيرا من الأسئلة التي يجب عليه توجيهها للضيف، وتختلط أمامه الأوراق، وذلك بسبب استهتاره وعدم التزامه، وكثيرا ما كان يؤدي ذلك إلى حدوث رد فعل من المشاهدين عكس المقصود.

انتشرت الكثير من الفقرات المحرجة له على شبكة الإنترنت التي أخذت بشكل انتقائي، وأصبح المذيع وبرنامجه مادة شهية للبرامج الساخرة منه ومن القناة، وغصت مواقع التواصل الاجتماعي بالفقرات المجتزأة من أحاديثه وسقطاته.

عند ذلك قرر مالك القناة استبداله بمقدمة البرامج الذكية آمال العادلي ذات الوجه الصبوح والطلّة البهية، وهي أكثر احترافا وذكاءً منه، لتقدم البرنامج بدلا عنه، ولتستحدث اسما جديدا له.

كان مالك القناة يتدخل كثيرا في تحديد نوعية البرامج وطريقة إعدادها واختيار الضيوف، وأحيان نوعية الأسئلة، بالرغم من أنه كثيرا ما يذكر أنه لا يتدخل مطلقا في عمل القناة في لقاءاته العامة والخاصة.

*****

أوهام حقيقية

كان الفتى عبّود أذكى مما يبدو عليه، واستغل جيدا هذا المظهر في الحصول على بعض المعلومات التي تضيء ما استغلق عليه فَهْمَه.

كان فيما مضى قد سمع من خطيب المسجد أن أهل الجنة لا يمرضون ولا يتألمون، فما إذن تلك النَدْبَة على ذراعه، والتي ظهرت فجأة بعد خروجهم من "الجنة" وإفاقته من النوم، كما يزعم الشيخ، خصوصا أن بقعة الدم التي تغطيها مازالت رطبة.

لكن الترف الذي يَرْفُلُ فيه عبود جعله يطرد كل شك ينتابه بين الحين والآخر، ويحاول بشتى السّبل إقناع نفسه بأن الشيخ صادق فيما يقول ويفعل، بل ويختلق كثيرا من الأسباب التي قد تكون سببت تلك النّدبة، ويتلمّس كل الطرق لإقناع نفسه بها.

كانت تلك الندبة قد حدثت جرّاء بروز معدني في باب الحافلة التي أقلتهم من الجنة، وقد حدثت لعبود أثناء فقدانه الوعي ساعة أن نقلهم الخدم على المحفات إلى الحافلات، لذلك لم يتذكر عبود على الإطلاق متى وأين حدثت له، كما أن الخدم لم ينتبهوا إليها لبساطتها، لكنها أوحت لعبود فكرة ما عندما اكتشفها.

أصبح الفتيان يحلمون "بالجنة " كل أسبوع أو عشرة أيام، كلما اقترب موعد تنفيذ إحدى العمليات.

كان الشيخ قد استوعب كثيرا مما قرأه في علم النفس، وعَلِمَ أن التحفيز النفسي له وسائل متعددة، فكان يجربها على الفتية.

في أحد تلك الأحلام راودت الفتى فكرة أنهم في مكان رائع، لكنه ليس حلما، وليست الجنة، وأراد اختبار ذلك.

خبأ عبود قطعة من الحلوى التي قدمها إليه خادمه في طيات ثيابه، لكن تلك الفكرة فشلت، إذ اكتشفها الخدم لدى تغيير ثيابهم التي يكونون فيها عند

دخولهم إلى القلعة، وعزا الشيخ ذلك إلى نَهَمِ الفتى وَولوعه بهذا النوع من الحلوى.

عندما أفاق الفتى ولم يجد قطعة الحلوى، تأكد أن ما حدث لا يعْدو أن يكون حُلما حقيقيا، واستراحت نفسه قليلا لهذا التفسير، لكن الفكرة كانت تراوده بين الحين والآخر، وتُلح عليه، خصوصا عندما يكون في الفردوس.

لم يكفّ الفتى عن محاولاته الحذرة لاستكشاف الجنة المزعومة، ولما فقد الأمل في أخذ أي شيء منها تذكر تلك الندبة، وهداه تفكيره إلى أن يجرح نفسه أثناء وجوده فيها، فإذا صَحِبَه هذا الجرح بعد استيقاظه فهي ليست جنة ولا يحزنون، أما إذا لم يكن له أثر فهو حلم فعلا، كما يقول الشيخ.

قام الصبي المرافق لعبود بإبلاغ الأعرج أن عبود قد جرح نفسه في ذراعه جرحا بليغا، وطار الخبر إلى الشيخ الذي أرسل الدكتور على الفور إلى الفردوس.

تم استبقاء عبود في الجنة إلى أن برئ جرحه تماما، وتمت خياطة الجرح بطريقة رائعة تحت التخدير الكامل، لكن مازال على ذراع عبود أثر خفيف من جراء الجراحة التجميلية الدقيقة التي أجريت على ذراعه لإخفاء آثار الجرح وكانت غير ملحوظة إلا لمن يدقق فيها.

أفاق الفتى في مكانه المعتاد وتفقد مكان الجُرح الذي أحدثه لدى احتكاكه بفرع الشجرة في القلعة، فوجد علامات الجُرح ظاهرةً حتى بعد العلاج الدقيق الذي قام به الدكتور لإخفاء آثاره، فقد كان الفتى هو من أحدثه.

تَيَقَّنَ عندها الفتى أن هذا المكان ما هو إلا أُكْذوبة، وثارت في نفسه أسئلة لا آخر لها.

****

إماطة اللثام

مر عبّود مخترقا البهو الكبير إلى حيث ينتظره بسيوني، وأثناء مروره تَنَاهَى إلى سمعه صوت مألوف له جيدا، لكنه لم يعرف من صاحب هذا الصوت، فأصاخَ السمع جيدا، وأصابته دهشة شديدة جعلته يتسَمَّر أمام الباب فاغِرا فاهُ، وكان سبب الدهشة العميقة أن صاحب هذا الصوت هو عبّود نفسه، وكانت هذه أول مرة يسمع عبّود صوته عبر جهاز تسجيل، فَلَبِثَ في مكانه يَتَسَمَّع.

كان حديثا بينه وبين أحد الفتيان في عنبر النوم، وكانت تتخلله قفشات ونِكات وأحاديث عادية مما يشغل بال الشباب، لكن ما شد انتباهه هو الصوت الآخر الذي اختلط بهذه الأصوات، لأنه كان أكثر وضوحا، إذ كان الشيخ مسعود يناقش السباعي مهندس الاتصالات، وأرْهَفَ عبّود سمعه جيدا، فوصل إليه الحوار التالي:

قال الشيخ:

ـ تظنَّ يا سباعي أن عبّود يشك في شيء؟

ـ لا أظن، لكن اتخاذ الحيطة والحذر واجب.

ـ فما تعليقك على قوله: الجنة لا يدخلها إلا من مات؟

ـ أعتقد أن عبّود أذكى مما يبدو عليه.

ـ لقد اكتشف أن الجُرح لم يبرأ، وهو يعتقد أنه قد حدث له في الجنة.

ـ عبّود عنصر جيد ومطيع وبارع في التنفيذ، ومن الجيد الاحتفاظ به.

ـ أنا لا أحتفظ أبدا بمن يثير شكوكي أو تُثار شكوكه.

ـ لكنه حتى هذه اللحظة لم يفعل شيئا سوى التساؤل!

ـ إذن ضعه تحت الملاحظة الدقيقة، ثم نقرر فيما بعد ماذا نفعل بشأنه.

قال الشيخ ذلك وتأهَّبَ للخروج، فترك عبّود موقعه أمام الباب في خفة وسرعة، متوجها إلى موعد بسيوني وقلبه يخفق بشدة.

عاودت عبود الوساوس القديمة والشكوك، لكنها هذه المرة اقتربت كثيرا من الحقائق.

قبل إحدى العمليات الكبرى، قرر الشيخ أن يرسل الفتيان إلى الفردوس بعد تغيير الديكورات، وإضافة وسائلَ إبهارٍ حديثة، وإدخال أنواع جديدة من الطعام الفاخر والفاكهة الغريبة على الفتيان، وقام بسيوني بعمله كالمعتاد، وحضر الفتيان إلى الوليمة المعتادة، غير أن عبّود كان قد أَضْمَرَ في نفسه أشياءَ أخرى.

جلس الفتيان إلى الطاولة كالمعتاد وتناولوا طعامهم بكل نَهَمٍ، إلا عبّود الذي كان يتَلَمَّظُ متظاهرا بالأكل، وآلاف الأفكار تدوي وَتَطنُّ في رأسه كَطَنِيْنِ النحل.

قرّب إليه بسيوني كأسا من العصير الممزوج بِمُرَكَّبَات الدكتور، وكان الشك قد ملأ قلب عبّود من كل شيء.

تناول عبود الكأس من بسيوني بحذر وَقَرّبَها من فيه ببطء، ثم ازْدَرَدَهَا دفعة واحدة.

تظاهر عبّود أن شيئا ما دخل في حلقه، فهرع إلى الحمام. وفي الحمام أقحمَ سبابته في حلقه، فأفرغ ما في جوفه كاملا في الحمام.

غسل يديه وخرج إليهم، وكان الفتيان قد انتهوا من طعامهم وجلسوا يستريحون.

كان عبّود يرقب المشهد في صمت، وإذْ بالفتية يسقطون في النوم العميق واحدا إثر واحد، وما هي إلا برهة حتى ارتفع صوت غطيطهم، فما كان من عبّود إلا أن فعل مثلهم، وإن كان يباعد بين أجفانه بين الفينة والأخرى بحذر شديد، فيرى مشهدا عجبا.

رأى الخدم وهم يحملونهم إلى الْمَحَفَّات ثم إلى السيارات ومن ثم الرحلة الطويلة إلى الفردوس.

كان حينها قلب عبود يخفق بشدة كجناح الطائر، فَرَقًا من المشهد الذي يراه.

كان المخدر لم يفعل شيئا لعبّود، على العكس من أقرانه الذين كانوا كالموتى، حتى دخلوا إلى الفردوس وبدأوا يستيقظون.

كان آخرهم استيقاظا عبّود الذي انتظر حتى صحا آخرهم، ليبعد عن نفسه أي شك، وبذلك اتضحت بعض معالم الصورة لعبّود.

عاد الفتيان إلى المقر ككل مرة، لكن عبّود الذي عاد لم يكن عبّود الذي ذهب.

التمرد

اجتمع الفتيان بقيادة عبّود في مكان يعلم أنه خالٍ من أجهزة التَنَصُّتِ المزروعة في مقارِّ الشيخ، حسب طلب عبّود<

استكمل عبّود حديثا كان قد بدأه من قبلُ قائلا:

ـ الآن وقد علمتم أنه ليست هناك جنة ولا يحزنون، وأن الشيخ هو من يقنعنا بذلك، ويكذب علينا.

انبرى أحد الفتيان اسمه سعيد الأشهل، معترضا على كلام عبّود ومقاطعا له، قائلا:

ـ اسمع يا عبود إياك أن تتحدث هكذا عن الشيخ، ثم أنا لا يهمني إن كان الشيخ صادقا أم كاذبا، وإن كنت أعلم أنه لا يكذب وهو قد وفر لنا هذه النعمة التي نَرْفُلُ فيها. أتريدنا أن نترك هذا النعيم لأن الشيخ كاذب؟ وأنا على استعداد لأن أموت لأجله.

قال عبود بلطف بالغ وابتسامة حانية:

ـ يا حبيبي يا سعيد... نحن مجرد أدوات في يد الشيخ لتنفيذ مهمات محددة، ثم يلقينا في سلة المهملات كما يلقي منديله، بعد أن يُلَوِّثه بقذارته.

ـ لقد كنا جياعا فأطعمنا وعراة فألْبَسَنا، وكنّا نفترش الأرصِفة فعَرَفنا منه الأسرّة والوسائد والطعام الفاخر، وكنا نبيت معظم الأيام تتلوى بطوننا من الجوع والمرض، وبعضنا كان يقْتات من سلال القمامة. نحن الآن قد ضَمِنَّا حياتنا إلى الأبد طالما أن الشيخ مسعود راضٍ عنَّا.

قال أحدهم بنصف ابتسامة وحروف ممدودة كأنه يغنِّيها:

ـ وعرفنا الحشيـــــــش.

قال سعيد معترضا بحماس شديد، وبصوته الأجش، ويبدو واثقًا من كل كلمة يقولها، موجها كلامه إلى ذاك الفتى:

ـ إنه ليس حشيشا، إنه بخور الصالحين أيها الجاهل، بخور الصالحيــن.

قال عبّود:

ـ لا تضحك على نفسك يا سعيد إنه حشيش، حشـــيش.

قال سعيد بحدة:
ـ يا أخي اتركني أضحك على نفسي، أنا سعيد بهذا، وإذا كنت تعرف أنه حشيش فلماذا تتعاطاه أنت أيضا؟ أنت مثلنا غارق فيما نحن فيه، ومع ذلك فأنا مقتنع بأنه ليس حشيشا.
ـ نعم أنا غارق، لكنني أودُّ انتشالنا جميعا.
ـ أنت واقعٌ في مشكلاتٍ كثيرة، فمن أين لك هذه الحكمة؟
ـ من المشكلات التي وقعتُ فيها!
ـ عليكَ بنفسك... نحن راضون.
ـ تحدث عن نفسك فقط يا سعيد.
ـ هم أمامك فاسألهم.
قال أحدهم ورسم على وجهه تعابيرَ الحكمة والتجريب:
ـ كلنا نتعاطى، وكلنا مرتاحون لهذا الوهم الذي نعيش فيه، سواء أكان حشيشا أم قطرانا، ولا نتمنى أبدا أن نُفيقَ، بل وأصبحنا نخشى أن نفيق.
قال عبود:
ـ نحن كالدجاج في الحظيرة تأكل وتشرب، وإذا جاء الضيف وجاء أوان الذبح قدموا أسمنَها للسكين، ويدافع بعضنا بعضا لينال شرف النحر على مذبح الفردوس والحشيـــش.
نظر عبود في عيني سعيد بكل حدة وأردف قائلا:
ـ قل لي أين محمود العزاوي؟ وأين رجب اليتيم؟
فلم يرد سعيد، وإنما نكّس رأسه إلى الأرض، فقال أحد الفتية وكان منزويا بعيدا عنهم، وتبدو عليه البلاهة:
ـ أنا لا أتعاطى الحشيش، أنا أجلبه لكم فقط.
قال عبّود بلطف:

ـ يا عزيزي كلنا نتعاطى، غير أن الجرعة تختلف "ومن جاور الحداد ينكوي بناره". والشيخ يعاطينا الحشيش وغيره، ويجعله متاحا لنا بكل السبل، حتى نظل في حالة انتشاء دائم وطاعة أبدية لأوامره.

قال سعيد وقد فقد الأمل في إقناع عبود بالتراجع عن أفكاره:

ـ لقد أتلف ثامر ما بقي من عقلك بكتبه ومجلاته التي تسهر عليها.

كان محمود العزاوي ورجب اليتيم من الفتيان الذين كُلِّفوا بعمليات أخفقوا فيها، وتم التخلص منهما دون أن يتركوا خلفهم أثرا، ولم يدر أحد من بقية الفتيان ما الذي حدث لهما، فهم قد دخلا إلى الغرفة السوداء ولم يخرجا منها أبدا.

انقسم الفتية إلى أكثر من فريق بعضهم انضم إلى عبّود، ويريد استكشاف ما غَلُقَ عليهم فَهمه، وأن يتخلصوا من سطوة بسيوني والشيخ مسعود.

كان عبّود يتحرّقُ شوقا لاستكشاف أسرار الشيخ مسعود، ويودُّ أن يعرف ما الذي يجنيه من إيواء هذا العدد الضخم من الفتيان والإنفاق عليهم بسخاء.

والفريق الآخر لا يريد أن يُتْعِبَ ما لديه من قدرة محدودة على التفكير في ما يريد الشيخ منهم، فهم يستمتعون بما يوفره لهم الشيخ من متع وملذات في مقابل أدائهم للمهام التي تُطلب منهم، وهم يعتقدون اعتقادا جازما في أن الشيخ بيده "مقاليد الجنة والنار"، حتى أن أحدهم قال لعبّود مُحْتَدًّا عليه:

ـ أنا لو طلب مني الشيخ أن أُلقي بنفسي إلى النار لفعلتها راضيا، وأنت تريد أن تجعلنا نتمرد على الشيخ لأنك تكرهه وتكره بسيوني، يا أخي اتركنا نعيش حياتنا كما نريد.

وقال أحدهم مؤيدا له:

ـ أنت ما شأنك بنا يا عبود؟ نحن أَلِفْنَا هذه الحياة ولا نريد الخروج منها.

قال عبّود متلطفا معهم:

ـ يا إخواني لا يدخل الجنة إلا من مات، أفَمِتُم حتى تدخلونها؟ وما هذه الجنة المزعومة إلا مكان مُعَدٌ من قِبَلِ الشيخ لإقناعنا بأنه "الجنة".

ـ بل هي "الجنة"، وأنت تكذب، ونحن لم نرها إلا في الحلم فقط وليس في الحقيقة، فلماذا الموت؟
ـ فما يكون موقفك إذا أثبتُّ لك أنها ليست حُلُما وليست جنة كذلك؟
ـ لن أصدقك ولو مشيت أمامي على الماء أو طِرت في الهواء، وأنت يا إما يا فلاح، يا إما صعيدي - قالها بتهكم -
ـ أنت لست من الذكاء بحيث تعرف أنها ليست إهانة.
لكن الفتى لم يفهم مقصد عبود من الجملة الأخيرة، فنظر إليه ببلاهة يستفهمه، لكن عبود أقفل النقاش، لأنه اعتقد أن الحوار قد وصل إلى طريق مسدود، غير أن بعض الفتية بدأوا يفكرون فيما قال عبّود، وبدأ الشك يتسلل إلى قلوبهم، بالرغم من أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يتمنون لو أن عبّود يكذب، وأن كلامه مجرد هراء وتَخَرّصَات ليس لها ما يؤيدها من الواقع، طمعا في الاستمرار في ذلك النعيم.
كان هناك فريق ثالث لا يشارك في المناقشات، ولا يؤيد ولا يعترض، غير أنه يميل مرة في جانب عبّود، ثم يجذبه النعيم والأمن والمأوى إلى جانب الأشهل، لكن أحد الفتيان، واسمه عزيز، كان منزويا لا يشارك في المناقشات، ويعتبر نفسه غير معنيَ بما يقولون، ويبدو كما لو كان يخفي سرا دفينا في صدره لا يبوح به لأحد.
اقترب من عبود وأعطاه قصاصة ورقية سقطت عرضا من بسيوني، لم يلتفت لها عبود جيدا، لكنه دسها في جيبه ولم يعرها اهتماما وقت حدة المناقشة.
بالرغم من تهافُت ما يقوله بسيوني، فإن غالبية الفتيان كانوا يقبلونه ويعتقدون بصدقه، لأن إحساسا داخليا قويا كان يدفعهم لذلك طلبا لراحة الفكر وللأمان الذي يشعرون به في مَعِيّة الشيخ مسعود، وتَوَفُّر وسائل الحياة وأسباب العيش لهم، حتى وإن طرق أحدهم خاطرا باعتبار ما يقوله عبّود قد يكون صحيحًا، فإنه ما يلبث أن يطرد هذا الخاطر ويوطِّنَ نفسه على ما يعتقد أنها نعمة لا يريد أن يبْطُرَها.

هكذا استمرت النقاشات بين الفتيان، وبالرغم من اختلافاتهم الجذرية، فإنهم اتفقوا على أن تظل هذه المناقشات سرّا بينهم لا يعلمه أحد كائنا من كان، وقد كانوا يمقتون من تُسَوِّل له نفسه إفشاء أسرارهم، حيث إن هذا ينافي شهامة الرجال التي كانوا يعتبرونها أفضل ما لديهم من سجايا يتميزون بها على بقية طبقات المجتمع.

******

بدأ عبّود يتلصصُ على الغرف المغلقة، ويستمع إلى الحوارات التي تجري في الخفاء بعينٍ وأذن غير اللّتين كانَتا له من قبل، وبدأت تتكشف له أمور لم تكن تخطر بباله، واستخدم وسائل التخفي في الانتقال في أرجاء المقارّ الخاصة بالشيخ.

كانت المفاجأة الكبرى له يوم عَرَف أنَّ قرار موته قد صدر، وأنه سيقوم بإلقاء نفسه من فوق إحدى البنايات أمام أحد عملاء الشيخ الكبار، كانت كل التفاصيل معروفة له منذ أن استرَق السمع للحوار الذي دار بين الشيخ وبسيوني، لكنه لم يكن يعلم موعد التنفيذ، غير أنه وضع لنفسه خطة أخرى غير ما يُضْمِرون.

قرر عبّود أن يفضح كل تصرفات الشيخ، وأن يعلن ذلك على الملأ، لَكنه لم يكن يَدْرِ إلى أين يتوجه.

بينما كان جالسا في البهو الكبير، كان جهاز التليفزيون أمامه، وكانت الصور تتراقصُ أمام ناظريه باهتةً هُلامية.

جلس على الأريكة وقد سرح بخياله بعيدا يفكر فيما يدور من حوله ساهما، ثم حانت منه التفاتةً إلى إحدى مقدمات البرامج الشهيرات تتحدث عن مأساة صحية لأحد الأطفال، وتعرِض على المسؤولين أن يأمروا بعلاجه، وكان واضحا التعاطف الشديد من مقدمة البرنامج الذكية مع الطفل الذي بدا بسيطا وبَهِي الطلعة، ذكيا ولَمّاحا، لا تخلو إجاباته على أسئلتها من طرافة وخفة روح.

حقق هذا المشهد معدلات عالية في نسبة المشاهدة، ظهرت في تحليلات وكالات الأبحاث التي تزود الشركات المعلِنة بِنِسَبِ المشاهدة لجميع البرامج والقنوات المؤثرة في الرأي العام، وقد استخدمت مقدمة البرنامج الشهيرة كل وسائل الجذب

والتأثير لاستجلاب عطف الجماهير، وبالتالي زيادة حصتها من نسبة الإعلانات، وهذا ما كان يشغلها أثناء الإعداد لهذه الحلقة، فأضافت إليها كلَّ ما استطاعت أن تضيفه من عناصر التشويق والإثارة والتعاطف.

كان عبّود قد أفاق من سهومه، واتجه ببصره وعقله إلى المذيعة الجميلة وهي تعرض قصة الطفل المريض، وبرقت في ذهنه فكرة أن يذهب إلى هذه المذيعة ليعرض عليها قصته، وبالتالي يفضح تصرفات الشيخ وسوف يُقبض على الشيخ ويُلقَى في قاع السجن، وينقذ عبّود نفسه من المصير الذي أوشك أن يقع فيه، ويلقى الشيخ جزاءه لقاءَ ما قدَّمت يداه... هذا ما حدثته به نفسه.

أعد عبّود العدة لكي يذهب إلى هذه المحطة الفضائية ويقابل المذيعة ويفضي إليها بما في نفسه، ويصبح أحد نجوم التلفزيون، ولَسَوفَ يعرفه الناس ويُفْسِحون له صدور المجالس، ويشيرون إليه إذا مر في الطريق ويَتِيه على أهل الحي الذي نشأ فيه، وخصوصا الفتى "العربي" صبي قهوة اللَّبّان الذي كان يطالبه بدفع ثمن المشروب مقدما، خشية هروبه دون دفع الحساب، وغرق في أوهام وخيالات لها أول وليس لها آخر.

صبيحة اليوم التالي، توجه عبّود إلى مقر المحطة، وتقدم واثقا من نفسه من موظف الأمن الْمُتَجَهِّمِ أمام البوابة الرئيسة، فاستوقفه الموظف بِغِلْظَةٍ وسأله:

ـ إلى أين؟

ـ أريد أن أقابل السيدة آمال العادلي.

بعد أن ملأ موظف الأمن منه عينيه من أخمص قدمه إلى ناصيته، صدرت ضحكة طويلة ساخرة منه قائلا:

ـ مرة واحدة!

أصابت الضحكة الساخرة والنظرة المستهينة عبّود بالخجل وفقدان الثقة في نفسه للحظة، ثم تمالك نفسه وقال:

ـ أود أن أحكي لها قصة مهمة، وأن تستضيفني في برنامجها.

زادت الضحكات وامتدت إلى بقية موظفي الأمن في الخلف الذين سخروا منه، وقالوا له تعالَ في المساء في وقت إذاعة البرنامج، لتدخل إليها فورا أثناء العرض.
لم يكذب عبّود خبرا، وقد انْطَلَت عليه الخدعة، وانتظر خارجا حتى المساء، ثم تقدم من موظف الأمن الذي لم يعرفه بسبب انصراف الأول لانتهاء ورديته، فاضطر عبّود إلى رواية قصته من جديد.
مرة أخرى تعالت ضحكات السخرية والاستهزاء، شعر حينها عبّود بأنه وقع ضحية لهؤلاء الْمُتَنَطعين، فأضْمَرَ في نفسه شيئا، ثم عاد أدْراجَه.
بعد ساعتين كان عبّود داخل مقر المحطة، مستعينا بوسائل التخفي والاقتحام التي خَبِرها وتدرب عليها، ودخل إلى ممرات المحطة من الداخل، لكنه لم يكن يدري إلى من يتوجه بالسؤال.
لمح أحد الموظفين حَيرته وتردده، فسأله ماذا تريد؟ بأسلوب مهذب لم يعتد عليه عبّود كثيرا، فرد عليه عبّود بنفس التهذيب: أريد أن أقابل المذيعة آمال من فضلك.
- ولِمَ؟
- أريد أن أحكي لها قصتي.
- اذهب إلى مكتب الإعداد في نهاية الردهة، واروِ لهم ما تريد.
لم يكن عبّود يعرف اللغة الإنجليزية، لذلك لم يفهم المكتوب بها على لوحة الباب، لكنه تَوجَّهَ حيث أشار له الموظف، وقال في نفسه (النبي عربي وإحنا في بلد عربي، لماذا لا يكتبون بالعربية؟).
دخل إلى المكتب مترددا، وحكى قصته بكل تفاصيلها إلى الرجل الضخم الجالس خلف المكتب يدسّ في فمه غليونا غليظا ينفث منه الدخان كأنه مرجل بخاريً.
حكى عبود للرجل دون مقدمات ودون حتى أن يسأله، كمن يُلقي عن ظهره حملا ثقيلا، فقد بلغ به اليأس مبلغا عظيما، والغريب أن الرجل استمع إليه بكل اهتمام، ولما أتم قصته طلب منه الانتظار ريثما يعطي المذيعة والمخرج علما.

ظن المعد أن ما يحكيه الفتى - لو كان صادقا - فسيكون قنبلة الموسم الإعلامية التي قد تنقل المحطة من الترتيب الرابع إلى الأول، من دون شك في نِسَبِ المشاهدة، واجتاحته الحماسة والإثارة، وظهر ذلك جَليّا على بشرته المَتَوَرِّدَة وأنفاسه اللاهِثَة السريعة، وهو يدخل إلى غرفة المذيعة بعد انتهاء برنامجها، حتى من دون استئذان، صحيح أنه كان الأولى به أن يذهب إلى المخرج أولا، لكن المذيعة المشهورة كانت كالملكة الْمُتَوَّجة لا يستطيع كائن من كان أن يعصي لها أمرا، وكانت تدلي برأيها في كل شيء، وكانت آراؤها أحيانا تُنَفَّذُ بالرغم من اعتراض المدير التنفيذي للمحطة الذي كان يبدو عليه أنه مسلوب الإرادة أمامها، ومن الصحيح أيضا أنها كانت من الذكاء بحيث لا تخلط الأوراق كثيرا، وفي العادة يكون رأيها صائبا، لذلك ما إن رأى المعدّ أن مكتب المخرج مفتوح وهو غير موجود فيه، حتى التمس لنفسه عذرا، وتوجه من فوره إلى مكتب المذيعة، فأدركها وهي تتأهب للانصراف.

فوجئت به المذيعة الشهيرة، ولما رأت على وجهه علامات الحماس، قالت من دون تردد:

ـ قصة جديدة مُشَوِّقة، أليس كذلك؟

ـ بل قنبلة سوف يتحدث عنها الناس لسنوات.

ـ اجلس وقُصَّ عليّ.

بعد أن فرغ صاحبنا من قصته وهو يراقب ردود الفعل التي ظهرت على وجه المذيعة، التي لم يكن يعرف أهي متشوقة أم راضية، متحمسة أم رافضة، ولأول مرة لم يفهم حقيقة مشاعرها تجاه القصة القنبلة، كما كان يسميها.

قالت بطريقة لبقة:

ـ تمام، سوف أفكر فيها واحْتَفِظْ بهذا الفتى في مكانٍ أمين لحين إعلامك بالخطوة التالية.

انصرف صاحبنا، وما إن صَفَقَ الباب خَلفَه حتى التقطت المذيعة هاتفها المحمول ود قَّت رقما ثم قالت كلمة واحدة وبلهجة رقيقة، لكنها جادة:

ـ أودُّ لقاءك الآن.
في حديقة أحد القصور الفخمة كانت المذيعة جالسة إلى إحدى الطاولات وما هي إلا برهة وقد حضر الشيخ من خلفها متسائلا:
ـ لاحظتُ أن صوتَكِ بدا متوترا، ما الذي حدث؟
سَرَدَتْ له المذيعة قصة عبّود كاملةً، ثم وَجَمَتْ تنتظر مكافأةً أو ردًّا، فقال الشيخ:
ـ وأين هو الآن؟
ـ مع صلاح مدير الإعداد في الفيلا.
ـ حسنا، سأبعث من يتسلمه.
ـ لكن صلاح لا يعلم.
ـ لا عليكِ، سوف أتصرف.
قال ذلك وانصرف حتى دون كلمة شكر لآمال التي تَبَرّمَت من تصرفه الخالي من الكياسة لأول مرة، لكنها لم تستطع حتى أن تظهر تَبَرّمَها له، بل ابتسمت في وجهه ابتسامة صادقة تماما ملأت وجهها بشرا - تَدَرَّبَتْ عليها من ضمن الدورات التي حصلت عليها، والتي يسمونها "فن المجاملة" ومن كثرة مواجهتها للكاميرا- ثم انصرفت.
في جنح الظلام كانت سيارة سوداء مظللة النوافذ ذات دفع رباعي وصوت محرك رتيب وعميق تتسلل متوجهةً إلى فيلا صلاح مدير الإعداد، وقبلها بلحظات كان صلاح قد تلقى اتصالا هاتفيا يستدعيه إلى المحطة لعمل ما.
قال صلاح لعبّود:
ـ هنا لا يعرف أحد بوجودك على الإطلاق، فلا تبرح المكان حتى أحضر إليك.
ـ سمعا وطاعة.
ما إن برح صلاح المكان وأدار محرك سيارته وانطلق، حتى كان فريق من أربعة أفراد يترجلون من السيارة على عجل، ويقتحمون الفيلا ويقتادون عبّود، بعد أن

قيدوه ووضعوا لثاما على وجهه وقطعة مطاط حشروها في فِيْهِ لتمنعه من الصراخ، ويذهبون به إلى مكان مجهول.

غمرت المفاجأة عبّود، وتدفق "الأدرينالين" إلى عروقه ورأسه، وانتابته أحاسيس متناقضة بين الغضب والخوف والتحدي، لكنه استسلم لمهاجميه تماما، ولم يبد عليه أي مظهر للمقاومة، لعلمه أنها لن تجدي.

انطلقت السيارة بغنيمتها إلى أحد مقرات الشيخ، وأُحْضِرَ عبُّود جاثيا في إحدى الغرف، وما إن أزالوا اللِّثام عن وجهه حتى وجد عبّود نفسه أمام الشيخ وجها لوجه، فاجْتاحته رعْدةً قوية لِمَرْأى الشيخ غاضبا وحانقا عليه.

لم يُضِعْ الشيخ وقته في أسئلة لا طائل من ورائها، وإنما أراد أن يعرف من عبّود ما هي الثغرات التي استغلها في نظامه، وكيف نفذ منها.

أخضعه الشيخ إلى تحقيق مطوّل، لم يستخدم فيه العنف ولا التهديد، إنما كانت أساليبه في غاية التهذيب.

كان الشيخ يجد لذة في استخدم الحصار المنطقي في الأسئلة، وكان التهديد بالعنف أو التعذيب يتم بالإيحاء لا بالتصريح، وهو ما أدى إلى اعتراف عبّود بكل التفاصيل، من دون أن يخفي شيئا على الإطلاق، إلا نيته في الهرب، التي كان يخطط لها جيدا منذ إزالة اللثام عن وجهه واكتشاف مكان احتجازه.

أدرك الشيخ أن عبّود صادق فيما قال، لكنه قرر أيضا أن الحاجة إلى التخلص من عبّود أمست واجبة تماما، وبالتالي تقرر أن يتم تصفيته، ولكن بطريقة أخرى غير التي قُرِّرَت سَلَفًا.

****

عبّود

تُرِكَ عبّود مقيدا تحت حراسة أحد الفتيان الملثّمين، رَيثما يقرر الشيخ طريقة التخلص منه، وحينما أصبحا بمفردهما، قال عبّود موجها كلامه إلى حارسه الملثّم:

ـ هل عرفت يا سعيد أنني كنت محقا بشأن الشيخ؟

ـ وكيف عرفت أنني سعيد ولم أتفوه بكلمة واحدة، ولا يظهر من وجهي شيء؟

ـ يا سعيد إنها عِشْرة، وأنا أعرفك من مشيتك ومن صوت تنفسك - قالها متلطفا، ومحاولا إحياء الشهامة في نفس سعيد الأشهل - ولا تنس أننا إخوة وأحباب.

لم يذكر عبّود نقاط الخلاف مطلقا في حواره مع سعيد، محاولا استمالته إليه.

قال سعيد:

ـ أنا حتى الآن لا أفهم شيئا مما يدور حولي، وقد عجز عقلي عن التفكير، وقد كنت ناعم البال مستريح الخاطر حتى أثرت أنت في نفسي الشكوك، وبالرغم من ذلك فإن الشيخ مسعود له أفضال كثيرة علينا، ولا أحب أن أخون "العيش والملح".

ـ ماذا عني أنا؟ أَلَسْتُ في مقام أخيك، وبيننا "عيش وملح"؟

ـ هذا ما يجعلني مُشّتَّتَ الفكر مشغول البال.

استغل عبّود هذه النقطة، فبدأ يضغط في اتجاه صداقتهما والمواقف الكثيرة التي جمعتهما أثناء التدريب، ويذكره بمساندته له في التدريبات وإنقاذه من المواقف المحرجة مع المدربين ومع بسيوني.

ثم انتفض فجأة قائلا:

ـ "حيموتوني يا سعيد".

ـ "وإيه المشكلة؟ الشيخ حيدخلك الجنة".

ـ "طب إزاي وأنا عصيته"؟

ـ "أيوه صحيح، يبقى ده نصيبك تستاهل، ليه تعصيه، ما إحنا كنا عايشين كويسين وكافيين خيرنا شرنا"؟

ـ "حبيت أصحيكم".

ـ "كنا مبسوطين".
ـ "أهون عليك ؟".
ـ "إنت اللي جبته لنفسك".
ـ "أنا عملت كده علشانكم".
ـ "محدش طلب منك تعمل كده".
ـ "اعتبرني غلطت".
ـ "ما كان م الأول".
ـ "كنت فاكر إني حاصحيكم".
ـ "إحنا صاحيين وعاجبنا حالنا، حتى لو غلط زي ما انت بتقول".

غَرِقَ سعيد في تفكير عميق، وبدا الوُجُوم على وجهه الْمُتَقَلِّص، وعَرَفَ عبّود أن سعيدا يفكر في إطلاق سراحه، فلم يشأ أن يقاطعه، وعلى حين غِرة قفز سعيد من مقعده، واحتضنه بقوة قائلا:
ـ سوف أتركك تذهب لحالِ سبيلك، وليَكن الله في عوني.
قام سعيد بفك وَثَاق عبّود، ودسّ في يده بعضا من النقد.
احمر وجه عبود، وتحيرت الدموع في مآقيه وهو يحدِّقُ في وجه سعيد، ويُدركُ حجم التضحية الكبيرة التي يقوم بها سعيد من أجله، بالرغم من اختلافهما في النظرة إلى الأمور، ويعلم أن هذا الموقف قد يكلِّفَهُ حياته عندما يعلم الشيخ أن سعيد هو من أطلق سَراحه، فتوقف بُرهة مواجها سعيد، وحملت نظراته إليه أكبر معاني العرفان بالجميل، ثم سأله:
ـ ماذا تفعل إذا علم الشيخ أنك أطلقت سراحي؟
ـ سوف أخبره أنك ضربتني وأفقدتني الوعي.
ـ وهل يَنْطَلي ذلك على الشيخ؟
ـ لا تُضِع وقتك وانصرف يا عبود قبل أن يأتي أحدهم.
ـ لن أنصرف قبل أن أتأكد أنه لن يصيبك مكروه من ذلك.

خلال هذا الوقت سمعا صوتا في الخارج يقترب منهما شيئا فشيئا، فكان إيذانا بانتهاء الموقف، إذ تغير وجه سعيد واكتسى بصرامته المعهودة، آمرا عبود بالانصراف بقسوة، فأطاعه عبود، وانصرف دون أن يلوي على شيء.

انطلق عبود بكل ما فيه من قوة خارجا من المقر، مستخدما كل ما تدرّب عليه من وسائل التسلق والتخفي، وما هي إلا برهة حتى أصبح خارجا يتَنَشَّقُ نسيم الحرية من جديد.

وقد اكتُشِف هروب عبّود في التو واللحظة.

"تظل العواطف هي أخطر الثغرات في أي نظام أمني".

همم الشيخ بهذه الكلمات بأسى ممزوج بالغضب، وهو يتأهب للرحيل.

قالها الشيخ وهو يدري أنها هي الثغرة التي حاول تحاشيها في كل نظام يضعه، وعلم أن عبود قد تلقى مساعدة ما، ثم أمر رجاله بإحضاره بأي ثمن.

وبدأت المطاردة، وبعد فترة وجيزة استطاع فريق المطاردة رصده في أحد الأحياء الشعبية.

استمر الفتى يلهث من شدة العَدْوِ، فاغرا فاهُ، إلى أن بلغ به الإنهاك مداهُ، وتقاطرت حبّات العرق الحارة غزيرة على جبينه وصدره، وهو يلتفُ حول الأزقة والدُّروب التي يعرفها جيدا دون أن يدري شيئا عن مطارديه الذين كانوا يتبعونه كظله، واستطاع أن يضللهم قليلا عندما دلف إلى أحد الأزقة الضيقة، حتى لا تتمكن سيارة المطاردين من ولوجها، فاضطروا إلى النزول من السيارة والعَدْوَ خلفه رَاْجِلِيْنَ.

كانت تلك برهة ثمينة اقتنصها الفتى، واختفى في إحدى الزوايا الصغيرة التي أوشك مقيم الشعائر أن يؤذن فيها لصلاة المغرب، وانتحى جانبا قصيا في الزاوية يلملم ما تبقى من شعث أنفاسه المضطربة التي لفتت نظر عامل المسجد، فحدَّجه بنظرة استفسار يملأها الشك والفضول، فقام من مكانه وجلس إلى جانبه، فقال الفتى: أريد شربة ماء.

بعد أن قدمها إليه العامل في كوز صَدِئ يتقاطَرُ الماء من ثقوبه، تركه لصلاة المغرب، وما إن انفلت من الصلاة حتى بحث عنه، فلم يجده، فخرج وإذا به أمامه وجها لوجه، فسأله ما بك؟

قال عبّود:

ـ أريد مكانا يؤويني الليلة.

ـ من أنت؟

فدس عبّود في يد العامل ورقة مالية كبيرة كانت كافية لإسكاته، فأومأ له أن اتبعني.

أخذ العامل يطوف به في أرجاء الحي، إلى أن وصَلا إلى أحد البيوت القديمة، وصعد الدَّرَجَ الخشبي المتهالك ذا السِّياج الْمُتَرَاخي الذي يتأرجح ويُقَعْقِعُ كلما اتَّكَأَ عليه الصاعد أو النازل.

سار عبّود خلفه إلى أن بلغا الطابق الأخير على يسار الصاعد منه درج حديدي صَدِئ ضيق مزروعٌ في الأرضية بشكل قائم، يستخدم للصعود إلى السطح تعلوه كُوَّةً ضيقة لا تكاد تُفْتَح إلا إذا أراد أحد السكان إصلاح أو تركيب الأطباق اللاقطة.

أشار العامل إلى عبود وقال:

ـ اصعد هذا الدرج وافتح الكُوّة، ستجد على السطح غرفة عليها قفل كبير، لكنه مفتوح وفي الصباح سآتيك بالإفطار، ثم مد يده في إشارة فهمها الفتى، فوضع في يده ورقة مالية أخرى.

ما إن دفع بيده غطاء الكُوّة الحديدية حتى تساقطت على وجهه أشكال من الغبار وزَرَقِ الطيور وفضلاتها، ثم صعد إلى السطح.

كان سطح العمارة يُشْرف على العمارات الأخرى التي امتلأت أسطُحَها بالمهملات وأعشاش الطيور والأطباق اللاقطة الملوثة، وتعطي صورة مختلفة للقاهرة من أعلى، غير التي يراها من أسفل كأنها امرأة شعثاء الشعر لم تستحم منذ ولادتها، إلى أن أصبحت عجوزا شمطاء.

قضى صاحبنا ليلته دون تَذَمُّر، بالرغم من فترة الرغد التي مر بها أثناء إقامته في قصور الشيخ، لكنها لم تَمْحُ خبراته ولم تُنْسِه ذكرياته عن فترات التَّقَشُّفِ والفاقة التي ألِفَها، لذلك تجاوب مع طبيعة الغرفة سريعا، ونام ليلته ورأسه مفعم بالكوابيس والأحلام المرعبة التي توشك أن تسيل على وسادته ذات الرائحة العَطنة.

***

صحا عبود على وقع طرقات عنيفة على رأسه وأصوات صاخبة مريعة، ويد خشنة تطبق على عنقه توشك أن تخنقه وتكتم أنفاسه، فانتفض مذعورا، وحين باعَدَ بين جَفنيه لم يجد شيئا مما سمع، وإنما كانت آخر ما تبقى من كوابيسه المزعجة التي استيقظ على جَلَبَتِها، فقد اختلطت لديه الأحلام بالواقع واليقظة بالمنام.

ارتدى ملابسه على عجل وخرج من باب الغرفة، فألفى حارس الزاوية قد ترك له لفافة خارج الباب، فَضَّها على عجل، فوجد فيها رغيفين متغضنين يابسين ولفافة ورقية تحوي بعض الفلافل والباذنجان المقلي، نشر اللفافة أمامه والتهم محتوياتها على عجل، كانت الفلافل مطوية داخل صفحة كتاب مدرسي يشرح بيتا من الشعر لمعروف الرصافي يقول فيه:

إذا لم يكن حرا بموطنه الفتى *** فَسَمِّ الفتى مَيْتًا وموطنه قبرا

لم يكن الوقت مناسبا لا للقراءة ولا للشعر، لكن هذا البيت انطبع في ذاكرته، وترك أثرا كبيرا عليه.

لملم شتات نفسه، وهبط مع بزوغ الفجر بنفس الطريقة التي دخل بها، وانطلق على غير هدى في شوارع العاصمة شبه الخاوية في هذا الوقت.

استمر يتسكع في الطرقات حتى سطعت الشمس وألقت أشعتها القوية الحارّة صباح ذلك اليوم على قارعة الطريق، فالتهب الجو عندما وصل عبّود إلى العنوان الذي أعطاه إياه ثامر من قبل وهي الفيلا التي يسكن فيها، حيث قال له ثامر أيام صداقتهما في النادي:

ـ إذا احتجت إلى شيء تعالَ إليّ في هذا العنوان، لكنه عندما وصل إلى الفيلا تسمر في مكانه، وعقدت الدهشة لسانه وتعطلت جميع حواسِه.
****

عندما وقع بصر عبود على سور الفيلا، وقد ظهر من بين فتحات السور تمثالٌ مرمريّ مبتور الذراع، هو نفس التمثال الذي لاحظه عبّود ليلة موت السنوسي بك، وانتابه خوف شديد ودهشة غامرة، فقد كانت هذه الفيلا التي يقطنها السنوسي بك، الذي قام عبّود بإعطائه الحقنة القاتلة فيها، وتذكر سلم الخدم الذي دخل منه والجدران الرخامية اللامعة.

دار رأس عبّود من هول المفاجأة، ولم يدر ماذا يصنع، ولما كان ثامر هو آخر حبال الأمل لديه، فقد قرر بعد تردد أن يعترف له بما حدث، ويطلب منه السماح، لأنه لم يكن يعرف أنه قتل أحدا في هذه الفيلا، لأنه كان واقعا تحت التأثير الطاغي لبسيوني والشيخ مسعود، كما أن وجود عبّود في الشوارع يجعله فريسة سائغة وسهلة لبسيوني ورجاله، ولن يطول الوقت حتى يقع بين أيديهم، حيث إن بسيوني يعرف كل مخابئه ومعارفه.

قال عبّود لنفسه، وقد بلغ به اليأس مداه (هية موتة والاّ أكتر، خليني أعترف لثامر وأموت مرتاح، على الأقل لو قتلني ثامر فهو أشرف لي، وعندها يكون قد أدرك هو ثأره مني وارتحت أنا من المطاردة).

سمع ثامر طرقات قوية على الباب، ونظر من فُرجة النافذة لِيَرَى الفتى عبّود أمام الباب يطرقه بإلحاح.

ارتدى شيئا في قدميه، ونزل مهرولا وقد سبق الخدم إلى فتح الباب.

جلس الفتى عبّود أمام ثامرَ تتساقط من جبهته حبات العرق وشفتاه جافتان وترتعدان قائلا:

ـ لقد اكتشفت السر، لقد اكتشفت السر، وسوف يقتلونني!

هدّأ ثامر من روعه قائلا في لهفة:

ـ ما هو السر؟

المحقق مهاب

لم يكن المحقق الشاب مقتنعا بأن الوَفَيَات الأخيرة التي طالت بعضا من رموز المال والأعمال طبيعية، وأن حَدْسَهُ يُنْبِئُهُ أن فيها شُبهةً جنائية، لكنها كانت خارجة عن دائرة القسم التابع له.

بالرغم من ذلك كان يتابعها بشغف شديد، بعيدا عن الطرق الرسمية، ويحاول فكَّ ألغازها عن طريق المعلومات التي تتساقط عفوا من زملائه في لقاءاتهم العادية، وبدأ في ربط الخيوط المتقاطعة، لكنها لم توصله إلى نتيجة منطقية.

مع ذلك لم تبرح مخيلته أبدا هذه الشكوك، وكان يربط كثيرا بين الأحداث التي يقرأ عنها في الصحف أو يسمع بها في محيط عمله، ويحاول أن يستكشف منها خيطا يؤكد به شكوكه، لكنه في غَمْرَةِ انشغاله في قضاياه الخاصة المكلف بها لم يكن يجد الوقت الكافي ليحاول فك طلاسمها واستكشاف غوامضها، وقد كان ذكاؤه الخارق غالبا ما يكون حليفه في حل تلك القضايا.

كانت أساليبه في ذلك بسيطة وعادية، ودون استخدام وسائل الترهيب أو التخويف التي يلجا إليها معظم المحققين، حتى أن زملاءه كانوا يطلقون عليه لقب "الحاج"، تَنَدُّرًا عليه وسخرية من أساليبه التي يرونها لينة ولا تصلح لإيقاع المجرمين، غير أنه كان دائما يردد أن عدم إلحاق الأذى بمجرم أهون عليه من إلحاق الأذى ببريء.

في ذلك اليوم تلقى اتصالا هاتفيا من صديق طفولته وصباه ثامر، طالبَا أن يلتقيه في منزله، وكان ثامر مصرا على لُقياه في نفس اليوم.

بحاسة المحقق، خمن مهاب أن يكون في الأمر شيء لا يود ثامر أن يحكيه في الهاتف.

عصر ذلك اليوم توجه ثامر إلى بيت المحقق مهاب، ودخل من البوابة الأمامية ليجد مهاب جالسا في الحديقة ينتظره، وعلى مقربة منه كانت والدة مهاب تسقي بعضا من زهور الحديقة، وحانت منها التفاتة، فوجدت ثامر أمامها، فألقت رشاش الماء من يدها، وفتحت ذراعيها مرحبة بثامر الذي أسرع في خطوه

إليها، ملقيا نفسه بين ذراعيها، كانت السيدة تعامل ثامر كأحد أبنائها، خصوصا وقد حضرت ولادته، وتابعت مراحل حياته كأحد أولادها ليس فقط لصلة القرابة التي تربطها بوالدته، ولكن لأنه نشأ يتيم الأم، فكانت تحنو عليه، خصوصا فترات المذاكرة التي كانت تمتد بينه وبين مهاب إلى ساعات طويلة، وفي أحيان كثيرة كان يبيت عندهم.

ألقى ثامر بيده الثقيلة على كتف مهاب مازحا وقائلا:

ـ لولا الوالدة ما اتصلت بك ولا سألت عنك.

فقال مهاب:

ـ وأنا أعتمد على ذلك.

بعد أن غادرتهما السيدة لتقوم بواجبات الضيافة، مالَ مهاب على ثامر ونظر إليه نظرة ذات مغزى قائلا:

ـ (إيه اللي جابك)؟

ـ (جيت أسلم على الست الوالدة)

ـ (ماشي... وبعدين)؟

بدأ ثامر يتحدث بصوت خافت، كما لو كان يخشى أن يسمعه أحد آخر قائلا:

ـ (إنت عارف قصة وفاة الوالد وأنا كنت شاكك إن الوفاة متكونش طبيعية، النهاردة وصلتني معلومة خطيرة)، ثم صمت وازدرد ريقه بصوت عال، ثم تحشرج صوته وأردف بصوت تخنقه العبرات:

ـ لقد قتلوه، لقد قتلوه.

أعطاه مهاب كل اهتمامه وهو يحثُّه على إكمال الحديث بإيماءات متكررة من رأسه، دون أن يقاطعه، وبدت على مهاب اللهفة لمعرفة التفاصيل.

قال ثامر:

ـ اليوم اعترف لي قاتله بما حدث.

ـ قاتله، كيف؟

ـ أعطاه حقنة سامّة، فقتلته على الفور.

ـ ومن هذا القاتل؟
ـ فتى يقال له عبّود.
ـ وكيف عرفته؟ احك لي كل ما تعرف.
سرد عليه ثامر كل التفاصيل الخاصة بمعرفته بعبّود وعلاقتهما في النادي بكل دقائقها، كما سرد عليه اعتراف عبّود له بكل التفاصيل، وذكر له كل ما وصفه له عبود عن قصور الشيخ والفردوس، وكل ما أفضى إليه به.
كانت القضية قد أُقْفِلَت بتقرير الطب الشرعي الذي أثبت أن الوفاة طبيعية، ومن ثم كان على مهاب أن يُقنع رؤساءه بإعادة النظر في القضية مرة أخرى، لكنه كان يحتاج إلى أدلة دامغة قبل أن يطلب منهم هذا الطلب، وتردد ثامر كثيرا قبل أن يوافق على ترتيب لقاء يجمع مهاب مع عبّود، حيث إنه وعد هذا الأخير ألا يسلمه إلى أي جهة.
****

قلعة آلمـــــــــوت

كان الحسن الصبّاح غارقا في تأمّلاته الصباحية بعد الفجر بقليل، منتظرا شروق الشمس فوق تلك الصخرة الناتئة على ذروة الجبل تتلاعب الرياح بأطراف عباءته الْمُقَصَّبة كأنه أحد ملوك الإغريق، شاخصا ببصره نحو الأفق البعيد.

كان الشيخ حسن ذا شخصية قوية ومؤثرا في أتباعه إلى درجة كبيرة، وكان واسع الثقافة والعلم في كل فروعه التي أتيحت له في عصره، ويطيب له أن يجلس على هذه الصخرة كل يوم بعد صلاة الفجر، يَسْتَرْوِحُ نسيم الجبال المنعش، ويكتب خواطره وأفكاره، ويرتب جدول أعماله، وكان يخلو بنفسه تلك السّويعات إلى ما قبل الضحى، ثم ينزل بعد أن تُرسل الشمس أشعتها الحارّة إلى مجلسه، ويبدأ في إرسال مبعوثيه إلى البلاد التي سيقومون فيها بالعمليات التي تم إقرارها سابقا، وأخذت وقتها من الإعداد والمراجعة.

وكان فتيانه يقومون بتدريباتهم الصباحية على التَّسلق والتَّخفي والمبارزة بالسيوف الباترة التي كانت تبرق في أشعة الشمس التي بَزَغَت لِتَوِّها من بين قرْنَيّ الجبل، ونشرت أشعتها الذهبية في ذلك السهل الفسيح الممتد على شكل صحنٍ واسع تحيطه الجبال الشاهقة التي تُلامس السحب وترَبُض أعلاه قلعة المـوت بألوانها الداكنة التي تشبه القلاع الأسطورية المرعبة.

كانت هذه الجبال الوَعرة تقف سدا منيعا أمام أي محاولة لاقتحام القلعة عُنْوة أو تَسَلُّلا، فقد كانت كل الثَّغرات المحيطة بالقلعة والتي يُتَوَقَّعُ أن تكون مُدَّخَلا إليها محروسةً بمقاتلينَ أشدَّاء ممن تم اختيارهم وتدريبهم بعناية لهذا الغرض، وبالطبع ممن دخلوا الفردوس وتذوقوا طيباته من الفاكهة اللذيذة النادرة وأنهار اللبن والعسل، وهم على أتم استعداد للتضحية بأرواحهم لحراسة القلعة.

كان الحسن الصبّاح قد تلقى كثيرا من العلوم في القاهرة على أيدي شيوخها وفلاسفتها، وهو قد خَبِرَ القاهرة وطُرُقاتها وأزِقَّتِها، كما خَبِرَ نظامها السياسي والديني، وعَرَف شيوخها ومساجدها وزواياها وطبائع أهلها، وكان يعتقد اعتقادا جازما أن الإمساك بزمام العالم لا ينبغي أن يكون إلا من القاهرة، لِما لها من

موقع فريد وأثر كبير على ما حولها، وكانت قِبلة العلماء وطالبي العلم من قَبله، فجعلها قِبلته التي أراد أن يُنشئ فيها فصيلا مدربا من فصائله، لينفِّذ فيها ما يريد من عمليات، ولكي يتمكن من نشر أفكاره ودعاواه.

كان الشيخ الحسن ذا عقل كبير مُتَوهج الذكاء واسع الحيلة قويّ الحُجّة، موفور الحماس، لكنَّ طموحه وشَرَهَهُ للسلطة كان دافعه إلى تلك الأفكار التي سيطرت على تفكيره وعلى حياته بأكملها.

كان اعتقاده أن بسطَ الأمن والسيطرة لا يكونا إلا عبرَ الطرق المروية بالدماء، التي تمهد السبيل إلى أي نظام، فهي في اعتقاده تبثُّ الرعب في قلوب المخالفين، وتوحي بالأمن والطمأنينة للمؤيدين، وتعطيهم الثقة في قوة ذلك النظام.

كان الحسن الصبّاح يبثُّ أفكاره في عقول مؤيديه ويربيهم على مُعتقداته، لينشروا دعوته في كل الأصْقَاع، لكن مشكلته الكبرى كانت في ابنه محمد الذي كان يعتقد أن أفكار أبيه ما هي إلا هَرْطَقَاتٍ ومزاعمَ لا تقف على ساقين، وكثيرا ما احْتَدَّ الولد على أبيه، مُفَنِّدًا مزاعمه، خصوصا مسألة الإمام المختفي لدى الشيعة الإسماعيلية والحشاشين بوجه خاص.

وكان محمد يقول:

ـ إن الله أعزّ وأحكم من أن يحكم على أوليائه بالاختفاء خوفا، والدين ليس معلقا ببشرٍ بالغا ما بَلَغَ من الأهمية، إن الدين دين الله وهو حاميه وناصرهُ حتى بأيدي أعدائه، فهل يعجز- حاشاه - أن يحمي أولياءه، فيضعهم في سراديبَ حماية لهم من أذى المخلوقين؟!

وقف الفتى محمد عاقدا يديه على صدره، مواجها أباه في حزم قائلا:

ـ ثم قل لي: ما هي الإمامة؟

رد الشيخ حسن وهو يحاول استمالة ابنه:

ـ يا بُنَيَ الإمامة المنعقدة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومن بعده أولاده حسب الترتيب الذي تعرفه إلى الإمام إسماعيل الذي دخل السرداب.

ـ هذا جميل، فكيف إذن تُدار الأمور وهذا الإمام في السِّرداب لا يدري من أمر أمّته شيئا؟

ـ هناك واسِطة بينه وبين الناس هو الداعي المُطلق، وهو صِلةُ الوصل بين التلامذة والإمام الذي يمرر المعلومات السرية بينهم.

رد الفتى بابتسامة ساخرة.

ـ يا أبتِ، هذا كلام يحتاج إلى حاضنةِ ومُرضِع، بالله عليك هل هذا منطق؟

ولما كان الشيخ تُعْييه الحجة كان يقول لابنه: هذا من الحكمة اللَّدُّنية التي تَخْفَى على العَوَام.

قال محمد:

ـ يا أبتِ، الله أكرم وأرحم بعباده من أن يجعل أمرهم بيدِ إمام أو شخص وهو القائل لنبيهِ (ليس لك من الأمر شيء)، وهو أرحم وأكرم من أن يجعل الناس يتعبّدون بأسرارِ وطلاسمَ لا يفهمونها، وهذا الدِّين في كل آياته يحضُّ على تحرير العقل، أفلا تعقلون، أفلا يتدبرون، ويتحدى غير المؤمنين به "قل هاتوا برهانكم"، وقد نقض الإسلام ما قبله من أديان كانت تَعجُّ بمثل هذه الأفكار والأسرار التي يَخْتَلِقها الكهنة والأحبار ومن يسمّوْن برجال الدين، ويَزيدون فيها ويَنقصون منها كلما دعتهم الحاجة أو السياسة إلى ذلك، هل الراعي البسيط خلف هذا الجبل سوف يدخل النار لأنه لا يعرف هذه الأسرار؟

ـ الأسرار يوحيها الإمام إلى الداعي الذي يبلغ عنه كافة الناس، وهو الذي يشرح المعاني المستورة للتنزيل من خلال التفسير الباطني.

ـ لقد تم البلاغ بنزول القرآن، وهو محفوظٌ يقرأه البادي والحاضر، والمقيمُ والظَّاعن، ويفهمه القاصي والدَّاني، وكل من له معرفة بلغة العرب، وليس فيه طلاسِمَ أو ألغاز، والله أنزل القرآن رحمة بعباده، أتَرى أنه يعذبهم بهذه الأسرار، وهو يقول (إنا أنزلناه قرآنا عربيا غير ذي عوج)؟

أتدرِ يا أبت، قد يكون كلامك هذا له بعض الوجاهة، لو أن الله - حاشاه - أراد أن يَكُبّ الناس جميعا على وجوههم في النار، لأنْزَلَ لهم دينا مثلما تقول لا يفهمونه ولا يعلمون مرادَ الله منه.

أراد الحسن أن يخرج من المأزق بتغيير دفّة الحديث، سائلا ابنه:

ـ يا بني... لماذا لا نرى الله؟

ـ لأنه فوق إدراكنا وهو خفيّ من فَرْطِ الكِبر، فالله أكبر من كل شيء.

ـ معنى هذا أن هناك أشياءَ فوق إدراكنا، وهذه العلوم كذلك.

ـ أخطأت الاستدلال يا أبتِ، فالله يُرشِدُنا إلى الإيمان به وبالغيب بما نعلمَ من محسوسات إلى ما لا نعلم من غيبيات، ولا يرشدنا بما لا نعلم إلى ما لا نعلم، فحينها لا يتحقق شيء.

كان شعار الحشاشين (لا حقيقة في الوجود، وكل أمر مباح)، ووسيلتهم الاغتيال المنظم والامتناع بسلسلة من القلاع الحصينة التي شيّدها الحسن الصبّاح وَوَكل بها رجالا أشداء.

ولكن أهداف الحسن الصبّاح كانت في مُجْمَلها سياسية ذات غلاف ديني، وهذا الولد حجر عَثرة في سبيل دعوته، والناس إليه يستمعون وعنه ينقلون وبه يتفاءلون، ويخلِب ألبابهم بمنطقه الفصيح، ووجهه الصبوح، وحجته الباهرة، ويزيد أتباعه داخل القلاع يوما بعد يوم.

ولما لم يصل الشيخ إلى وسيلة ليُقنع ابنه باتِّباعه وترك الجدل، بالرغم من المحاولات الْمُضْنِيَة التي بَذَلَها لِيَثْنِيه عن آرائه، ووجد أنه وصل معه إلى طريقٍ مسدود، فقد قرر في نفسه أمرا.

استدعى الشيخ حسن الصبّاح الفتى أنوارَ الحقِّ، وكان زميلا لابنه محمد في دراسته، ونِدًّا له في مباريات الفروسية، وقد نشأت بينهما علاقة قوية، إذ كانا يجلسان معا لساعات طوال يتناقشان في أمور فلسفية ودينية بعد انتهاء ساعات التَّرَيُّضِ والتدريب.

أَسَرّ الشيخ إلى أنوار أن محمدا قد بدأ تفكيره يأخذ سُبُلا مُعْوَجَّةً غير ما كان يرجوه له أبوه.

وطلب منه الشيخ أن يتناقش مع محمد، وأن يوضح له الطريق المستقيم، وهو يدرِي أن أنوار مقتنعٌ جُزْئيا بفلسفة محمد، غير أنه يأخذ جانب الحذر لخشيته من سَطْوَة الشيخ، ولِمَا يقوم به من خوارقَ للعادات تعلَّمها من كتب السحر والكَهانة.

عصر ذلك اليوم التقى محمد وأنوار الذي بادره قائلا:

ـ مالك تعصي أباكَ؟

ـ أنا لا أعصيه، أنا أُوَضِّحُ له ما أنا مقتنعٌ به.

قال أنوار بصوت يملأه الودُّ والإشفاق:

ـ يا محمد... اصْبِر وساير أباك لعل الله يُحْدِثُ بعد ذلك أمرا.

ـ إنه لا يصبر ويريد أن أصدقه فيما يدَّعيه من خُزَعْبَلات.

ـ لقد ألمح إليّ أنه قد يقتلك.

ـ وماذا فيها؟

ـ يا محمد أنت الذي نعتمد عليه أن ينيِّر الطريق للناس ولو قُتلت لماتت دعوتك.

ـ إن الدين لا يقف على أحد، ولو كان كلامك صحيحا لما اختار الله نبيه إلى جواره.

وصل الحوار بينهما إلى طريق مسدود، فقال أنوار: أتمنى أن تقفَ أبُوّتُهُ حاجزا بينه وبين ما ينويه.

قال محمد: لا فِرار من القَدَرِ إلا إليه.

****

الهاوية

صباح أحد الأيام المطيرة كانت السماء ملبّدَةً بالغُيوم الداكنة وتُنْذِرُ بقرب العاصفة، وقد احتجبت الشمس تماما خلف السحب السوداء الْمُقْبِضة للنفس، ولم يبدُ لها أثر في السماء كأنها لم تَطْلع ذلك اليوم، واقتربت السحب في هذا الصباح من هامِ الجبال تَلُوْثُ عليها أستارا سوداء وسقطت نُدَفً متناثرة من البَرَدِ تركت آثارها على الأرض كالقطن المندوف، وخيّم على القلعة شعور عام بالحزن والأسى لا يُعرف له سبب، وانقبضت قلوب الحاضرين وهم يَتَوَجّسُون شرا من هذا الاجتماع الذي دعا إليه الحسن الصبّاح في الصباح الباكر.

فجأة انفتح مصراعا الباب الكبير، مصدرا صريرا مرعبا، وحضر الحراس بأزيائهم الْمُنَمَّقَةِ الْمُزَرْكَشَةِ يسيرون صفا واحدا بخطوات بطيئة متثاقلة، تسبقهم أصوات الدروع التي يلبسونها، حتى لتجعل أسنان الحضور تصطك من جَرْسِها الحاد.

جاء من خلفهم مجموعة أخرى يجرّون محمد بن الشيخ حسن الصبّاح مقَيّدا ومُكَمّمَا، وأمام هذا الجمع الغفير من الناس الذين تمت دعوتهم لحضور محاكمة محمد، وكان الشيخ حسن الصبّاح هو الذي تلا على الناس أن ابنه تم ضبطه البارحة وهو يتعاطى الخمر، وهو لن يقيم عليه حد الخمر وهو الجلد، لكنه سوف يقيم عليه حدَّ الحرابة والإفساد في الأرض تعْذيرا له، لأنه ابنه ولأنه يجب أن يكون قدوة للناس، لا أن يتعاطى الْمُسْكِرَ، وكما أن كرامات الكبار كبيرة، فكذلك عقوبتهم إذا ضلوا الطريق كبيرة.

أشار الحسن إلى القاضي بجواره الذي قام خطيبا في الناس يمدح الحسن الصبّاح بكل ما أوتي من بيان، ويضفي عليه صفات الأولياء تَزَلّفا إليه، لأنه ضحى بفَلْذَةِ كَبِدِهِ تنفيذا لأحكام الشرع، وقد حكم عليه بأقصى عقوبة ليكون عبرة لغيره، وكالَ القاضي للحسن من المديح والاستحسان ما أوشك أن يضعه في رُتبة الأنبياء والصديقين، والناس ما بين مُصَدِّقٍ مُتَمَلِّقٍ وبين مكذِّبٍ أَلْجَمَ الخوف لسانه، لكن تعبيرات التَهَكُّمِ والغضب كانت قد عَلَتْ أوجه بعض من أتراب محمد بن الحسن الصبّاح، لكنهم أيضا وَجَمُوا ولم ينطقوا.

كان العامّة يستمعون إلى كلام الشيخ في وَجَلٍ، وعقدت الدهشة ألسِنَتَهُمْ، وجمَّد الخوف قلوبهم، وساد الصمت حتى ليسمع القوم حفيف أوراق الأشجار وخفقات قلوبهم التي في الصدور.

ثم أتم الشيخ كلامه قائلا:

ـ سيتم تنفيذ الحدِّ الآنَ، ليكون عِظَةً وعِبْرَةً لمن خلفه، ورمَق بطرف عينه ثُلةً من الشباب الذين كانوا يتّبعون ابنه.

أمر القاضي الحارسَ أن يرفع اللِّثام عن وجه محمد.

كان وجه الفتى مُمْتَقِعا وشاردا على غير العادة، ونظراته الزائغة توحي لمن يراه أن به مسّا من الجنون، أو أنه كان يُعاقِرَ الخمر فعلا، ولما وجّه إليه القاضي السؤال لكي يدفع عن نفسه التهمة أمام الناس، اكتفى بأن نظر إلى القاضي نظرةً حَمّلها كل ما في وجدانه من تعبيرات الاشمئزاز والاحتقار، وهمْهَمَ بكلامٍ غيرَ مفهوم، ثم نظر إلى السماء، ولاذَ بالصمت.

تغيرت سِحنة القاضي، وقد فهم معنى النظرات التي حدَّجَه بها محمد، وأنه في قرارة نفسه يَحْتَقِرُها لإذْعانه دائما لأوامر الحسن، وهو أجبن من أن يعصي للحسن أمرا، وقد أغدقَ عليه العطايا، كما أنه لا يأمن صَولته إذا عصاه.

أمر القاضي الجنديَ الواقف خلفه أن يبدأ التنفيذ، لينتهي من هذا الموقف الْمُهين.

اقتيد محمد بخطى متثاقلةً إلى ربوةٍ عالية تُشْرف على هاوية عميقة، وسَلَّ الجندي حُسامه الصقيل، فبرق في أشعة الشمس التي ظهرت من فُرجة صغيرة من بين السحب، كأنها تَرْقُبُ المشهد الدموي، وأهوى به على عُنُقِ الولد الذي تفجَّرت منه الدماء وخرّ صريعا إلى هُوة الوادي السحيق، ليُترك هناك فَتَخْطَفَهُ الطير أو تنهشه الضَّواري.

عَّم الوجوم وجوه القوم، وأشار لهم الشيخ حسن بالانصراف، فتركوا المجلس يغشاهم الخوف، ويتصبب العرق البارد من جباههم فَرَقا ووجلا.

تركت هذه الحادثة أثرها الكبير في نفوس الناس، وكانت محل جدلهم ونقاشاتهم، أما العامّة فقد زاد احترامهم وخشيتهم من الشيخ حسن، لأنهم ظنّوا فيه التّقى والورع، حيث أقام الحدّ على ابنه وفلذة كبده، دون أن يهتز له طرْف.

وأما آخرون فقد كانوا يرَوْن الحادثة بعين الخبث والدهاء، وأن الحسن داهية ماكر ضحى بابنه ليأمَن الثورة عليه من أقرب الناس إليه، وهو ابنه ورفقاؤه، وفي كل الأحوال خفتت حدة المعارضة التي أثارها ابنه قبل موته رويدا رويدا، وإن بقيت جذوة أفكاره في عقول بعض الشباب خافتة، لكنها لم تمت، لأن الأفكار التي زرعها محمد في نفوس تابعيه كانت كالجمرة تحت الرماد، بالرغم من أن خطة الحسن أثمرت مرحليا في التخلص من معارضة ابنه ومَن وراءه، وتم تثبيت دعائم السلطة في القلعة وما حولها من إقطاعياتٍ كانت تحت حكمه.

لم يكن الصبّاح يبوحُ لأحدٍ عمَّن يَتَرَسَّمَ خُطَاه أَو يكون مثلا أعلى له، لكنه كان يُبدي إعجابه الشديد ببعض القادة.

الحقيقة أن مثله الأعلى في السياسة والحرب كان الحجّاج، بالرغم من اختلاف المذهب، والأدنى أبو مسلم الخُراساني، أما في الفلسفة فلم يكتف بواحد، وإنما قرأ لمعظم الفلاسفة العرب والهنود والفرس واليونان، وكان واسع الاطلاع على كتب الفلك والسحر والكهانة، وكان يكتب بنفسه تعليقات على هوامش كتبهم ضمّنها آراءه الشخصية واعتراضاته على بعض ما جاء فيها.

وكان الحسن متعصبا لأصوله الفارسية، وقد اعتمد اللغة الفارسية لغةً للتعليم الديني في زمنه.

وكان هذا الحوار استكمالا لحوار سابق بين الشيخ وأحد تلامذته قبل نزوله من على الصخرة ذاتَ ضُحىَ، حينما اعترض التلميذ علي نور الأبصار - كان هذا اسمه، وكانوا يختصرونه أبصار فقط- قائلا:

ـ كيف لك أن تَنْزِعَ ضغائنَ النَّفوس وتَسُلّها ممن وَتَرْتَه؟

ـ هذا علاجه ألا تسَلَّ ضغينته، بل أن تُنْتَزَعَ روحه لتُلقى في سواءِ الجحيم.

ـ إذن سوف يستمر جريانَ الدماء، لأن المغدورَ لن يعدم مُؤيدا أو مُشفقا أو أحد أرحامه يقوم مقامَه.
ـ المال يستَلُّ ضغائنَ الأنفس الضعيفة، أما القوية فالسيف يستلها.
ـ فهل تنشأ الدول بالضعفاء إذا قضينا على الأقوياء؟
نظر إليه الشيخ نظرة متسائلة مُستريبة قائلا:
ـ أنت افترضت أن الأقوياء كلهم علينا أو على دعوتنا! ولا ريب أن كثيرا من ذوي الهمم العالية سوف يتَّبعون دعوتنا.
ـ تقصد ذوي المصالح!
ـ نعم.
كانت المناقشة حامية، ولولا علمُ الشيخ الحسن أن ولاء أبصارٍ فوق الشك والريّبِ لظنَّ به الظنونَ، لكنه كان يعلم أن اشْتداد النقاش بسبب أن أبصار يريدُ تجنب الأخطاء في حال اكتسبت الدعوة الزخَمَ الكافي لزحفها وبدأت سبيلها، لذلك كان صبر الشيخ عليه كبيرا، وكان يترفق به، ويشرح له بكل أرْيَحِّيَةِ ما غَمُضَ عليه.
قال أبصار:
ـ أخشى أن المنتفعين فقط هم من سوف يتبعون دعوتنا.
ـ وهم ليسوا قلة.
ـ ماذا عن الحكام الحاليين؟
ـ هؤلاء لن يُصْلِحَهم إلا السيف، لأن المنطق والعقل، والحق والعدل، كل أولئك لا يقنع الحاكم أبدا بترك السلطة إلا إذا كان قد وصل إليها ببيعة صحيحة لا جبر فيها ولا غدر، وهؤلاء لم يصلوا لها ببيعة أصلا، لا صحيحة ولا فاسدة.
ـ ماذا عن الشيوخ المعتبرين؟
ـ شيوخ السلطان مع كل سلطان، أما الشيوخ الربانيون فهم لا يجيزون الخروج على حاكم صالح، مع اختلاف الأسباب، وهؤلاء الشيوخ هم العقبة الكؤود، لأنهم لن يقتنعوا إلا بما بين أيديهم من الكتاب والسنة.

ـ فمن سوف يدعو بدعوتنا إذن؟

قال الشيخ بابتسامة واسعة، لكنها لم تُخْفِ ما في عينيه من دهاء ومكر:

ـ الشيوخ الذين يحبون الْفَارِهَ من المركب، والْوَطِيءَ من الفِرَاش، والملبس الأنيق والقناطير الْمُقَنْطَرةِ من الأصفر الرنَّان، وأنا أعلم نفرًا غير قليل منهم، مُفَوَّهِينَ، مُنَمَّقِينَ مُتَأَنِّقِينَ، لا تَخيبُ لهم حُجَّةً، ويستندون إلى كل حديث ضعيف، ويلوون أعناق الآيات لتوافق مُبْتَغَاهم، ويَسْتَنْبِطون أحكاما كما نريد، هؤلاء هم أحبابنا وحبال خيامنا وأعمدتها.

ـ ألا تخشى أن ينقلبوا عليك إذا هبّت رياح أعادينا؟

ـ أول ما يجب التخلص منهم بعد استتْباب الأمر لنا وتَوَسَّدِنا إياه هم هؤلاء، لئلا يكونوا عُدَّةً لأعدائنا ومُنَاوِئِينا، ثم نُبْرِزُ ذَوِي محبتنا الصادقة وَنُعْلِي شأنهم أمام العامة والخاصة.

ـ فكيف لكَ بالقادة؟

ـ القادة هم من ترى بعينيك الآن، وأشار إلى فتيانه الذين يلعبون بالسيوف، ألم ترَ أنني اخترتهم من كافة الأمصار والقبائل ودرَّبتهم وثقَّفتهم كَتَثْقِيف الرماح، وإنك لَتَضَعَ الواحد منهم في غير مَصْرِهِ، وبعيدا عن أهله وذوي رَحِمِه، فلا يلبث أن يأسِرَ ألباب القوم بفروسيته وكرمه ونجدته وعلمه بمواضع فخرهم وعزهم، والقوم يألفونَ الغريب أكثر من القريب، ويبوحون إليه بدخائلِ نفوسهم أكثر من أقربائهم وذوي أرحامهم، لأن الحرجَ ينعدمُ، والكُلفة ترتفع، وتولد الأُلفة، ولا يجد أحدهم عارا أنْ يَشِيَ إليك بسرٍ عَصَبَته وأهل بلدته، ليجعل لنفسه يدا عليك وفضلا، وبالأخص صغار النفوس وأصحاب الحاجات والْمُتَطَلِّعون إلى المناصب بغير شرف قديم أو عزٍّ باذخ، فهؤلاء هم لَبِنَات الحكم وأدواته.

ـ لم أقصد ما ذهبت إليه.

ـ لعلك تقصد قادة الجيوش الآن؟

ـ نعم.

قام الشيخ حسن من مجلسه، وسار بخُطَى وَئيدةً إلى إحدى الغرف الداخلية، وفتح خزانة سرية، ثم أخرج منها صندوقا كبيرا فتحه بحرص، وأخرج ما فيه من أوراق ومطوياتٍ، نَثَرَها بين يدي أبصار الذي ما إن تَصَفَّحَها حتى وقف مَشْدُوها مما يرى.

كانت محتويات الصندوق عبارة عن مراسلات بين الشيخ حسن وقادة الجيوش في البلاد التي ينوي دخولها، وفيها يُقسمون له أيمانا مُغَلَّظَة على الولاء والطاعة عندما يدخلها دخول الظافرين وَيُؤَمِّنُون الطرق والممرات التي سوف تمر منها قوافله ورجاله، وبعضهم كان مقتنعا تماما بدعوته، مُتَحَمِّسا لنشرها، والبعض الآخر كان طامعا في منصب أو ولاية، وأعطى الشيخ حسن وُعُودَه لكل هؤلاء، وقابل بعضهم مُتنكرا في زيِّ البدو والأعراب في مجاهل الصحراء.

وضع أبصار يده على خاصرته متسائلا:

ـ فماذا عن أعيان البلاد ومن لهم السمع والطاعة؟

ـ من أعاننا أثْبَتْناه في عمله، ومن عادانا ففي باطن الأرض سَعة له ولأمثاله.

ـ فما حاجتنا إلى الدعوة إذا نحن أعْمَلْنا السّيفَ في المعارضين؟

ـ لابد لكل نظام جديد من حُجّة ظاهرة تَسْتَهوي العامة وتستخدمها الخاصة، ولابد لكل سلطة من حق تدعو إليه، حتى وإن كان باطلا يَتَزَيّى بالحق، والكلام اللَّين يغلبُ الحق البيِّن.

كانت في بعض الأحيان آراؤه صادمة وتتعارض مع بعض من يقرأ لهم ويقدِّرهم وكان من أقوال الشيخ حسن الصبّاح التي لا يفتأ يرددها بنبرة تملأها اللَّهفة ، لو مَلَكْتُ مِصْرَ لَمَلَكْتُ الدنيا بأقطارها الأربعة كما كان يقول:

ـ القاهرة حاضرة الدنيا، وإليها يجب أن يَفِدُ كل جديد، ومنها يخرج كل تَليد، الناس إلى علمائها مُفْتَقرون ، وإلى خيراتها منتظرون، هي التي يجب أن تأمرَ فتُطاعَ لا أن تُؤمرَ فَتَنْصاع، وهي التي تمنح وتمنع، لا أن تستجدي وتستمنِح.

أرضها غنية، وسواعدها فَتِيَّة،وقد عَلِمَ الأقدمون قيمتها ولا يجهل الحاضرون ولا البادون نعمتها، لكنها في حال الخصب تفتح ذراعيها لكل الأنام وفي حال الجدب تُقصي ذوي الأرحام كما هي الآن.

ـ كيف؟ وقد أقام فيها الغرباء من كل الأمم في كل أحوالها حتى عندما كانت تضربها المجاعة والسنون بالقحط والعوز.

ـ أنا أقصد جدب العقول والأفهام، لا الحقول والآكام.

كان يضع بين يديه خريطةً للعالم تتوسَّطُها القاهرة وتصُبَّ فيها كل طرق المواصلات القديمة والتي استحدثها وأضافها إلى الخريطة ويخطط أن يُنَفِّذَها إذا دَانَت له الأمور.

بدت على ملامحه تعبيرات الشَّغَفِ واللَّهفة، وقد أشار بيده إلى خريطة مصر قائلا:

ـ انظر إلى مصر، إنَّها كالرجل العظيم الواقف على جذور صلبة في إفريقيا ووجهه إلى جهة الشرق، حيث بلاد الشام، بلاد التين والزيتون وما تلاها، وهامته في الشمال، حيث يرْقُبُ بلاد الإفرنج، إنها تتوسط العالم، ولا ينبغي لغيرها أن ينازعها مكانتها التي حبَاها بها الله، ولا ينبغي لحاكمها أن يجهلها حيث هو الآن، وقد بلغنا القرن العاشر وازدهرت العلوم وتعددت المعارف ووسائل الاستكشاف، وقد أخذت الأرض زخرفها حتى ظننت أننا في آخر الزمان.

ـ ماذا ترى لها؟

ـ أرى لها أن تثبت أقدامها حتى منابع النيل جنوبا، وتمد ذراعيها حتى جبال طوروس شرقا وشمالا.

ـ ماذا عن الصليبيين؟

قال الشيخ بأسى:

ـ إن مصر يراد لها أن تظل طريحة الفراش، لا تنهار ولا تقوم.

قال أبصار مفسرا كلامه:

ـ إذن يرادُ لها أن تظل كما هي عاجزة كسيرة، ولا تبرأ وتنهض كبقية الأمم.

ـ نعم، لأنها إذا انهارت أصبحت كَوَكْرِ الطيور الجارحة للصليبيين وإذا قامت ابتلعت من حولها.
ـ ولِمَ يفعل الصليبيون ذلك؟
تغيرت ملامح الشيخ، واكتسى وجهه بعلامات الأسى وقال:
ـ أتظن أن الصليبيين يتحملون قيام دولة قوية على الشاطئ الجنوبي لبحر الروم تهدد طرق مواصلاتهم والخيرات التي تُجْبَى إليهم من أصقاع الأرض؟ هيهات، دَعْكَ من أنهم أتَوْا لينقذوا الأرض المقدسة، فهذا محض هراء، وهم لن يسمحوا بقيام دولة قوية مرة أخرى في هذه الأرض، حتى ولو كانت دولة كافرة تعبدُ الأوثان.
ـ ماذا عن إرادتها؟
ـ مسحوقةً تحتَ سنابكِ الخيلِ ونيران المجانيق.
ـ فماذا عن دويلة الصليبيين التي أقاموها في بيت المقدس؟
ـ هي حلمهم القديم، ولقد أقاموها لتضع حدا فاصلا بين مشارق الأرض ومغاربها، وهي ليست دولة، بل هي كالنُّزُلِ الكبير ولو دَوَّت أجراس الحريق لَحَزَمَ النُزَلاءَ حقائبهم وقفزوا من النوافذ طلبا للسلامة وإيثارا للعافية.
ـ ومتى تُدَوِّي الأجراس؟
اتخذ الشيخ سيماء الفقهاء وقال:
ـ علمها عند ربي، لكنها حتمًا سوف تفعل.
لم يكن الشيخ حسن لِيُطْلِعَ أبصار على هذه المراسلات إلا وقد اقترب موعد التنفيذ، وقد كان يُعِدُّ لذلك عُدَّتَهُ، لكن كان للقدر قرار آخر.
******

هولاكو المُهلك

كان الفارس الْمُجَلَّل بالزَّرَدِ والحديد مُمْتَطِيا صَهوة جواده الأشْقر يملأه الحماس ويخطب في ثُلة من الجنود مُتشابهي الألوان والأطوال والسِحَن، كأنما صُبّوا على منْوَالٍ واحد خُزْر العيون، لهم وجوه مُستديرة صفراء يملأون السهل والجبل أمامه، فلا يَبِنْ العُشْبَ تحت أقدامهم إلا من فُرُجَاتٍ قليلة، وانتصبوا واقفين كأن على رؤوسهم الطير يستمعون لقائدهم الذي يَحُثُّهم على الشجاعة والاستبسال في القتال، نُزولا على رغبة قائدهم الْمُبَجَّل هولاكو الذي كان على أطراف خوارزم شاه يُعِدُّ عُدَّتَه للهجوم على الممالك الإسلامية الممزقة، التي أنهكتها الحروب الداخلية والفتن.

كان يستقطب كل مملكة على حدَة بالحرب وبالمداهنة وبالمراوغة، وقد بثَّ عيونه في جميع أرجائها يأتونه بالأخبار، وتم تحذيره تحذيرا شديدا من "الإسماعيلية الحشاشين"، لذلك فقد أخذ أهْبَتَهُ لاسْتئصال شَأفَتِهِم والقضاء عليهم في زحفه إلى القاهرة التي كان يعتبرها الجائزة الكبرى لمن يخضع العالم لسيطرته.

كان الجواسيس الذين بثهم هولاكو في طريقه يستطلعون الأنباء ويستكشفون الثغور والثغرات قد عادوا بجعبتهم ملأى بالأخبار والمعلومات الدقيقة والأسرار عن قلعة آلموت وساكنيها وكيفية تزويدها بالمؤن، وأعلموه أنها قلعة منيعة ذات موقع فريد، وتحتمي بالجبال الشاهقة التي تحوطها من كل الجوانب، ولها مدخل وحيد محروس بأشد الرجال قسوة، والذين هم على استعداد لتجرع كأس الموت في سبيل حماية القلعة وقاطنيها، لكنهم أيضا أعلموا هولاكو بنقطة ضعفها الوحيدة، وهي أن القلعة لا تزرع ما يكفي قوت أهلها، وهي لذلك تعتمد على المقاطعات المجاورة في تزويدها بمادة الحياة، وهي الغذاء الكافي لإطعام سكان القلعة، ولذلك استقرت خطة هولاكو على استعمال هذا السلاح الفتاك في إضعاف مقاومة القلعة، حين يحين الوقت لاقتحامها.

****

التناقض

كان الشيخ مسعود يتحدث إلى مدكور بك صديقه عن الحسن الصبّاح بإعجاب شديد قائلا:

ـ الشيخ الصبّاح ذو عقل كبير وذكاء خارق، لكنه لم يكن حكيما بما فيه الكفاية ليعلم أن نشر الدعاوَى لا يكون بإراقة الدماء، الغريب أن هذا الرجل كانت له آراءً عظيمة في مصر، لكن الأغرب أنه كان يستخدم وسائل غايةً في القسوة والدموية في سبيل الوصول إلى مُبتغاه.

قاطعه مدكور بك بإشارة من يده، وأمال رأسه ناحيته قائلا:

ـ "وانت بتبيع سِبَحْ؟!"... قالها بتهكم وابتسامة ساخرة ماكرة.

قَهْقَهَ الشيخ وعَلَتْ ضَحِكَاتُه، ولم يَبْدُ عليه الاعتراض، وإنما بيّن وجهة نظره قائلا:

ـ أنا ليست لي مطامع كالتي كانت له، أنا أهدافي أبْسط من ذلك وأهون، أنا أمارس "البيزنس"، أنا صاحب شركة خدمات، بغضّ النظر عن طبيعة تلك الخدمات.

قال مدكور بك، موضحا وجهة نظره:

ـ أنا أتحدث عن وصفك له بالغِلْظَة.

ـ أنت مثلي تماما يا مدكور بك، لكن الفارق أنك لا تحب أن تلوِّث يديك يا سيدي، أنت تحب أن تظل أنيقا وكريما، وتتبرع للجمعيات الخيرية وتبدو مَصْقول الجبهة والعارِضَيْن في وسائل الإعلام، وتترك لي تنفيذ أهدافك بالغلظة والفظاظة التي لا تعجبك.

أخذ رشفة من قدح القهوة أمامه، ووضع ساقا على الأخرى، ثم واصل حديثه قائلا:

ـ أنت كالطيار الذي يضغط زرًا فَتَسْقُطُ القُنبلة على حيَ سكني تمزِّقُ أشلاءَ الرجال والأطفال والنساء، وهو لا يرى من ذلك شيئا، بل يمتلئ حُبورا وسعادة، لأنه أصاب هدفه، وأن مهمته أُنْجِزَت على ما يرام، ويعود آخر النهار ليصطحب زوجه وأطفاله للعشاء في الخارج، ويشتري لهم المثلجات والهدايا، وإذا دخلت

شعرة فِي عين طفلته أصابه الهَلع، وهُرِع بها إلى طبيب العيون، لأن أصابعه قد تُلوث مُقْلَتَيها الجميلتين إذا أزاحها بأنامله، وتنمحي عن ذاكرته تماما صور أشلاء الأطفال التي مزقها بقنابله هذا الصباح.

****

الحصار

لم يتمكن أيّ من أعداء الحسن الصبّاح من احتلال قلعة آلْمـوْت، أو حتى الاقتراب منها، وذلك للاستحكامات التي شيّدها، وَلكَوْنِ القلعة تحميها الجبال الشاهقة التي تقف سدا مَنيعا أمام أعدائها، لذلك تركزت خطة هولاكو على قطع الْمُؤَنِ عن القلعة وحرمانها من التزود بها من مزارع المقاطعات الخاضعة لسيطرة الحسن الصبّاح فيما حول القلعة، وأثمرت هذه الخطة، ففي فجر أحد الأيام زحفت جيوش هولاكو كالجراد، وأحاطوا كل المستعمرات حول القلعة، وقضوا على كل ما فيها ومن فيها من أحياء، ودانت لهم الأرض.

بذلك انقطع وارد المؤن الداخل إلى القلعة، وحدثت المجاعة الشديدة التي أتت على الأخضر واليابس فيها، حتى أكل الناس أوراق الشجر والميتة ولحم الخنزير، وبذلك نجح الحصار الذي فرضه هولاكو نجاحا باهرا، وأثناء الحصار مَرِضَ الحسن الصبّاح ووافته الْمَنِيَّةَ قبل دخول هولاكو، وكان خليفته ركن الدين خورشاه يفتقر إلى الحنكة والدهاء اللذين تمتع بهما سلفه، وقد قتله المغول، وسقطت القلعة في أيدي جنود هولاكو، وأعمَلوا فيها القتل والتخريب، وأطعموا النيران مكتبتها الضخمة بما فيها من كتب وأسفار، وانتهت أسطورة الحسن الصبّاح، وتناثر من ظلوا أحياءَ من الطائفة في جبال أفغانستان وبدخشان والهند، وتلاشت تقريبا دعوة الحشاشين، كما تتلاشى كل دعوَى باطلة.

******

لقاء الأضداد

جمع ثامر بين مهاب وعبّود في حديقة منزله، بعد أن أعطاه مهاب كل المواثيق أنه لن يقبض على عبّود، وبدأ عبّود يسرد على مهاب كل ما يعلمه، منذ أن التقاه بسيوني إلى هذه اللحظة، وكان مهاب بحسِّ المحقق الذكي يدرك مدى صدق أو مبالغة عبّود في كل التفاصيل، وكان يدوِّنُ بعض الملاحظات في مُفَكِّرةٍ صغيرة عن الدكتور وعن بسيوني والمنشاوي والسباعي، وبالتأكيد عن الشيخ، الذي كان مِلء السمع والبصر تستضيفه القنوات الفضائية والصحف، وهو ضيف شبه دائم لدى ذوي السلطة والنفوذ، لذلك كان مهاب حَذِرا جدا في تصديق هذه الوقائع، خشية الوقوع في الخطأ، لكنه بدأ سلسلة من التحريات غير الرسمية، مُستعينا ببعض زملائه، بعد أن روى ما حدث لرئيسه المباشر، وبَذَلَ محاولاتٍ مُضْنيةٍ لإقناعه، حيث كانت المعلومات التي أفرغها مهاب في أذُنَي رئيسه أشبَهَ بالخيالات والأوهام.

دخل مهاب قاعة الاجتماعات الفسيحة، وكان رئيسه المباشر جالسا على مقعد في أحد أطرافها يقلب بين يديه أوراقا، فَنَحَّاها جانبا عندما دخل عليه مهاب، وبادره قائلا:

ـ هاتِ ما عندَك.

تحدث مهاب دون مقدمات قائلا:

ـ الشيخ مسعود يقود تنظيما عصابيا محترفا للاغتيالات، هذه خلاصة القول.

تقلصت عضلات وجه العقيد المهدي، ورفع سبابته في وجه مهاب قائلا:

ـ أتدري قيمةَ كلامكَ هذا؟

ـ نعم.

بدت ملامح الجدية والصرامة على العقيد المهدي، وأعاد رفع سبابته القصيرة في وجه مهاب ثانية وبحدة، قائلا:

ـ اسمع يا مهاب، الشيخ مسعود شخصية عامة، والإعلام لا يرحم، ولو ثبت أن روايتك غير صحيحة، فسوف نجلس في بيوتنا أنا وأنت.

ـ يا أفندم، أولا أنا متأكد من هذه الوقائع، وثانيا ماذا علينا لو وضعنا مقراته تحت الملاحظة الدقيقة قبل اتخاذ أي إجراء؟

ـ أنت تتحدث كما لو أنك لا تعرف إمكاناتنا، يا مهاب ليست لدي العناصر المدربة بشكل كاف لمثل هذه العمليات الآن.

ـ فلنختر أفضل العناصر المتاحة إذن.

وبدأ مهاب في سرد بعض التفاصيل الإضافية على رئيسه، الذي بدا عليه الاقتناع، ثم أمره بتشكيل فريق عمل لجمع التحريات والأدلة على نشاط الشيخ ورصد مقراته، ووضعها تحت المراقبة السرية المشددة.

كان العقيد المهدي وطنيا حقيقيا ومحترفا في عمله، وهذا ما جعله يتولى موقعا مهما، كما قرّب بينه وبين مهاب أنهما كانا يتوافقان في كثير من الأمور، بالرغم من أنه في بعض الأحيان كان يُسدد ويُقارب، لكنه يحتفظ دائما بالخيط الرفيع الفاصل بين التهاون والمرونة.

بعد شهر كامل من مراقبة جميع مقرات الشيخ مسعود، تأكد فريق البحث أن أمورا غامضة وسرية تجري داخل هذه المقرات لا يعرفون ماهيتها لكنها في كل الأحوال تبدو خارج إطار القانون، وتمت الموافقة على مداهمة تلك المقرات.

******

النصر المنقوص

في اليوم الموعود، وبعد الإجراءات القانونية، تمت مداهمة جميع مقرّات الشيخ وقصوره، بصحبة عبود، الذي أطْلَعَ فرقة المداهمة على كل المقار التي يعرفها ومداخلها ومخارجها.

وكانت المفاجأة خُلُوَّ جميع المقرّات من محتوياتها كافَّة، حتى الأثاث تم نقله، ووقف مهاب في وسط البهو الكبير للمقر الرئيس للشيخ مسعود ذاهلًا يضرب كفًّا بكف، ويتساءل:

ـ كيف تم إخلاؤها تحت سمعهم وبصرهم بكل محتوياتها دون أن يراهم أحد، وكيف اختفى الشيخ مسعود بين ليلة وضحاها دون أثر، ومن الذي أحاطه علما بالمداهمة؟ كانت الأسئلة في ذهن المحقق مهاب لا تنتهي إلا لتبدأ.

في أحد المقرات النائية للشيخ مسعود، بعد أن اكُتشف خلو المقر من الأفراد والأثاث، وقف الضابط المكلف من فرقة المداهمة حائرا أمام خزانة خشبية كبيرة لم تُنقل، واستلفت انتباهه خيطٌ رفيعٌ من الدماء أسفل الخزانة يمتد في جريانه كأنه ثعبان رفيع إلى وسط الحجرة، فتقدم ناحية الخزانة وفتح بابها بكل حذر، ويده على سلاحه، ففوجئ بجثة تسقط أمامه في قلب الحجرة منكفئة على وجهها.

أتى مهاب بعد استدعائه على عجل، ولما رفع الوجه بحذر، فوجئ بأنه لم يكن إلا وجه بسيوني المغطى بالدماء اللَّزِجَة، فقال:

ـ يبدو أن قدَرَ بسيوني أن يكون كبش الفِداء في كل عمل يقوم به.

****

الصفحة الأخيرة

التقطت كاميرات المراقبة الخارجية للمقر العام للشيخ سيارة قديمة الطراز تقف على مقربة من المقر بصورة شبه دائمة، ولفتت أنظار المهندس السباعي الذي أحاط الشيخ علما بوجودها فور اكتشافها، فطمأنه الشيخ وتركه يمارس عمله كالمعتاد، غير أنه وضعها في حسبانه.

عصر ذلك اليوم، اصطدمت دراجة نارية مسرعة يقودها موظف توصيل الطلبات في مطعم مشهور صدمة شديدة بالسيارة الرابضة، انفتح من جرّائها صندوق الوجبات، وتبعثرت محتوياته، وسالت على قارعة الطريق، وانتبه فريق المراقبة المكوَّن من فردين داخل السيارة على حين غِرَّة لهذه الصدمة، فَتَرَجَّلا من السيارة لاستطلاع الموقف، وعَلا صوت نحيب موظف التوصيل، لأن قيمة الوجبات ستُخصم من مرتبه، بالإضافة إلى تكلِفة إصلاح الدراجة النارية التي كان يمتطيها، وتجمع بعض المارة للفُرجة على ما ستُسْفِر عنه المواجهة، بينما كان أحد المارة يدسّ رأسه ويده داخل السيارة، ويلتقط مفكرة ورقية صغيرة حشاها في جيبه على وجه السرعة، وغادر المكان سريعا من دون أن يلحظه أحد.

انتهى الموقف بأن طيّبَ المارة خاطر راكبي السيارة بكلمات التلطيف المعتادة، ولما صعد أحدهما إلى السيارة فوجئ باختفاء المفكرة التي كان يسجل فيها ملاحظاته عن المقر والداخلين والخارجين ومعلومات أخرى، وتبين لهما أنه قد تم خداعهما بهذا الحادث الْمُفْتَعَل، كان موظف التوصيل قد اختفى، وكأنه تبخر، وقد قررا أن يَكْتُما هذه الواقعة عن المحقق مهاب، لكيلا يتهمهما بالسطحية والبلاهة، وأنهما تسببا في كشف فريق المراقبة، وإضاعة المجهود الضخم الذي بُذل في هذه العملية، المثير أنهما استمرا في أداء دورهما بكل أرْيَحِيَّةٍ وتفانٍ، بعد اكتشافهما، خوفا من المساءلة، وكأن شيئا لم يكن.

لكن هذه الواقعة المقصودة والمعلومات التي كشفتها المفكرة كانت أكثر من كافية للشيخ لكي يُلَمْلِمَ أوراقه، ويقرر تعليق أنشطته وإخلاء جميع المقرات تماما.

اكتشف المحقق مهاب فشل فريق المراقبة في الحفاظ على سرية المهمة، فاتخذ معهم الإجراء الطبيعي، وبلغ رئيسه الذي طيب خاطره قائلا:

ليس هناك أسوأ من الخطة التي يرسمها الأذكياء وينفذها الحمقى.

لكن كيف تم إخلاء المقرات تماما حتى من الأثاث؟ هذا ما جعل ذهن المحقق مهاب لا يزال غارقا في الْحَيْرة.

***

المال جزمًا يجلب السعادة، لكنها تأتي غالبا وفي ذيلها الشقاء.

تفوه الشيخ مسعود بالعبارة السابقة، ثم خرج من الفندق الذي كان متواريا فيه تحت اسمٍ مستعار وببطاقة منتحلة، وكان حليق الذقن مرتديا حلة إفرنجية أنيقة من التويد الانجليزي الفاخر وأوصد الباب خلفه، ثم صعد إلى السيارة الفارهة المتوقفة أمامه، وتَحَسّسَ برفْق القبعة ذات الصقر التي كانت إلى جواره، والتي طال اشتياقه لها، ثم انطلق بالسيارة يسابق الريح.

تمت

صدر للكاتب

دقات على باب الغربة.. أدب رحلات. عن دار الفؤاد للنشر والتوزيع عام ٢٠١٦

للتواصل مع الكاتب

senbisy@hotmail.com

Facebook.com/senbisy

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٦ ►

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
أزمة ثقة - ط٢	رواية	رباب فؤاد
ثورة محظورة النشر –ط٢	توثيقي	محمد عبد الغفار
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	مجموعة مؤلفين
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي
ورقة في دوسيه	ديوان شعر	محمود الجوهري
شعب مالوش كتالوج - ط٢	كتاب ساخر	أدمنز صفحة الضاكتور
انتفاضة العملاق الداخلي	تحفيزي	مصطفى محمود
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافه الشرقاوي
فانتوبيا	رحلة فانتازية	إسلام علي/إلهامي مجدي
حياة خفيفة على جناح فراشة	تلوين للكبار	آلاء زهير
شمس بين الضباب	توثيقي	محمود إمام
مرايا الروح	تأملات	عبير جمال الدين
بعض منا	مجموعة قصصية	عبير جمال الدين
ناريسا	رواية	ميرفت البلتاجي
اتفضل في الصالون	رواية	محمد محسن
وراء الحواس	شبه رواية	ياسين أحمد سعيد

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٧ ◄

الكتاب	النوعية	المؤلف
رزان	رواية	محمد الجمال
مدينة العذارى	مجموعة قصصية	إسلام الحادي
الخطية	رواية	إيهاب ماهر
حور	رواية	طاهر مصطفى أحمد
الصبار لا يعطي ظلا	مجموعة قصصية	مجدي حشمت سعيد
صندوق رسائل	رواية	وليد نبيه
لعنة الرغبة	رواية	تغريد إحسان
حياة خفيفة على جناح فراشة٢	تلوين للكبار	آلاء زهير
Assassins	تلوين للكبار	عمرو الحمزاوي


دار
الفؤاد
للنشر والتوزيع